

القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد
المتوفى سنة ٦٣٢ هجرية

تحقيق ومراجعة
سعد كرم الفقى









سيرة صلاح الدين الأيوبى

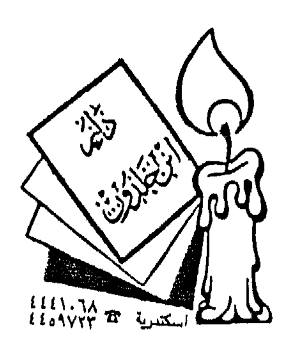
تأليف

القاضى بهاء الدين المعروف

بابن شداد

(المتوفي ٦٣٢ هـ)

ويليه منتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماه
تأليف تاج الدين شاهنشاه ابن أيوب رحمه الله





بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله) الذى من علينا بالإسلام وهدانا بالايمان الجارى على أحسن نظام * وأنعم علينا بشفاعة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام * وجعل سير الأولين عبرة لأولى الأفهام * وتقلبات الأحوال قاضية على كل أمر حادث بالانصرام (١) * كيلا يغتر ذو جمال حسن ولا ييأس من لعبت بأحواله أكف السقام (٢) (واشهد) أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشفى القلوب من لظى الاوام (٣) (واشهد) أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذى فتح للهداية أبواباً يلج المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد و الاستسلام * صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة ببقاء الأيام (وبعد) فإنى لما رأيت أيام مولانا السلطان * الملك الناصر جامع كلمة الايمان * وقامع عبدة الصلبان * رافع علم العدل والاحسان * صلاح الدنيا والدين * سلطان الاسلام والمسلمين * منقذ بيت المقدس من أيدى المشركين خادم الحرمين الشريفين أبى المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى سقى الله ضريحه صوب الرضوان * وأذاقه فى مقر رحمته حلاوة نتيجة الايمان * قد صدقت من أخبار الأولين ما كذبه الاستبعاد * وشهدت بالصحة لما روى من نوادر الكرام الاجواد * وحققت وقعات شجعان مماليكها ما قدحت فيه الشكوك من أخبار الشجعان * ورأيت بالعيان من الصبر على المكاره فى ذات الله ما قوى به الايمان * وعظمت عجائبها عن أن يحيط بها خاطر أو يجنها جنان * وجلت نوادرها أن تحد ببيان لسان * أو أن تسطر فى طرس ببنان * وكانت مع ذلك من قبيل لا يمكن الخبير بها اخفاؤها * ولا يسع المطلع

---

(١) الانصرام : أى الانقضاء والانتهاء .

(٢) السقام : أى الأمراض المزمنه مفردها (سقم) .

(٣) الأوام : حرارة العطش وشدته يقال فى جوفه أوام وأوار .

عليها إلا أن تروى عنه أخبارها وأنباؤها * ومسنى من رق نعمتها * وحق محبتها وواجب خدمتها * ما يجب على به ابداء ما حققت من حسناتها * ورواية ما علمت من محاسن صفاتها . (رأيت) أن اختصر من ذلك على ما أملاه على العيان * أو الخبر الذى يقارب مظنونه درجة الايقاف * وذلك جزء من كل * وقل من جل * ليستدل بالقليل على الكثير * وبالشعاع على المستطيل بعد المستطير * وسميت هذا المختصر من تاريخها (النوادر السلطانيه * والمحاسن اليوسفيه) وجعلته قسمين أحدهما فى مولده رحمه الله ومنشئه وخصائصه وأوصافه وأخلاقه المرضية [1] * وشمائله [2] الراجحة فى نظر الشرع الوفية * والقسم الثانى فى تقلبات الاحوال به ووقائعه وفتوحه * وتواريخ ذلك أيام حياته قدس الله روحه * والله المستعان فى الصيانة عن هفوات اللسان والقلم * وجريان الخاطر بما فيه مزلة القدم * وهو حسبى ونعم الوكيل .

القسم الأول
في ذكر مولده وخصائصه وأوصافه وشمائله وخلاله رحمة الله عليه

كان مولده رحمه الله على ما بلغنا من ألسنة الثقات الذين تتبعوه حتى بنو عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم فى شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت * وكان والده أيوب بن شاذى رحمه الله تعالى واليا بها وكان كريما أريحيا حليما حسن الاخلاق مولده بدوين ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل المحروسة وانتقل ولده المذكور معه وأقام بها إلى أن ترعرع وكان والده محترما هو وأخوه أسد الدين

(١) أخلاقه المرضية : أى اخلاقه الحميدة الحسنة .
(٢) شمائله : أى أخلاقه مفردها الشمال أى الخُلُق .

شيركوه عند اتابك زنكى واتفق لوالده الانتقال إلى الشام وأعطى [١] بعلبك وأقام بها مدة فنقل ولده المذكور إلى بعلبك المحروسة وأقام بها فى خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدى محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة * ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة * فقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله تعالى وعول عليه ونظر إليه وقربه وخصصه * ولم يزل كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه إلى ما هو أعلى منه حتى بدا لعمه أسد الدين رحمه الله الحركة إلى مصر المحروسة وذهابه إليها . وسيأتى بيان ذكر ذلك مفصلا مبينا إن شاء الله تعالى .

ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية

ورد فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « بني الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام » [٢] * وكان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء وفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنًا وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه . غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه جارية على نمط الاستقامة موافقة القانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء * وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابورى عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب . وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم فى

(١) أى تولى إمارتها وبعلبك إحدى مقاطعات بلاد الشام .

(٢) حدث صحيح متفق عليه رواه البخارى ١ / ٨ ، ٨ / ١٥١ ٤ ومسلم ١ / ١٦ من حديث ابن عمر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصغر ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم بين يديه .

(**وأما الصلاة**) فإنه كان رحمه الله تعالى شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى أنه ذكر يوما أن له سنين ما صلى الاجّماعة . وكان إن مرض يستدعى الأمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلى جماعة . وكان يواظب على السنن الرواتب . وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ فى الليل وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ولم يكن يترك الصلاة مادام عقله عليه . ولقد رأيته قدس الله روحه يصلى فى مرضه الذى مات فيه قائما وما ترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه . وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى.

(**وأما الزكاة**) فإنه مات رحمه الله تعالى ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة وأما صدقة النفل فإنها استرقت جميع ما ملكه من الأموال فإنه ملك مامِلك ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضه إلا سبعه وأربعين درهما ناصرية وجراماً واحدا ذهبا ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك .[(١)]

(**وأما صوم رمضان**) فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه فى رمضانات متعددة وكان القاضى الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام وشرع رحمه الله فى قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف فى السنة التى توفى فيها وقد واظب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه

---

(١) فالله سبحانه وتعالى ألهمه رشده ونجاه من كنز الذهب والفضة قال تعالى ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكون بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمى عليها فى نار جهنم فيكون بها جنبه وجبينه وظهره » .

ألهمه الله تعالى الصوم وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التى يصومها لأن القاضى كان غائبا وكان الطبيب يلوم وهو لا يسمع ويقول لا أعلم ما يكون فكأنه كان ملهما ما يراد به رحمه الله تعالى .

(**وأما الحج**) فإنه كان لم يزل عازما عليه وناويا له سيما فى العام الذى توفى فيه فإنه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعملنا الرفادة ولم يبق الا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وخلو اليد عما يليق بامثاله فأخر إلى العام المستقبل فقضى الله ما قضى وهذا شىء اشترك فى العلم به الخاص والعام .

وكان رحمه الله تعالى يحب سماع القرآن العظيم ويستجيد إمامه ويشترط أن يكون عالمًا بعلم القرآن العظيم متقنًا لحفظه . وكان يستقرىء من يحرسه فى الليل وهو فى برجه الجزءين والثلاثة والأربعة وهو يسمع . وكان يستقرىء وهو فى مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدى أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقربه وجعل له حظا من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة .

وكان رحمه الله تعالى خاشع القلب رقيقه غزير الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه فى معظم أوقاته [1] . وكان رحمه الله شديد الرغبة فى سماع الحديث ومتى سمع عن شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير فان كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع

---

(١) ورد عن رسول الله ﷺ فى حديث صحيح أنه قال « عينان لا تمسها النار عين بكت من خشيه الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله » . وورد أيضا عنه ﷺ إنه قال ما معناه « عند سماع القرآن إذا لم تبكوا فتباكوا » .

الحديث إجلالا له . وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه . تردد إلى الحافظ الاصفهانى بالاسكندرية حرسها الله تعالى وروى عنه أحاديث كثيرة .

وكان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه وكان يستحضرنى فى خلوته ويحضر شيئا من كتب الحديث ويقرؤها هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه .

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين يقول ببعث الاجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار مصدقا بجميع ماوردت به الشرائع منشرحا بذلك صدره مبغضًا للفلاسفة [١] والمعطلة ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهر وردى قيل عنه أنه كان معاندا للشرائع مبطلا لها وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمره بقتله فطلبه أياما فقتله .

كان قدس الله روحه حسن الظن بالله [٢] كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة إليه . ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه . وذلك أن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين ببيت نوبة وهو موضع قريب من القدس الشريف حرسها الله تعالى بينهما بعض مرحلة وكان السلطان بالقدس وقد أقام يزكا على العدو محيطا به وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته وتركيب القنابل عليه واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الامراء وعرفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة وشاورهم فى الأقامة بالقدس فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها وأصر

---

(١) فلسفة يونانيه الأصل مكونه من مقطعين (فيلو سوفيا) وتعنى محبة الحكمة .

(٢) فقد وصانا رسول الله ﷺ بحسن الظن بالله تعالى فقد ورد عنه ﷺ أنه قال قال الله تعالى « أنا عند ظن عبدى بى إن خيراً فخير ... » .

الجميع على أنه لا مصلحة فى أقامته بنفسه فإنها مخاطرة بالاسلام وذكروا أنهم يقصدونهم ويخرج هو رحمه الله بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا [1] ويكون هو ومن معه بصدر منع ميرتهم أو التضييق عليهم ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم بنفسه علما منه أنه إن لم يقم لم يقم أحد فلما أنصرف الامراء إلى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده حتى يكون هو الحاكم عليهم والذى يأتمرون بأمره فعلم أن هذه أشارة منهم إلى عدم الأقامة وضاق صدره وتقسم فكره وأشتدت فكرته * ولقد جلست فى خدمته فى تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة من أول الليل إلى أن قارب الصبح وكان الزمان شتاء وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ونحن نقسم أقساما ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى أخذنى الاشفاق عليه والخوف على مزاجه فإنه كان يغلب عليه اليبس فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة فقال رحمه الله لعلك جاءك النوم ثم نهض فما وصلت إلى بيتى وأخذت لبعض شأنى إلا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت أصلى معه الصبح فى معظم الأوقات فدخلت عليه وهو الماء على أطرافه فقال ما أخذنى النوم أصلا فقلت قد علمت فقال من أين ؟ فقلت لأنى مانمت وما بقى وقت للنوم ثم أشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه فقلت له قد وقع لى واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى فقال وما هو ؟ فقلت له الأخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه . والاعتماد فى كشف هذه الغمة عليه . فقال وكيف نصنع ؟ فقلت اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح [2] ويصلى على العادة بالاقصى موضع مسرى النبى ﷺ ويقدم المولى التصدق بشىء خفية على يد

---

(١) عكا : إحدى مدن فلسطين .

(٢) الرواح : أى بعد غروب الشمس .

من يثق به ويصلى المولى ركعتين بين الأذان والأقامة ويدعو الله فى سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح [1] وتقـول فى باطنك « **إلهى قـد انقطعت أسبابى الأرضيـة فى نصـرة دينك ولم يبق إلا الاخـلاد إليك والاعتـصام بحبلك والاعتماد على فضلك أنت حسبى ونعم الوكيل** » . فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك ففعل ذلك كله وصليت إلى جانبه على العادة وصلى الركعتين بين الأذان والأقامة ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجادته ولا أسمع ما يقول فلم يتقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك وكان على اليزك يخبر فيها أن الفرنج مختبطون وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ثم عادوا إلى خيامهم وفى بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك . ووصل فى أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت الفرنسية إلى أنهم لابدلهم من محاصرة القدس وذهب الأنكثار وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم فى الجبل مع عدم المياه فإن السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه أنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورن للحرب على ظهور الخيل وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم فأى شيء أشاروا به لا يخالفونهم ولما كانت بكرة [2] الاثنين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة فهذا ما شهدته من آثار أستنباطه وأخلاده إلى الله تعالى رحمه الله .

ذكر عدله رحمه الله تعالى

(روى) أبو بكر الصـديق رضى الله عنه أن النبى ﷺ قـال « **الوالى العادل ظل الله فى أرضه فمن نصحه فى نفسه أو عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله ومن خانه فى نفسه أو فى عباد الله خذله الله**

---

(١) فقد ورد عنه ﷺ أنه قال « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » .

(٢) بكرة الاثنين : أى صباح يوم الاثنين يقال بكر بكوراً أى خرج أول النهار قبل طلوع الشمس .

يوم القيامة يرفع للوالي العادل في كل يوم عمل ستين صديقا كلهم عابد مجتهد لنفسه ».[1]

ولقد كان رحمه الله عادلا رؤفًا رحيمًا ناصرًا للضعيف على القوى . وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفرا وحضرا . على أنه كان في جميع زمانه قابلا لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات. وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلا ولا طالب حاجة وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه. ولقد كان رؤفًا بالرعية ناصراً الدين مواظبا على تلاوة القرآن العزيز عالما بما فيه عاملا به لا يعدوه أبداً رحمة الله عليه . وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته وأعتنى بقصته . ولقد رأيته وأستغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقى الدين ابن أخيه فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم وكان تقى الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يحابه في الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع إنسان تاجر يدعى عمر الخلاطى وذلك أنى كنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل على شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطى معه

---

(١) انظر صحيح البخارى في الأذان ٣٦ والترمذى في باب الجنة (٢) والدعوات ١٢٨ وابن ماجه صيام ٤٨ . والإمام أحمد ٣٠٥/٢ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

وروى البخارى في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل ... » الحديث .

كتاب حكمى يسأل فتحه فسألته من خصمك قال خصمى السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعنا أنك لا تحابى قلت وفى أى قضية هو خصمك فقال أن سنقر الخلاطى كان مملوكى ولم يزل على ملكى إلى أن مات وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها فقلت له يا شيخ وما أقعدك إلى هذه الغاية فقال الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكمى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى إلى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى وأنه قد أشتراه من فلان التاجر بأرجيش اليوم الفلانى من شهر كذا من سنة كذا وأنه لم يزل فى ملكه إلى أن شذ عن يده فى سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط إلى آخره فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل لا ينبغى سماع هذا بلا وجود الخصم وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده فرضى الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثول [١] بين يديه فى بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعادا عظيما وقال كنت نظرت فى الكتاب فقلت نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول إلى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكمى من دمشق وشهد به على يد قاضى دمشق شهود معروفون فقال مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل فى القضية ما يقضيه الشرع . ثم أتفق بعد ذلك جلوسه معى خلوة فقلت له هذا الخصم يتردد ولابد أن نسمع دعواه فقال أقم عنى وكيلا يسمع الدعوى ثم يقيم الشهود شهادتهم وأخر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل هاهنا ففعلت ذلك ثم أحضر الرجل واستدناه [٢] حتى جلس بين يديه وكنت إلى جانبه ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال إن كان لك دعوى فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولا فاجابة

---

(١) المثول بين يديه : أى القيام بين يديه منتصبا للمسائلة .

(٢) استدناه : أى قربه إليه .

السلطان أن سنقر هذا كان مملوكى ولم يزل على ملكى حتى أعتقته وتوفى وخلف ما خلفه لورثته فقال الرجل لى بينه تشهد بما أدعيته ثم سأل فتح كتابه ففتحته فوجدته كما شرحه فلما سمع السلطان التاريخ قال عندى من يشهد أن سنقر هذا فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدى بمصر وأنى أشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل فى يدى وملكى إلى أن أعتقته ثم أستحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكرو القصة كما ذكرها والتاريخ كما أدعاه فأبلس[1] الرجل فقلت له يا مولاى هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلبا لمراحم السلطان وقد حضر بين يدى المولى ولا يحسن أن يرجع خائبا للقصد فقال هذا باب آخر وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذعنى مقدارها . فانظر إلى مافى طى هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد إلى الحق وأرغام النفس والكرم فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله تعالى رحمه واسعة .

ذكر طرف من كرمه رحمه الله

قال ﷺ(**إذا عثر الكريم فإن الله آخذ بيده**) وفى الكرم أحاديث[2] * وكرمه قدس الله روحه كان أظهر من أن يسطر * وأشهر من أن يذكر لكن نبهت عليه جملة * وذلك أنه ملك ما ملك ومات ولم يوجد فى خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصرية ولا من الذهب إلا جرام واحد صورى ما علمت وزنه وكان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح آمد وطلبها منه ابن قره أرسلان فاعطاه إياه .

(١) أبلس : أى يأس وانقطعت حجته قال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ سورة الروم آية ١٢١.

(٢) فقد كان رسول الله ﷺ اكرم من الريح المرسلة والناس رجلان بر تقى كريم على الله وفاجر لا يأبه الله به . انظر سنن الترمذى تفسير سورة الحجرات .

ورأيته قد أجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ولم يكن فى الخزانة ما يعطى الوفود فلم أزل أخاطبه فى معناهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد .

وكان رحمه الله يعطى فى وقت الضيق كما يعطى فى حال السعة . وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم معهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه وسمعته يقول فى معرض حديث جرى يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب(١) فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى .

وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب فما سمعته قط يقول أعطينا لفلان . وكان يعطى الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً . وكان رحمه الله يعطى ويكرم أكثر مما يعطى وكان قد عرفه الناس فكانوا يستزيدونه فى كل وقت وما سمعته قط يقول قد زدت مرارا فكم أزيد .

وأكثر الرسائل كانت تكون فى ذلك على لسانى ويدى وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما أطلبه لهم لعلمى بعدم مؤاخذته فى ذلك وما خدمه أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره .

(**وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها**) فلا تطمع فيها حقيقة أصلا وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لى قد تجاربنا عطاياه فحصرناعدد ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس . ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر اللهم أنك ألهمته الكرم وأنت أكرم منا فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

---

(١) وهذا من كمال إيمانه وتمام يقينه فقد ورد فى بعض الآثار عن عيسى عليه السلام أنه قال لا يكمل يقين عبد حتى يرى التبر والتراب شيئا واحداً .

ذكر شجاعته قدس الله روحه

(روى) عن النبى ﷺ أنه قال (**أن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية**) . ولقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان قوى النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر ولقد رأيته يعطى دستوراً فى أوائل الشتا ويبقى فى شر ذمه [1] يسيرة فى مقابلة عددهم الكثير وقد سألت باليان بن بارزان وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه رحمه الله يوم أنعقاد الصلح عن عدتهم فقال الترجمال عنه أنه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور فلما أشرفنا عليه تجازرناه فخرزهم هو خمس مائة ألف وحزرتهم أنا بستمائة ألف أو قال عكس ذلك قلت فكم هلك منهم فقال أما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فلا نعلم وما رجع من هذا العالم إلا الأقل .

وكان لابد له من أن يطوف حول العدو فى كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريبا منهم . ولقد وصل فى ليلة واحدة منهم نيف [2] وسبعون مركبا على عكا وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس .

وكان رحمه الله تعالى إذا أشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبى واحد على يده جنيب ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف فى مواضع يراها . وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله . ولقد قرىء عليه جزآن من الحديث بين الصفين وذلك أنى قلت له قد سمع الحديث فى جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين فإن رأى المولى أن يؤثر عليه ذلك كان حسنا فأذن فى ذلك

---

(١) الشرذمة من الناس الجماعة القليلة قال تعالى ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ سورة الشعراء آية ٥٤ .

(٢) النيف الزائد على العقد من واحد إلى ثلاثة وما كان من أربعة إلى تسعة فهو بضع يقال عشرة ونيف وألف ونيف ولا يقال خمسة عشر ونيف ولا نيف وعشرة ولا يستعمل إلا بعد العقد .

فأحضر جزءه كما أحضر من له به سماع فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين نمشى تارة ونقف أخرى .

وما رأيته استكثر العدو أصلا ولا أستعظم أمرهم قط وكان مع ذلك فى حال الفكر والتدبير تذكر بين يديه الأقسام كلها ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه . ولقد انهزم المسلمون فى يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكؤس والعلم وهو رضى الله عنه ثابت القدم فى يسير حتى أنحاز إلى الجبل بجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو فى ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس[1] ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم وهم فى العدة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسئول من جانبهم فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها وكانت المصلحة فى الصلح وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الإلهية والأقدار مافى مكنونها . وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط وتتراءى الناران ونسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون منا صوت الأذان إلى أن أنقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره قدس الله روحه ونور ضريحه .

ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله تعالى﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾ [2] ونصوص الجهاد كثيرة [3]. ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة

---

(١) الراجل أى الذى يقاتل وهو سائر على قدميه والفارس الذى يقاتل على فرس .

(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

(٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « الشهداء خمسة المطعون والمبطون وصاحب الطريق وصاحب الهدم والشهيد فى سبيل الله » متفق عليه .

عليه عظيم الأهتمام به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينار ولادرهما إلا في الجهاد أو في الأرفاد لصدق وبر في يمينه ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد أستولى على قلبه وسائر جوانحه أستيلاء عظيما بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته ولا كان له أهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة . ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على مرج عكا فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة وأهتماما . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روى في فضله وشرحت غريبها وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز نصره ولأحكين عنه ما سمعته وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذى القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة وأعطى العسكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر وكان مقدمها أخاه الملك العادل عز نصره فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس الشريف حرسه الله تعالى وسرنا في خدمته . ولما صلى العيد في القدس وقع له أن يمضى إلى عسقلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب أحوالها فاشاروا عليه على أن يفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة فلم يلتفت رحمه الله وودع أخاه والعسكر بعسقلان ثم سرنا في خدمته إلى الساحل طالبى عكا [1] . وكان الزمان شتاء والبحر هائجا شديدا وموجه كالجبل كما قال تعالى [2] وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر

(١) طالبى عكا : أى سائرين إليها قاصدين إياها .

(٢) قال تعالى ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ الشعراء ٦٣ (فانفلق) انشق اثنى عشر فرقا (فرق) قطعة من البحر مرتفعه (كالطود العظيم) كالجبل المنطاد فى السماء .

البحر عندى حتى خيل لى أنى لو قال لى أن جزت فى البحر ميلا واحد ملكتك الدنيا لما كنت أفعل واستخسفت رأى من ركب البحر رجاء دينار أودرهم واستحسنت رأى من لا يقبل شهادة راكب بحر هذا كله خطر لى لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر فبينا أنا فى ذلك إذ التفت إلى رحمه الله . وقال أما احكى لك شيئا فى نفسى أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان خطر لى وقلت له ليس فى الأرض اشجع نفسا من المولى ولا أقوى منه نية فى نصرة دين الله تعالى فقال فكيف فقلت أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهو له . وأما نصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص فى الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم وأستأذنت أن أحكى له ما كان خطر لى فحكيت له ثم قلت ما هذه إلانية جميلة ولكن المولى يسير فى البحر العساكر وهو سور الاسلام ومنعته فلا ينبغى له أن يخاطر بنفسه فقال أنا أستفتيك ما أشرف الميتتين فقلت الموت فى سبيل الله فقال غاية مافى الباب أن أموت أشرف الميتتين فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها رحمه الله اللهم أنك تعلم أنه بذل جهده فى نصرة دينك وجاهد رجاء رحمتك فارحمه .

صبره واحتسابه رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى ﴿ **ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ [1] . ولقد رأيته رحمه الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس وإنما يكون منكبا على جانبه إن كان بالخيمة وأمتنع من

(١) سورة النحل آية ١١٠ .

مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس وكان يأمر أن يفرق على الناس وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريبا من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال وكان ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب يطوف على الأطلاب صابرا على شدة الألم وقوة ضربان الدمامل وأنا أتعجب من ذلك فيقول إذا ركبت يزول عنى ألمها حتى أنزل وهذه عناية ربانية *

ولقد مرض رحمه الله ونحن على الخزنوبة وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه فبلغ الافرنج فخرجوا طمعا فى أن ينالوا شيئاً من المسلمين وهى نوبة النهر فخرجوا فى مرحلة الآبار التى تحت التل فأمر رحمه الله بالثقل حتى يتجهز بالرحيل والتأخر عن جهة الناصرة . وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرضاً أيضاً فأذن له أن يتأخر مع الثقل وأقام هو ثم رحل العدو فى اليوم الثانى يطلبنا فركب على مضض [1] ورتب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب وجعل طرف الميمنة الملك العادل وطرف الميسرة تقى الدين وجعل ولده الملك الظاهر والملك الافضل عز نصرهما فى القلب ونزل هو وراء القوم يطلبهم وأول ما نزل من التل احضر بين يديه أفرنجى قد أسر من القوم فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الاسلام عليه وإبائه عنه وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديرا إلى ورائهم حتى يقطع بينهم وبين خيامهم وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفا ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم إلى أن دخل الليل ثم امر العساكر المنصورة أن عادت إلى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح وتأخر هو ونحن فى خدمته الى قمة الجبل فضربت له

---

(١) مضض : أى ألم ويقال قبله على مضض .

خيمة لطيفة وبتنا تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضة ونشاغله وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح[1] الصياح ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر واحدقت بالعدو ورحل العدو عائدا إلى خيامهم من الجانب الغربى من النهر وضايقهم المسلمون فى ذلك اليوم مضايقة شنيعة وفى ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتسابا وجميع من حضر منهم ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الاعلام والبيارق لاغير فيظن الرائى لها عن بعد ان تحتها عظيما ولم يزل العدو سائرا والقتل يعمل فيهم وكلما قتل منهم شخص دفنوه وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الأمر ونزلوا عند الجسر وكان الافرنج متى نزلوا إلى الأرض آيس المسلمون من بلوغ غرض منهم لأنهم يجتمعون فى حالة النزول جماعة عظيمة وبقى رحمه الله فى موضعه العساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم وعدنا إلى منزلنا فى الليلة الماضية وعاد العسكر فى الصباح إلى ما كان عليه بالامس من مضايقة العدو ورحل العدو وسار على ما مضى من القتل حتى دنا إلى خيامه وخرج إليه منها من أنجده حتى وصلوا إلى خيامهم .

فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب وإلى أى غاية بلغ هذا الرجل . اللهم انك الهمته الصبر والاحتساب ووفقته له فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين . ولقد رأيته رحمه الله تعالى وقد جاء خبر وفاة ولد له بالغ[2] يسمى اسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف أحدا ولم نعرفه حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه .

---

(١) لاح أى ظهر ووضح .

(٢) أى بلغ سن الرشد وأصبح فى مرحلة الشباب .

ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقد قال لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق[1] ورتب لكل منجيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل فى خدمته قدس الله روحه فى ألذ مفاكهة وأرغد عيش والرسل تتواصل تخبره بأن قد نصب من المنجيق الفلانى كذا ومن المنجيق الفلانى حتى أتى الصباح وقد فرغ منها ولم يبق الا تركيب خنازيرها عليها وكانت من أطول الليالى وأشدها بردا ومطرا .

ورأيته وقد وصل اليه خبر وفاة تقى الدين ابن أخيه ونحن فى مقابلة الافرنج جريدة على الرملة وبيننا وبينهم شوط فرس لا غير فاحضر الملك العادل وعلم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه توفى تقي الدين فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة ثم عدت إلى نفسي فقلت استغفروا الله تعالى من هذه الحالة وانظروا أين وفيم انتم واعرضوا عما سواه فقال رحمه الله نعم استغفر الله وأخذ يكررها ثم قال لا يعلم أحد واستدعى بشيء من المارود فغسل عينيه ثم أشخص الطعام وحضر الناس ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو إلى يافا وعدنا نحن إلى النطرون وهو مقر ثقلنا وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة باولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا بالله تعالى اللهم إن ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك فارض عنه وارحمه .

---

(١) مناجيق : آله قديمة من آلات الحرب وحصار المدن كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها مفردها منجنيق .

ذكر نبذ من حلمه وعفوه رحمه الله

قال الله سبحانه وتعالى ﴿ **والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[1].

لقد كان متجاوزا قليل الغضب ولقد كنت فى خدمته بمرج عيون قبل خروج الافرنج الى عكا يسر الله فتحها.وكان من عادته أن يركب فى وقت الركوب ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلى ويجلس خلوة وانا فى خدمته نقرأ شيئا من الحديث أو شيئا من الفقه ولقد قرأ على كتابا مختصرا تصنيف الرازى يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه ونزل يوما على عادته ومد الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقيل له إن وقت الصلاة قد قرب فعاد إلى الجلوس وقال نصلى وننام ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلا المكان إلا ممن لزم فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال له أنا الآن ضجران أخرها ساعة فلم يفعل وقدم القصة الى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرأها فوقف على الأسم المكتوب فى رأسها فعرفه فقال رجل مستحق فقال يوقع المولى له فقال ليست الدواة حاضرة الآن وكان رحمه الله جالسا فى باب الخركاه بحيث لا يستطيع أحد الدخول اليها والدواة فى صدرها والخركاه كبيرة فقال له المخاطب هذة الدواة فى صدر الخركاه وليس لها معنى إلا أمره إياه باحضار الدواة لا غير فالتفت رحمه الله فرأى الدواة فقال والله لقد صدق ثم امتد على يده اليسرى ومد يده اليمنى فاحضرها ووقع له فقلت قال الله تعالى فى حق نبيه ﷺ ﴿ **وانك لعلى خلق عظيم** ﴾[2]وما أرى المولى إلا قد شاركة فى هذا الخلق فقال ضرنا شيئا قضينا حاجته وحصل الثواب ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس وافرادهم لقام وقعد ومن الذى يقدر أن يخاطب أحدا هو

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٤ .

(٢) سورة القلم آية ٤ .

تحت حكمه بمثل ذلك وهذا غاية الاحسان والحلم والله لا يضيع أجر المحسنين ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك ولقد نفرت يوما بلغتى من الجمال وانا راكب فى خدمته فزحمت وركه حتى ألمته وهو يبتسم رحمه الله . ولقد دخلت بين يديه فى يوم ريح مطير إلى القدس الشريف وهو كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أتلفت جميع ما كان عليه وهو يبتسم وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركنى .

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالنشر والقبول وهذه حكاية يندر أن يسطر وذلك أنه كان قد إتجه أخو ملك الافرنج خذلهم الله إلى يافا فان العسكر كان قد رحل عنهم وبعد وتراجع إلى النطرون وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجد وثلاث معتادة وجمع رحمه الله العسكر ومضى إلى قيسارية يلتقى نجدتهم عساه يبلغ منها غرضاً وعلم الافرنج الذين كانوا بيافا ذلك وكان بها الانتكار ومعه جماعة فجهز معظم من كان عنده فى المراكب الى قيسارية خشية على النجدة أن يتم عليها أمر وبقى الانتكار فى نفر يسير لعلمهم ببعده رحمه الله عنهم وبعد العسكر ولما وصل رحمه الله إلى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به وعلم أنه لا ينال منهم غرضه سرى من ليلته فى أول الليل إلى آخره حتى أتى يافا صباحاً والانتكار فى سبعة عشر فارساً وثلثمائة راجل نازلا خارج البلد فى خيمة له فصبحه العسكر صباحاً فركب الملعون وكان شجاعا باسلا صاحب رأى فى الحرب وثبت بين يدى العسكر ولم يدخل البلد فاستدار العسكر الاسلامى بهم إلا من جهة البحر وتعبى العسكر تعبية القتال وأمر السلطان العسكر بالجملة انتهازا للفرصة فأجابه بعض الاكراد بكلام فيه خشونة تعتب لعدم التوفير فى اقطاعه فعطف رحمه الله عنان فرسة كالمغضب لعلمه أنهم لا يعلمون فى ذلك اليوم شيئًا

وتركهم وانصرف راجعاً وأمر بخيمته التى كانت منصوبة ان قلعت وانقضوا متيقنين أن السلطان فى ذلك اليوم ربما صلب جماعة ولقد حكى لى ولده الملك الظاهر أعز الله أنصاره أنه خاف منه فى ذلك اليوم حتى أنه لم يتجاسر[1] أن يقع فى عينيه مع أنه حمل فى ذلك اليوم وأوغل ولم يزل سائرا حتى زل بسازور وما من الامراء إلا من يرعد خفية ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه قال ولم تحدثنى نفسى بالدخول عليه خفيه منه حتى استدعانى قال فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة فقال اطلبوا الامراء حتى يأكلوا شيئا قال فسرى عنى ما كنت أجده وطلبت الامراء فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور وانصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلا فانظر إلى هذا الحلم الذى لا يتأتى فى مثل هذا الزمان ولا يحكى عمن تقدم من أمثاله رحمه الله عليه .

* * *

ذكر محافظته علي أسباب المروءة

قال النبى ﷺ (**بعثت لأتمم مكارم الاخلاق**)[2] وكان ﷺ إذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذى يبدأ بذلك . ولقد كان السلطان كثير المروءة ندى اليد كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف لا يرى أن يفارقة الضيف حتى يطعم عنده ولا يخاطبه بشيء إلا وبنجزه وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً . ولقد وفد عليه البرنس صاحب انطاكية فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح فى شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمس مائة عند منصرفه من

---

(١) يتجاسر : أى يتجرأ .

(٢) رواه الامام مالك فى موطئه فى باب حسن الخلق ٨ والامام أحمد بن حنبل فى مسنده ٢ / ٣٨ بلفظ « إنما بعثت لأتمم حُسن الأخلاق » .

القدس الى دمشق عرض له فى الطريق وطلب منه شيئا فأعطاه العمق وهى بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل وهو سنة أربع وثمانين .

ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصرة فاحترمه واكرمه وأكل معه الطعام ومع ذلك عرض عليه الاسلام فذكر له طرفا من محاسنه وحثه عليه .

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوى الاقدار وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من احسانه . ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمس مائة رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوى الاقدار أبوه صاحب توريز فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل زائرا لبيت الله المقدس ولما قضى لبانته[1] منه ورأى آثار السلطان رحمه الله فيه وقع له زيارته فوصل إلينا إلى المعسكر المنصور فما أحسست به إلا وقد دخل عليّ في الخيمة فلقيته ورحبت به وسألته عن سبب ذلك ووصوله فأخبرنى بذلك وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة فعرفت السلطان بذلك فى ليلة وصول هذا الرجل فاستحضره وروى عنه حديثا ثم انصرفنا وبات عندى فى الخيمة فلما صليت الصبح أخذ يودعنى فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يلو على ذلك وقال قد قضيت حاجتى منه ولا عرض لى فيما عدا رؤيته وزيارته وانصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله فظهر عليه آثار الغضب كيف لم اخبره برواحه وقال كيف يصرفنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا وشدد النكير علي فى ذلك فما وجدت بدا من أن اكتب كتابا الى محيى الدين قاضى دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وايصال رقعة كتبتها اليه طي كتابى أخبره فيها بانكار السلطان رواحه

(١) لبانته : أى ما يطلبه عن رغبة وشهوة .

من غير اجتماعه به وحسنت له فيها العود وكان بينى وبينه صداقة تقتضى مثل ذلك فما أحسست به إلا وقد عاد إلي فرحب به السلطان وانبسط معه وأمسكه أياما ثم خلع عليه خلعة حسنة وأعطاه مركبا لائقا وثيابا كثيرة يحملها إلى بنيه وجيرانه وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاء لأيامه .

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجى قد أصابه كرب بحيث أنه ظهرت عليه إمارات الخوف والجزع فقال للترجمان من أى شيء يخاف فزجرى الله على لسانه أن قال كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتى له وحضورى بين يديه أيقنت أنى ما أرى إلا الخير فرق له ومَنَّ عليه وأطلقه ولقد كنت راكبا فى خدمته فى بعض الايام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها فقال اليزكى أن هذه خرجت من عقد الإفرنج فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها فقالت اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتى وسرقوا ابنتى وبت البارحة استغيث إلى بكرة النهار فقال لى المملوك السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه فأخرجونى اليك وما أعرف ابنتى الا منك فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه فما كان إلا أن وقع نظرها عليها فخرت إلى الارض تعفر وجهها فى التراب والناس يبكون على مانالها وهى ترفع طرفها[1] الى السماء ولا تعلم ما تقول فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت الى عسكرهم .

وكان لا يرى الاساءة إلى من صحبه وأن أفرط فى الخيانة ولقد أبدل فى

(١) طرفها : أى بصرها .

خزائنه كيسان من الذهب المصرى بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئاً سوى أن صرفهم من عملهم لا غير .

ولقد دخل البرنس أرناط صاحب الكرك مع ملك الافرنج بالساحل فلما أسرهما فى واقعة حطين فى شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة والواقعة مشهورة تجىء مشروحة فى موضعها إن شاء الله تعالى وكان قد أمر باحضارهما وكان ارناط هذا اللعين كافراً عظيما جباراً شديداً وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة فغدرها وأخذها ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة وذكروا له حديث الهدنة فقال قولوا لمحمدكم يخلصكم منه فى ذلك اليوم قوى عزمه على قتله وفاء بنذره فأحضره مع الملك فشكا الملك العطش فاحضر له قدحا من شراب فشرب منه ثم ناوله أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذى سقيته وأما أنا فما أسقيه من شرابى ولا أطعمه من طعامى فقصد رحمه الله أن من أكل من طعامى فالمروءة تقضى أن لا أوذيه ثم ضرب عنقه بيده وفاء بنذره وأخذ عكا وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده وأهله . هكذا بلغنى على ألسنة جماعة لأنى لم أحضر هذه الواقعة .

وكان حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظا لانساب العرب ووقائعهم عارفا بسيرهم وأحولهم حافظا لانساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضره منه مالا يسمع من غيره .

وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداولته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله .

وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد إلا بخير السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير وطاهر اللسان فما رأيته ولع بشتم قط . وكان

حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم الا وترجم على مخلفيه وجبر قلبه وأعطاه وجبر مصابه وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه وألا أبقى له من الخير ما يكف حاجته وسلمه إلى من يعتنى بتربيته ويكلفها.

وكان لا يرى شيخا إلا ويروق له ويعطيه ويحسن إليه ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه إلى مقر رحمته ومكان رضوانه .

فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه اقتصرت عليها خوف الاطالة والسآمة وما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرنى الثقة به وحققته وهذا بعض ما اطلعت عليه فى زمان خدمتى له وهو يسير فيما اطلع عليه غيرى ممن طالت صحبته وتقدمت خدمته ولكن هذا القدر يكفى الأديب فى الاستدلال على طهارة تلك الاخلاق والخلال[١] . وحيث نجز هذا القسم فنشرع الآن فى القسم الثانى من الكتاب فى بيان تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته فى تواريخها قدس الله روحه . ونور بنور رحمته ضريحه .

* * *

القسم الثاني في بيان تقلبات أحواله وفتوحاته في تواريخها

ذكر حركته إلى مصر فى الدفعة الأولى صحبة عمه أسد الدين[٢] . سبب ذلك أن شاور وزير المصريين كان قد خرج عليه انسان يقال له الضرغام وكان يروم منصبه ومكانه فجمع له جموعا كثيرة لم يكن له بها قبل وغلب عليه وأخرجه من القاهرة وقتل ولده واستولى على المكان وولى الوزارة . وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز عن دفعه

---

(١) الخلال : أى الصفات والشيم مفردها خله .

(٢) هو عمه أسد الدين شيركوه .

وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه فإن قوتهم أنما كانت بعسكر وزيرهم وهو ملقب عندهم بالسلطان وما كانوا يرون المكاشفة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على مثل هذا المثال فلما قهر شاور وأخرج من القاهرة اشتد فى طلب الشام قاصد خدمة نور الدين ابن زنكى مستصرخا به مستنصرا على أعدائه بمعسكره فتقدم نور الدين إلى أسد الدين شيركوه وسار إلى مصر فاستصحبه معه رحمه الله عن كراهية منه لمكان افتقاره إليه وجعله مقدم عسكره وصاحب رأيه وساروا حتى وصلوا إلى مصر وشاور معهم فى الثانى من جمادى الآخر سنه ثمان المذكورة . وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم وخافه أهل مصر ونصر شاور على خصمه وأعاده إلى منصبه ومرتبته وقرر قواعده واستقرأ مره وشاهد البلاد وعرف أنها بلاد بغير رجال . تمشى الأمور فيها بمجرد الايهام والمحال . وكان ابتداء رحلته عنها متوجها إلى الشام فى السابع من ذى الحجة سنة ثمان المذكورة . وكان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا إلا بمشورته ورأيه لما لاح له آثار الاقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته فاقام بالشام مدبرا لأمره مفكرا فى كيفية رجوعة إلى البلاد المصرية محدثا بذلك نفسه مقررا قواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين زنكى إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

* * *

ذكر عودته إلي مصر في الوقعة الثانية وهي معروفة بوقعة البالين

ولم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور فداخله الخوف على البلاد من الاتراك وعلم أن أسد الدين قد طمع فى البلاد وأنه لا بد له من قصدها فكاتب الافرنج وقرر معهم أنهم يجيئون البلاد ويمكنهم تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قلبه فيها وبلغ ذلك

أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر إن ملكها الكفار[1] واستولوا على البلاد كلها فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر وألزم السلطان رحمه الله المسير معه علىَ كراهية منه لذلك . وكان توجههم فى اثنى عشر ربيع الأول سنة اثنين وستين وخمسمائة وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارنا لوصول الافرنج إليها واتفق شاور مع الافرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم وجرت بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة وانفصل الافرنج عن الديار المصرية وانفصل أسد الدين وكان سبب عود الافرنج ان نور الدين جرد العساكر الى بلاد الافرنج وأخذ للنيظرة وعلم الافرنج بذلك فخافوا على بلادهم وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الافرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد وعاينوه من الأهوال وما عاد حتى صالح الافرنج على أن ينصرفوا كلهم من مصر وعاد إلى الشام فى بقية السنة وقد انضم إلى قوة الطمع فى وعرفوها من الوجه الذى عرفها فأقام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يجره إلى شىء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك .

ذكر عودة إلي مصر في الدفعة الثالثة وهي التي ملكوها فيها وجري ما جري في شهور سنة أربع وستين وخمسمائة

ملك نور الدين قلعة النيظرة بعد سير أسد الدين فى رجب وخرب قلعة أكاف بالبرية . وفى رمضان منها اجتمع نور الدين وأخواه قطب الدين وزين الدين للغزاة وساروا إلى بلاد الفرنج فخربوا هونين فى شوال منها وفى ذى

---

(١) سمى الافرنج كفاراً مع أنهم نصارى قال تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾ سورة المائدة آية ٧٣ .

القعدة كان عود أسد الدين من مصر . وكان سبب ذلك أن الافرنج خذلهم الله جمعوا راجلهم وفارسهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين[١] لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعا في البلاد فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد . أما نور الدين فبالمال والرجال ولم يسر بنفسه خوفا على البلاد من الافرنج ولأنه قد حدث نظره إلى جانب الموصل بسبب وفاة زين الدين ابن يكتكين فانه توفي في ذى الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة وسلم ما كان في يده من الحصون إلى قطب الدين ما عدا أربل فانها كلها كانت له من أتابك زنكى رحمه الله فحدث لنور الدين إلى ذلك الجانب الطمع بهذا السبب فسير العسكر . وأما أسد الدين فبسيفه وملكه وأهله ورجاله ولقد قال لي السلطان قدس الله روحه كنت أكره الناس للخروج في هذه الواقعة وما خرجت مع عمي باختياري وهذا معنى قوله تعالى ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم** ﴾[٢] وكان شاور لما أحس بخروج الأفرنج إلى مصر على تلك القاعدة أنفذ إلي أسد الدين يستصرخه ويستنجد فخرج مسرعا . وكان وصولهم الى مصر في أثناء ربيع الأول سنه أربع وستين وخمسمائة . ولما علم الافرنج وصول أسد الدين إلى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين وعلى أعقابهم ناكصين[٣] . وأقام أسد الدين بها يتردد اليه شاور في الاحيان . وكان وعدهم بمال مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئا وعلقت مخاليب أسد الدين في البلاد وعلم أن الافرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد وترددهم إليها في كل وقت لا يفيد وأن شاور يلعب بهم تارة وبالافرنج تارة أخرى وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع

(١) ناكثين : نابذين وناقضين العهود والاتفاقات .

(٢) سورة البقرة ٢١٦ .

(٣) ناكصين : أى رجعوا عما كانوا قد اعتزموه واحجموا عنه .

بقاء شاور فأجمعوا أمرهم على قبضه إن خرج إليهم وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين وهو يخرج فى بعض الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة إلا السلطان بنفسه . وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكبا وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه ففروا ونهبهم العسكر وقبض على شاور وأنزل إلى خيمة مفردة وفى الحال جاءه التوقيع من المصريين على يد خادم خاص لابد من رأسه جريا على عادتهم فى وزرائهم فى تقرير قاعدة فيمن قوى منهم على صاحبه فحزت رقبته وأنفذ رأسه إليهم وأنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها وسار ودخل القصر ورتب وزيراً وذلك فى سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة ودام آمرا ناهيا والسلطان رحمه الله مباشر الأمور مقرر لها وزمام الأمر والنهى مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه وسياسته إلى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

ذكر وفاة أسد الدين ومصير الأمر إلى السلطان

وذلك أن أسد الدين كان كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة وتتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة وفوض الأمر بعده إلى السلطان واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام وبذل المال . وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله عليه فتاب من الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وما عاد عنه ولا ازداد إلا جداً إلى أن توفاه الله إلى رحمته . ولقد سمعت منه يقول لما يسر لى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك فى نفسى . ومن حين استتب له الأمر مازال يشن الغارات على الافرنج إلى الكرك والشوبك وبلادها وغش الناس

من سحائب الافضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الايام هذا كله وهو وزير متابع القوم ولكنه مقو لمذهب السنة غارس فى أهل البلاد العلم والفقة والتصوف والدين والناس يهرعون[1] اليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصداً . ولا يعدم وافداً . ولما عرف نور الدين استقرار السلطان بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين وذلك فى رجب من سنة أربع وستين .

ذكر قصد الافرنج دمياط حرسها الله تعالى

ولما علم الافرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما تم للسلطان من استقامة الامر فى الديار المصرية خافوا أن يملك بلادهم ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الافرنج والروم جميعاً وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم فاستصبحوا المنجنيقات والدبابات والجروخ وآلات الحصار وغير ذلك ولما سمع إفرنج الشام بذلك اشتد أمرهم فسرقوا حصن عكا من المسلمين وأسروا صاحبها وكان مملوكا لنور الدين يسمى خلطخ العلم دار وذلك فى ربيع الآخر منها . ولما رأى نور الدين ظهور أمر الافرنج وبلغه نزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصراً لها فى شعبان من هذه السنة فقصده الفرنج الساحل فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقف لهم على أثر ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية بحلب وكانت وفاته فى شهر رمضان سنة خمس وستين فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره فعاد يطلب الشام فبلغه خبر الزلزلة بحلب التى أخرجت كثيراً من البلاد المذكورة فسار يطلب حلب فبلغه موت قطب الدين أخيه بالموصل وكانت وفاته فى الثانى والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة وبلغه الخبر وهو بتل باشر فسار من ليلته

(١) يهرعون إليه : أى يسرعون إليه .

طالبا بلاد الموصل ولما علم السلطان شدة قصد العدو دمياط انفذ الى البلد وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمن معه عليه ووعد الميقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات وابعاد العدو عنهم إن نزل عليهم ثم نزل الافرنج فى التاريخ المذكور واشتد زحفهم عليها وقتالهم وهو يشن الغارات عليهم من خارج والعساكر تقاتلهم من داخل ونصر الله المسلمين وأيدهم وحسن قصدهم فى نصر دين الله وأسعدهم وأنجدهم حتى بان للافرنج الخسران . وظهر على الكفر الايمان[1] . ورأوا أنهم ينجون برؤسهم ويسلمون بنفوسهم . فرحلوا خائبين خاسرين فحرقت مناجيقهم ونهبت وقتل منهم خلق كثير وسلم البلد بحمد الله ومنه عن قصد وظهر بتوفيق الله فل حدهم . واستقرت قواعد السلطان .

ذكر طلبه والده

ثم أنفذ فى طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور وتجرى القصة مشاكلة لما جرى للنبى يوسف صلاة الى الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين . فوصل والده نجم الدين إليه فى اثناء جمادى الآخرى من سنة خمس وستين وسلك معه من الادب ما كان عادته وألبسه الأمر كله فأبى أن يلبسه وقال يا ولدى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤله . ولا ينبغى أن يغير موقع السعادة فحكمه فى الخزائن بأسرها ولم يزل السلطان وزيرا محكما حتى مات العاضد أبو محمد عبد الله وبه ختم أمر المصريين .

وأما نور الدين فإنه أخذ الرقة فى المحرم سنة ست وستين وسار منها الى نصيبين فأخذها فى بقية الشهر وأخذ سنجار فى ربيع الآخر منها ثم قصد الموصل وقصد أن لا يقاتلها فعبر بعسكره من مخاضة بلد وسار حتى خيم قبالة الموصل على تل يقال له الحصن وراسل ابن أخيه عز الدين غازى

(١) قال تعالى ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ سورة الصف آية ٨ .

صاحب الموصل وعرفه صحة قصده فصالحه ودخل الموصل فى ثالث جمادى الأولى وقرر صاحبها فيها وزوجه ابنته وأعطى عماد الدين ابن أخيه سنجار وخرج من الموصل قاصداً نحو الشام فدخل حلب فى شعبان من هذه السنة .

ذكر موت العاضد

وكان موته فى يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة سبع وستين واستقر الملك للسلطان وكان خطب لبنى العباس فى أواخر أمر العاضد وهو حى وكانت الخطبة ابتداؤها للمستضىء بأمر الله واستمرت القواعد على الاستقامة وهو كلما استولى على خزانة من المال وهبها وكلما فتح له خزائن ملك أنهبها ولا يبقى لنفسه شيئا وشرع السلطان فى التأهيب للغزاة وقصد بلاد العدو وتعبية الأمر لذلك وتقرير قواعده . وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة واستدعى صاحب الموصل ابن أخيه فوصل بالعساكر إلى خدمته وكانت غزاته عرفا وأخذها فى المحرم سنة سبع وستين .

*   *   *

ذكر أول غزوة غزاها من الديار المصرية

ولم يزل على قدم بسط الاحسان على الناس سنه ثمان وستين فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكرك والشوبك وانما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة[1] فخرج قاصدا لها فحاصرها وجرى بينه وبين الافرنج وقعات وعاد عنها ولم يظفر منها بشىء فى تلك الواقعة وحصل ثواب القصد . وأما نور الدين فانه فتح مرعش

---

(١) السابلة : أى الطريق المسلوك (ج) سوابل .

فى ذى القعدة من هذه السنة وأخذ بها فى ذى الحجة .

ذكر وفاة والده نجم الدين

ولما عاد السلطان من غزاته قبل وصوله إلى مصر علم بوفاة أبيه نجم الدين فشق عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته .. كان سبب وفاته وقوعه عن الفرس وكان رحمه الله شديد الركض[1] ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس وكانت وفاته فى شهور سنة تسع وستين ورأى السلطان قوة عسكره وكثرة عدد إخوته وقوه بأسهم وكان بلغه أن باليمن إنسانا استولى عليها وملك حصونها وهو يخطب لنفسه يسمى بعبد النبى بن مهدى ويزعم أن ينتشر ملكه فى الأرض كلها ويستتب الأمر له فرأى أن يسير إليها أخاه الاكبر شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه وكان كريما أريحيا حسن الأخلاق سمعت منه رحمه الله الثناء على كرمه وحسن أخلاقه وترجيحه على نفسه . وكان توجهه إليها فى أثناء رجب سنة تسع وستين فمضى إليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجى الذى كان بها واستولى على معظمها وأعطى وأعفى خلقاً كثيراً .

ذكر وفاة نور الدين محمود ابن زنكي رحمه الله

وكانت وفاته بسبب حوانيق اعترته أيضاً عجز الاطباء عن علاجها وتوفى يوم الاربعاء فى الحادى والعشرين من شوال سنة تسع وستين وذلك فى قلعة دمشق وأقام مقامه ولده الملك الصالح اسماعيل . ولقد حكى لى السلطان قال كان بلغنا عن نور الدين أنه قصد بالدار المصرية وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف ترده اذا تحقق قصده وكنت وحدى أخالفهم وأقول لا يجوز أن يقال شيء من ذلك

---

(١) الركض : العدو السريع وراكضه أى سابقة فى الركض وأعدى كل منهما فرسه ليرى أيهما أسرع ويقال خرجوا يتراكضون الخيل أى يتسارعون بها .

ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته .

ذكر منافقة الكند بأسوان وذلك في شهور سنة تسع وستين

والكند انسان مقدم من المصرين كان قد نزح إلى أسوان فأقام بها ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية وكان فى قلوب القوم من مهاواة المصريين ما تستصغر هذه الافعال عنده فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر وقصدوا قوس[1] وأعمالها وانتهى خبره إلى السلطان فجرد له عسكرا عظيما شاكى السلاح من الذين ذاقوا حلاوة المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف فكسرهم وقتل منهم خلقا عظيما واستأصل شأفتهم وأخمد تأثرهم وذلك فى السابع من صفر سنة واستقرت قواعد الملك وأستوت أموره ولله الحمد والمنة .

* * *

ذكر قصد الافرنج ثغر الاسكندرية حرسها الله تعالي

وذلك أن الافرنج لما علموا تغيرات الأحوال بالديار المصرية وتقلبات الدول بها داخلهم الطمع فى البلاد وجردوا عساكرهم فى البحر وكانوا فى ستمائة قطعة ما بين شانى وطرادة وبطشة وغير ذلك . وكانوا فى ثلاثين ألفا على ما ذكر ونازلوا الثغر وذلك فى أثناء صفر السابع منه من هذه السنة وهى سنة سبعين فأمده السلطان بالعساكر المنصورة وتحرك وأدخل الله فى قلوبهم من الخوف والرعب مالم يمكنهم الصبر معه وعادوا خائبين خاسرين بعد ان ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام وقاتلوا قتالا شديداً وعصمه الله منهم . ولما أحسوا بحركة السلطان نحوهم ما لبثوا أن خلفوا مناجيقهم

---

(١) إحدى مدن الصعيد .

وراءهم وآلتهم فخرج أهل البلد الى نهبها وإحراقها وكان أمراً عظيما ومن أعظم النعم على المسلمين وأمارة كل سعادة .

ذكر خروج السلطان إلي الشام وأخذه دمشق

وأما نور الدين فإنه خلف ولده الملك الصالح إسماعيل وكان بدمشق وكان بقلعة حلب ابن الداية شمس الدين على وشاذبخت . وكان قد حدث نفسه بأمور فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب فوصل ظاهرها ثانى المحرم ومعه سابق الدين فخرج بدر الدين للقائه فقبض على سابق الدين . ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين وأخيه حسن وأودع الثلاثة السجن . وفى ذلك اليوم قتل ابن الخشاب أبو الفضل لفتنة جرت بحلب ذكروا أنه قتل قبل إمساك أولاد الداية بيوم لأنهم تولوا ذلك . ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين وكان ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد تجهز للخروج إلى الشام اذ هو أصل بلاد الاسلام فتجهز بجمع كثير من العساكر وخلف فى الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ونظم أمورها وسياستها وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدابيرها وخاف بعضهم من بعض وقبض على جماعة منهم وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك وسببا لتغيير قلوب الناس عن الصبى فافتقر الحال أن كاتب شمس الدين بن المقدم السلطان ووصل البلاد مطالبا بالملك الصالح ليكون هو الذى يتولى أمره ويرب حاله فيقوم له ما أعوج من أمره فوصل دمشق ولم يشق عليه عصا ودخلها بالتسليم فى يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وتسلم قلعتها . وكان أول دخوله إلى دار أبيه واجتمع الناس إليه وفى جوابه وأنفق فى ذلك اليوم فى الناس مالا طويلا وأظهر الفرح والسرور بالدمشقين وأظهروا الفرح به وصعد القلعة واستقر قدمه فى ملكها فلم يلبث أن طلب حلب فنازل

حمص فأخذ مدينتها في جمادى الأولى سنة سبعين ولم يشتغل بقلعتها حتى أتى حلب ونازلها في يوم الجمعة سلخ الشهر المذكور وهي الوقعة الأولى .

ذكر تسيير سيف الدين أخاه عز الدين إلي لقائه

ولما أحس سيف الدين صاحب الموصل بما جرى علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وعلت كلمته وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه في الملك وتعدى الأمر إليه فجهز عسكر أوافر وجيشا عظيما وقدم عليه أخاه عز الدين مسعودا وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه ورده عن البلاد . ولما بلغ السلطان ذلك رحل عن حلب مستهل رجب من السنة المذكورة عائدا إلى حماه وسار إلى حمص فاشتغل بأخذ قلعتها فأخذها ثم وصل عز الدين إلى حلب وانضم إليه من كان بها من العسكر وخرجوا بجمع عظيم . ولما عرف هو بسيرهم سار حتى وافاهم في قرون حماه وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه ورأوا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر . والمقصود الاوفر . والقضاء يجر الى امورهم بها لايشعرون . وقام المصاف بين العسكر بقضاء الله فانكسروا بين يديه وأسر جماعة منهم ومن عليهم وأطلقهم وذلك في تاسع عشر رمضان سنة سبعين أيضا . ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طلبي وأخذ بارين وذلك في أواخر هذه السنة .

* * *

ذكر مسير سيف الدين بنفسه

ولما وقعت هذه الواقعة كان سيف الدين على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه ودخوله في طاعته وكان قد أظهر أخوه الانتماء الى السلطان واعتصم بذلك واشتد سيف الدين في حصار المكان وضربه بالمنجيق

حتى انهدم من سورة ثلم كثيره وأشرف على الأخذ فبلغه وقوع هذه الواقعه فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره فراسله إلى الصلح فصالحه ثم سار من وقته الى نصيبين واهتم بجمع العساكر والانفاق فيها وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة وخيم على جانب الفرات الشامى وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها إليهم ووصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كثيرة وعزم فيها إلى العود مرارا حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به وسار ووصل حلب وخرج الملك الصالح إلى لقائه بنفسه قريب القلعة واعتنقه وضمه اليه وبكى ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد اليها وسار هو حتى نزل بعين المباركة وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج إلى خدمته فى كل يوم وصعد القلعة جريدة وأكل فيها خبزا ونزل وسار راحلا إلى تل السلطان ومعه الديار البكرية وجمع كثير والسلطان قد أنفد فى طلب العساكر من مصر وهو يترقب وصولها وهؤلاء يتأخرون فى أمورهم وتدبيرهم وهم لا يشعرون أن فى التأخير تدبيرا حتى وصل عسكر مصر فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماء فبلغهم أنه قارب عسكره فأخرجوا اليزك وجهزوا من يكشف الأخبار فوجدوه قد وصل جريدة إلى جانب التركمان وتفرق عسكره يسقى فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه فى تلك الساعة ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا فصبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره واجتمعوا وتعبوا تعبية القتال وأصبح القوم على مصاف وذلك فى بكرة الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين فالتقى العسكران وتصادما وجرى قتال عظيم وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين فانكسر القوم وأسر منهم جمعا من كبار الامراء منهم فخر الدين عبد المسيح فمن عليهم واطلقهم وعاد سيف الدين إلى حلب المحروسة فاخذ منها خزانة وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده وامسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر وزال فى بقية ذلك اليوم فى خيام القوم فانهم كانوا قد أبقوا الثقل على ما كان عليه والمطابخ قد عملت ففرق

الاصطبلات [١]ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين عز الدين فخر وشاه وسار الى منج وتسلمها فى بقية الشهر المذكور . وسار حتى نزل قلعة اعزاز يحاصرها وذلك فى رابع ذى القعدة سنة إحدى وسبعين وعليها وثب الاسماعيلية عليه فنجاه الله من كيدهم وظفر بهم ولم يفل [٢] ذلك عزمه وأقام عليها حتى أخذها وذلك فى رابع عشر ذى القعدة من السنة وسار حتى نزل على حلب فى سادس عشر منه فأقام مدة ثم سار عنها فاخرج إليه ابنة لنور الدين صغيرة وسألت منه إعزاز فوهبها إياها . وفى بقية الشهر أيضا وصل شمس الدولة أخوه من اليمن إلى دمشق وأقام بها مدة ثم عاد إلى الديار المصرية وتوفى باسكندرية مستهل صفر سنة ست وسبعون . ثم إن السلطان عاد إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها وكان مسيره إليها فى ربيع الاول من شهور سنة اثنتين وسبعين واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق فأقام رحمه الله بها يقرر قواعدها ويسد خللها وأراح العسكر ثم تأهب [٣] للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الأوفر على الرملة وذلك فى أوائل جمادى الاولى سنة ثلاث وسبعين .

ذكر كسرة الرملة

وكان مقدم الافرنج البرنس ارناط وكان قد بيع بحلب فانه كان أسيراً بها من زمن نور الدين وجرى خلل فى ذلك اليوم على المسلمين . ولقد حكى السلطان صورة الكسرة فى ذلك اليوم وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبوا تعبية القتال ولما قرب العدو رأى بعض الجماعة أن تعبر الميمنة الى جهة الميسرة والميسرة الى جهة الميمنة ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الافرنج وقدر الله كسرتهم

---

(١) الاصطبلات : حظائر مبيت الخيول مفردها اصطبل .

(٢) يفل : أى يضعف أو يهزم .

(٣) تأهب : أى استعد .

فانكسروا كسرة عظيمه ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا فى الطريق وتبددوا وأسر منهم جماعة منهم الفقية عيسى وكان وهنا عظيما جبره بوقعة حطين المشهورة ولله الحمد .

وأما الملك الصالح فإنه تخبط أمره وقبض على كمشتكين صاحب دولته وطلب منه تسليم حارم إليه فلم يفعل فقتله . ولما سمع الافرنج بقتله نزلوا على حارم طمعا فيها وذلك فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين وقابل عسكر الملك الصالح العساكر الافرنجية . ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الافرنج سلموها إلى الملك الصالح فى العشر الأواخر من شهر رمضان من السنة المذكورة .

ولما علم الافرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ثم عاد الملك الصالح الى حلب ولم يزل أصحابه على اختلاف يميل بعضهم الى جانب السلطان حتى بلغه عصيان عز الدين قليج بتل خالد فاخرج اليه العسكر وذلك فى عاشر المحرم سنة ست وسبعين ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل وكانت وفاته فى ثالث صفر من هذه السنة وولى مكانه أخوه عز الدين مسعود فى الخامس منه وكانت وفاة شمس الدولة بالاسكندرية .

ذكر عودة السلطان إلي الشام

ولما عاد السلطان بعد الكسرة [١] إلى الديار المصرية وأقام بها ريثما لم الناس شغتهم وعلم بتخبط الشام عزم على العود إليه وكان عوده للغزاه فوصله رسول قليج أرسلان يلتمس من السلطان الموافقة ويستغيث إليه من الأرمن فأستقل نحو ابن لاون لنصرة قليج أرسلان ونزل يقره حصار وأخذ عسكر حلب فى خدمته لانه قد اشترط فى الصلح فاجتمعوا على النهر

(١) الكسرة : أى الهزيمة .

الازرق بين بهنسة وحصن منصور وعبر منه إلى النهر الأسود وطرف بلاد ابن لاون وأخذ منهم حصنا واخرجه وبذلوا له أسارى والتمسوا منه الصلح وعاد عنه ثم راسله قليج أرسلان فى صلح الشرقيين بأسرهم واستقر الصلح وحلف السلطان فى عاشر جمادى الاولى سنة ست وسبعين ودخل فى الصلح قليج أرسلان والمواصلة وديار بكر وكان ذلك على نهر سنخة وهو نهر يرمى إلى الفرات وسار السلطان نحو دمشق

ذكر وفاة الملك الصالح ووصول عز الدين إلي حلب

وفى سنة سبع وسبعين مرض الملك الصالح بالقولنج وكان أول مرضه فى تاسع رجب وثالث عشر منه غلق باب القلعة لشدة مرضه واستدعى الامراء واحدا واحدا وحلفوا لعز الدين صاحب الموصل وفى الخامس والعشرين منه توفى رحمه الله وكان لموته وقع عظيم فى قلوب الناس ولما توفى * ولما توفى سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قطب الدين بذلك واعلامه بما جرى له من الوصية إليه وتحليف الناس له فسارع سائرا إلى حلب مبادرا خوفا من السلطان وكان أول قادم من أمرائه إلى حلب مظفر الدين ابن زين الدين وصاحب سروج ووصل معهما من حلف جميع الامراء له وكان وصولهم فى ثالث شعبان من السنة المذكورة وفى العشرين منه وصل عز الدين إلى حلب وصعد القلعة واستولى على خزائنها وذخائرها وتزوج أم الملك الصالح خامس شوال من السنة المذكورة *

* * *

ذكر متابعة عز الدين أخاه عماد الدين بالبلاد

ثم أقام عز الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لاجل السلطان وألح عليه[1] الامراء فى طلب الزيادات ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه وضاق عطنه

١- ألح عليه : كرر الطلب

وكان صاحب أمره مجاهد الدين قايماز وكان ضيق العطن[1]لم يعتد بمقاساة أمراء الشام فرحل من قلعة حلب طالبا للرقة وخلف ولده ومظفر الدين بها وسار حتى أتى الرقة ولقبه أخوه عماد الدين عن قرار بيتهم واستقر مقايضة حلب بسنجار وحلف عز الدين لأخيه على ذلك فى الحادى والعشرين من شوال وسار من جانب عماد الدين من تسلم حلب ومن جانب عز الدين من تسلم سنجار وفى ثالث عشر محرم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدين إلى قلعة حلب .

ذكر عود السلطان إلي مصر

وأما السلطان فإنه لما وقع الصلح على قليج أرسلان صعد إلى الديار المصرية واستخلف ابن أخيه عز الدين فخروشاه واليا ولما بلغه وفاة الملك الصالح عزم على العود إلى الشام خوفا على البلاد من الافرنج وبلغه أيضاً وفاة فخروشاه فاشتد عزمه . وكان وصوله إلى دمشق فى سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ثم انشأ التأهب [2] لغزاة بيروت فإنه عبر على الافرنج فى عوده من مصر مكابرة من غير صلح فقصد بيروت ونزلها ولم ينل منها غرضاً واجتمع الافرنج فرحلوه عنها ودخل إلى دمشق وبلغه أن رسل الموصل وصلوا إلى الافرنج يحثونهم على قتال المسلمين فعلم أنهم نكثوا اليمين[3] وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الاسلامية على عدو الله فأخذ فى التأهب لذلك فلما بلغ ذلك عماد الدين سير إلى الموصل يشعره بالخبر ويستحث العساكر وسار السلطان حتى نزل على حلب فى ثامن عشر جمادى الأولى من هذه السنة وأقام ثلاثة أيام ورحل فى الحادى والعشرين يطلب الغزاة واستقر الحال بينه وبين مظفر الدين وكان صاحب حران وكان

---

(١) ضيق العطن : أى قليل الصبر والحيلة .

(٢) التأهب : أى قمة الاستعداد .

(٣) نكثوا اليمين : أى نقضوا العهد .

قد استوحش من جانب الموصل وخاف من مجاهد الدين فالتجأ إلى السلطان وعبر إلى قاطع الفرات وقوى عزمه على البلاد وسهل أمرها عنده ودخل الرها والرقة ونصيبين وسرمج ثم شحن على الخابور واقطعه *

ذكر نزوله علي الموصل

وكان نزوله عليه فى هذه الوقعة فى يوم الخميس حادى عشر شهر رجب وكنت إذ ذاك فى الموصل فسيرت رسولا إلى بغداد قبيلا بأيام قلائل فسرت مسرعاً فى الدجلة وأتيت بغداد فى يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجداً بهم فلم يحصل منهم سوى الانفاذ إلى شيخ الشيوخ وكان فى صحبته رسول من جانبهم يأمرونه بالحديث معه ويتلطف الحال معه ويسير إلى بهلوان رسولا من الموصل يستنجدونه [1] فلم يحصل من جانبه سوى شرط كان الدخول تحته أخطر من حرب السلطان ثم أقام السلطان على الموصل أياما وعلم أنه بلد عظيم لايتحصل منه شئ بالمحاصرة على هذا الوجه ورأى أن طريق أخذه أخذ قلاعة وماحوله من البلاد واضعافه بطول الزمان فرحل عنها ونزل على سنجار فى سادس عشر شعبان وأقام يحاصرها وكان فيها شرف ابن الدين قطب الدين وجماعة ويشتد عليه الأمر حتى كان ثانى شهر رمضان فأخذها عنوة [2] وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين الى الموصل وأعطاها ابن أخيه تقى الدين ورحل عنها الى نصيبين .

ذكر قصة شاه أرمن صاحب خلاط

وذلك أن أصحاب الموصل أنفذوا إليه واستنجدوا به وطرحوا أنفسهم عليه فخرج من خلاط لنصرتهم ونزول بحرزم وسير إلى عز الدين صاحب الموصل أعلمه فخرج اليه وذلك فى الخامس عشر من شوال فسار حتى اجتمع به

---

(١) أى يطلبون منه العون والمساعدة .

(٢) عنوة أى غصبا وقوة .

صاحب ماردين ووصل جماعة من عسكر حلب كل ذلك للقاء السلطان وأرسل شاه أرمن بكتمر إلى السلطان يخاطبه فى الصلح بتوسط شيخ الشيوخ فلم ينتظم بينهم حال ورحل السلطان إلى عسكر شاه فلما سمع شاه أرمن بوصول السلطان ولى راجعاً إلى بلاده وعاد عز الدين إلى بلاده وتفرقوا وسار السلطان يطلب بلد آمد فنزل عليها وقاتلها وأخذها فى ثمانية أيام وذلك فى أول محرم سنة تسع وسبعين وأعطاها نور الدين بن قره أرسلان . ومن على ابن نيسان بجميع ما كان فيها من الأموال وغيرها ثم سار يطلب الشام لقصد حلب . وفى هذه المدة خرج عماد الدين وخرب قلعة اعزاز وخرب حصن كفر لاثا وأخذها من بكمش فإنه كان قد صار مع السلطان فى الثانى والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة وقاتل باشر وكان صاحبها ولد رم الباروقى قد صار مع السلطان فلم يقدر عليها وجرت غارات من الافرنج فى البلاد بحكم اختلاف العساكر ودفعهم الله تعالى وتسلم الكرزين ثم عاد الى حلب .

ذكر عود السلطان إلي الشام

ولما عاد إلى الشام بدأ بتل خالد [1] فنزل عليها وقاتلها وأخذها فى الثانى والعشرين من محرم سنة تسع وسبعين ثم سار طالباً حلب فنزل عليها فى السادس والعشرين . وكان أول نزوله بالميدان الأخضر واستدعى العساكر من الجوانب واجتمع خلق عظيم وقاتلها قتالا شديدا وتحقق عماد الدين أنه ليس له قبل وكان قد ضرس [2] من اقتراح الامراء وجبههم فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان فى اعادة بلاده وتسلم حلب اليه واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الامر واستحكمت القاعدة واستفاض ذلك واستعلم العسكر منه ذلك فأعلمهم

(١) تل خالد : اسم مدينة بالشام .

(٢) ضرس من اقتراح الامراء : أى جربها و أحكمها .

وأذن فى تدبير أنفسهم وأنفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين حرديك النورى وزين الدين فقعدوا عنده الى الليل واستخلفوه على العسكر وعلى أهل البلد وذلك فى السابع عشر من صفر وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر وقدموا حلب وخلع عليهم وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضى أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه والسلطان مقيم بالميدان الأخضر إلى الثالث والعشرين من صفر وفيه توفى تاج الملوك أخوه من جرح كان أصابه وشق عليه أمر موته وجلس للعزاء وفى ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزاه وتقررت بينهما قواعد وأنزله السلطان فى الخيمة وقدم له تقدمة سنية [1] وخيلا جميلة وخلع على جماعة من أصحابه . وسار عماد الدين من يومه إلى قرار حصار سائراً الى سنجاب وصعد السلطان قلعة حلب مسرورا منصورا . وعمل له حسام الدين طمان دعوة سنية وكان قد تخلف لاخذ ماتخلف لعماد الدين من قماش وغيره وكان قد أنفذ إلى حارم من يستلمها ودافعهم الموالى وأنفذ الاجناد الذين بها يستحلفونه فحلف لهم وسار من وقته إلى حارم فوصلها فى التاسع والعشرين من صفر وتسلمها وبات بها ليلتين وقرر قواعدها وولى فيها ابراهيم بن شرده وعاد الى حلب ودخلها فى ثالث ربيع الأول ثم اعطى العساكر دستوراً وسار كل منهم إلى بلاده وأقام يقرر قواعد حلب ويدبر أمورها

ذكر غزاة عين جالوت

ولم يقم فى حلب إلا إلى الثانى والعشرين من ربيع الآخر وأنشأ عزما إلى الغزاة فخرج فى ذلك اليوم مبرزا نحو دمشق واستنهض العساكر فخرجوا يتبعونه ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق فى ثالث جمادى الأولى فاقام بها متأهبا [2] إلى السابع والعشرين منه ثم برز فى ذلك اليوم

---

(١) تقدمة سنية : أى هدية ثمينة .

(٢) متأهبا : أى متجهزا ومستعد للقتال .

ونزل على جسر الخشب وتبعته العساكر مبرزة فاقام به تسعة أيام ثم رحل فى ثامن جمادى الآخرة وسار حتى أتى الفؤاد وتعبى فيه للحرب [١] وسار حتى نزل القصير فبات به وأسبح على المخاض وعبر وسار حتى أتى بيسان فوجد أهلها قد رحلوا عنها وتركوا ما كان من ثقيل الأقمشة والغلال والأمتعة بها فنهبها العسكر وغنموا وحرقوا مالم يمكن أخذه وسار حتى أتى الجالوت وهى قرية عامرة وعندها عين جارية فخيم بها وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية وجاولى مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الافرنج فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك سائرين نجدة للافرنج فوقع أصحابنا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة نفر وعادوا ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاووش فوصل إليه فى بقية يوم الكسرة وهو العاشر من جمادى الآخرة فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر * ولما كان السبت حادى عشر وصل الخبر إليه أن الافرنج قد اجتمعوا فى صفورية فرحلوا الى الفولة وهى قرية معروفة كان غرضه المصاف فلما سمع بذلك تعبى للقاء ورتب الاطلاب يمنة ويسره وقلبا وسار للقاء العدة وسار الافرنج طالبين المسلمين ووقعت العين فى العين واخرج السلطان الجاليش خمسمائة رجل معروفة فواقعوا الافرنج وجرى قتال عظيم وقتل من العدة جماعة وهم ينضم بعضهم إلى بعض يحمى راجلهم[٢] فارسهم ولم يخرجوا للمصاف ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين ونزلوا عليها ونزل السلطان حولهم والقتل والجرح يعمل فيهم فخرجوا الى المصاف وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين فانهم فى كسرة عظيمة [٣] ولماأرأى أنهم لم يخرجوا رأى الانتزاح [٤] عنهم لعلهم يرحلون فيضرب معهم

(١) تعبى فيه : أى أعد العدة وتجهز .

(٢) راجلهم : أى الذى يقاتل وهو سائرا على قدميه بلا فرس .

(٣) فى كسرة عظيمة : أى فى هزيمة ساحقة .

(٤) الانتزاح : أى الابتعاد .

مصاف فرحل نحو الطور وذلك فى السابع عشر من هذا الشهر فنزل تحت الجبل مترقبا رحيلهم ليأخذ منهم فرصة وأصبح الافرنج فى الثامن عشر راحلين راجعين على اعقابهم ناكصين فرحل رحمه الله نحوهم وجرى من رمى النشاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة فلم يخرجوا ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا الفولة المقدم ذكرها راجعين إلى بلادهم فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على السلطان وأشاروا بالعود لفراغ زادهم وكان قد نال منهم بالقتل والاسر وخربت عفربلا وقلعة بيسان وزرعين وهى من حصونهم المذكورة وخربت عليهم قرى عديدة فعاد منصورا مظفرا مسرورا حتى نزل الغوار وأعطى الناس دستورا من أثر المسير ثم سار هو حتى أتى دمشق فدخلها فرحا مسرورا فى يوم الخميس الرابع والعشرين من هذا الشهر . فانظر إلى هذه الهمة التى لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد فالله يحسن جزاءه فى الآخره كما وفقه للأعمال المرضية فى الدنيا .

ذكر غزاة انشأها الي الكرك

ثم أنه أقام بدمشق إلى ثالث رجب سنة تسع وسبعين وخرج مرارا نحو الكرك وكان قد سير إلى الملك العادل وهو بمصر يتقدم إليه بالاجتماع به على الكرك فبلغه خبر حركته من مصر فخرج للقائه وسار حتى أتى الكرك ووافاه الملك العادل عليها وقد خرج معه خلق عظيم من تاجر وغير تاجر وذلك فى رابع شعبان من هذه السنة وكان قد بلغ الافرنج خبر خروجه فساروا براجلهم وفارسهم نحو الكرك للدفع عنه ولما انتهى ذلك اليه سير الملك المظفر تقى الدين إلى مصر وذلك فى خامس عشر شعبان وفى السادس عشر منه نزلت الافرنج على الكرك وتزحزح السلطان عنه بعد أن قاتله قتالا عظيما وعليه قتل شرف الدين برغش النور شهيدا

ذكر اعطائه أخاه الملك العادل حلب

ثم رحل السلطان مستصحبا أخاه الملك العادل معه إلى دمشق لإياسه عن الكرك بعد نزول الافرنج عليها فدخل دمشق فى الرابع والعشرين من شعبان واعطى أخاه الملك العادل حلب بعد مقامه بدمشق إلى ثانى يوم من شهر رمضان وكان بها ولده الملك الظاهر ومعه سيف الدين يازكج يدبر أمره وابن العميد فى البلد وكان الملك الظاهر من أحب الأولاد إلى قلبه لما قد خصه الله به من الشهامة والفطنة [1] والعقل وحسن السمت [2] والشغف بالملك وظهور ذلك كله وكان أبر الناس بوالده وأطوعهم له ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها فخرج من حلب لما دخل الملك العادل هو ويازكج سائرين الى خدمة السلطان فدفع دمشق الثامن عشر من شوال فاقام فى خدمة أبيه لايظهر له إلا الطاعة والانقياد من انكسار فى باطنه لايخفى عن نظر والده وفى ذلك الشهر وردنا على السلطان رسلا من جانب الموصل وكنا قد توسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله فى انفاذ شيخ بدر الدين رسولا وشيعا الى السلطان فسيره معنا من بغداد وكان غزير المروءه عظيم الحرمة فى دولة الخليفة وفى سائر البلاد وكانت مكانته عند السلطان بحيث يتردد إليه إذا كان عنده فى معظم الأيام .

ذكر وصولنا إلى خدمة السلطان

وكان الشيخ قد وصل إلى الموصل وسار منها فى صحبة القاضى محيى الدين ابن كمال الدين وكان بينهم صحبة من الصبا وركنت مع القوم وسرنا حتى اتينا دمشق وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ونحن فى خدمته

(١) الفطنة : أى الذكاء والفهم وفى الحديث (المؤمن كيس فطن)

(٢) حسن السمت : أى حسن الهيئة .

فلقيه عن بعد وكان دخولنا إلى دمشق يوم السبت حادى عشر ذى القعدة من هذه السنة ولقينا من السلطان كل جميل فيما يرجع الى الاكرام والاحترام وأقمنا أياما نراجع فى فصل حال فلم يتفق صلح فى تلك الوقعة وخرجنا راجعين الى الموصل وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القصر واجتهد فى ذلك اليوم أن ينقضى شغل فلم يتفق وكان الوقوف من جانب مجد الدين فإن السلطان اشترط أن يكون صاحبا اربل والجزيره على خيرتهما فى الانتماء إليه أو إلى الموصل فقال محيى الدين لابد من ذكرهما فى النسخة [1] فوقف الحال وكان مسيرنا سابع ذى الحجة وفى تلك الدفعة عرض على السلطان موضع البها الدمشقى بمصر على لسان الشيخ فاعتذرت ولم أفعل خوفا من أن يحال بوقف الحال على ومن تلك الدفعة ثبت فى نفسه الشريفة منى أمر لم أعرفه الا بعد خدمتى له وأقام السلطان بدمشق ترد عليه الرسل من الجوانب فوصل رسول سنجر شاه صاحب الجزيرة فاستحققه لنفسه فى الانتماء إليه ورسول اربل وحلف لهما وسارا ووصل أخوه الملك العادل رابع ذى الحجة فأقام عنده وعيد وتوجه إلى حلب المحروسة .

ذكر غزوات أخري إلي الكرك

وصل ابن قره أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر سنة ثمانين فاكرمه الملك العادل اكراما عظيما وأسعده إلى القلعة وباسطه ورحل معه طالبا دمشق فى السادس والعشرين منه وكان السلطان قد مرض أياما ثم شفاه الله * ولما بلغه وصول قره أرسلان خرج إلى لقائه وكان السلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة فالتقاه على عين ا لجسر بالبقاع وذلك فى تاسع ربيع الاول ثم عاد الى دمشق وخلف نور الدين واصلا مع الملك العادل فتأهب

(١) النسخة : أى الصحيفة المكتوبة وهنا يعنى ما اتفقوا عليه من شروط .

للغزاة وخرج مبرزا الى جسر الخشب فى منتصف ربيع الاول وفى الرابع والعشرين منه وصل الملك العادل ومعه ابن قره أرسلان الى دمشق فاقاما بها أياما ثم رحلا يلتحقان بالسلطان من رأس الماء طالبا للكرك فأقام قريبا منها أياما ينتظر وصول الملك المظفر من مصر الى تاسع عشر ربيع الآخر فوصل الى خدمته ومعه بيت الملك العادل وخزانته فسيرهم الى الملك العادل وتقدم اليه والى بقية العساكر بالوصول اليه الى الكرك فتتابعت العساكر الى خدمته حتى أحدقوا بالكرك وذلك فى رابع جمادى الاولى وركب المناجيق على المكان وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضاً مع قره أرسلان *

ولما بلغ الافرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم الى الذب الكرك وكان على المسلمين منه ضرر عظيم فانه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لايمكنها الخروج الا مع العساكر الجمة [1] الغفيرة فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة الى مصر . ولما بلغ السلطان خروج الافرنج تعبأ للقاء وأمر العساكر أن خرجت ظاهر الكرك وسير الثقل نحو البلاد وبقى العسكر جريدة ثم سار السلطان ينصد للعدو . وكان الافرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله وسار حتى نزل على قرية يقال لها حسبان قبالة الافرنج ورحل منها الى موضع يقال له ماء عين والافرنج مقيمون بالواله الى السادس والعشرين من جمادى الاولى ثم رحلوا قاصدين الكرك فسار بعض العساكر وراءهم فقاتلهم الى آخر النهار ولما رأى قدس الله روحه تصميم الافرنج عى الكرك أمر العساكر ان دخلوا الساحل لخلوه عن العساكر فهجموا نابلس ونهبوها وغنموا مافيها ولم يبق فيها الا حصناها وأخذوا جانين والتحقوا بالسلطان برأس الماء وقد نهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا واتفق دخول السلطان دمشق يوم السبت سابع جمادى الاخرى ومعه الملك العادل ونور الدين ابن قره أرسلان فرحاً مسروراً واكرمه واحترمه وأحسن اليه . وفى هذا الشهر

---

(١) الجمة : أى كثيرة العدد .

وصل رسول الخليفة ومعه الخلع فلبسها السلطان وألبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدين خلفا جاءت لهم وفى الرابع عشر من هذا الشهر خلع السلطان خلعة الخليفة على ابن قره أرسلان وأعطاه دستورا وأعطاه العساكر وفى ذلك التاريخ وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخا الى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا مع مجاهد الدين قايماز على أربل وانهم نهبوا وأحرقوا وأنه نصر عليهم وكسرهم

* * *

ذكر خروج السلطان إلي جهة الموصل في الوقعة الثانية

ولما سمع السلطان ذلك رحل من دمشق يطلب البلاد وتقدم الى العساكر فتبعته وسار حتى اتى حران على طريق البيرة والتقى مع مظفر الدين بالبيرة فى الثانى عشر من محرم سنة احدى وثمانين وتقدم السلطان الى سيف الدين المشطوب أن يسير فى مقدمة العسكر الى رأس العين ووصل السلطان حران الثانى والعشرين من صفر وفى السادس والعشرين منه قبض على مظفر الدين بن زين الدين لشيء كان قد جرى منه وحديث كان بلغه عنه رسول فلم يقف عليه وأنكره فأخذ منه قلعة حران والرها ثم اقام فى الاعتقال تأديبا إلى مستهل ربيع الأول ثم خلع عليه وطيب قلبه وأعاد إليه قلعة حران وبلاده التى كانت بيده إلى قانونه فى الاكرام والاحترام ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها ثم رحل السلطان ثانى ربيع الاول الى رأس العين ووصله فى ذلك رسول فليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان ان لم يعد عن الموصل وماردين وأنهم على عزم ضرب المصاف معه أن أصر على ذلك فرحل السلطان يطلب دنيسر فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين بن قره ارسلان

ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين فالتقاهم واحترمهم ثم رحل من دنيسر حادى عشر نحو الموصل حتى نزل موضعاً يعرف بالاسماعيلان قريب الموصل يصل من العسكر كل يوم نوبة جديدة يحاصر الموصل فبلغ عماد الدين قرة أرسلان موت أخيه نور الدين فطلب من السلطان دستوراً طمعا فى ملك أخيه فأعطاه دستواً .

* * *

ذكر موت شاه أرمن صاحب خلاط

ولما كان ربيع الآخر سنة احدى وثمانين توفى شاه أرمن صاحب خلاط وولى بعده غلامه بكتمر وهو الذى وصل رسولا الى خدمة السلطان يسنجار فعدل وأحسن الى أهل خلاط وكان متصوفا فى طريقته فأطاعه الناس ومالوا إليه * ولما ملك خلاط امتدت نحوه الاطماع لموت شاه أرمن فسار نحوه بهلوان بن الدكز . فلما بلغه ذلك سير الى خدمة السلطان من يقرر معه تسلم خلاط اليه واندراجه فى جملته واعطائه ما يرضيه فطمع السلطان فى خلاط وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها وسير الى بكتمر الفقيه عيسى وغرس الدين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها فوصلت الرسل وبهلوان قد قارب البلاد جدا فتخوف بهلوان من السلطان فطلب بهلوان اصلاحه وزوجه ابنة له وولاه وأعاد البلاد اليه واعتذر الى رسل السلطان وعادوا من غير زبدة * وكان السلطان قد نزل على ميا فارقين فحاصرها وقاتلها قتالا ونصب عليها مجانيق وكان بها رجل يقال له الأسد وماقصر فى حفظها لكن الأقدار لاتغلب فملكها السلطان فى التاسع والعشرين من جمادى * ولما أيس من أمر خلاط عاد الى الموصل فنزل بعيدا عنها وهى الوقعة الثالثة بموضع يقال له كفر زمار وكان الحر شديدا فأقام مدة . وفى هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة واجتمع به فأعاده إلى بلده ومرض رحمه الله بكفر زمار مرضاً

شديداً خاف من غائلته [1] فرحل طالباً حران وهو مريض وكان يتجلد ولا يركب محفة فوصل وهو شديد المرض وبلغ الى غاية الضعف وأيس منه ورجف بموته فوصل اليه أخوه من حلب ومعه أطباؤه .

ذكر صلح المواصلة معه

وكا سبب ذلك ان عز الدين أنا بك صاحب الموصل سيرني الى الخليفة يستنجد فلم يحصل منه زبدة فلما وصلت من بغداد ورددت جواب الرسالة أيس من نجدة فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا سرعة انقياده ورقة قلبه فى ذلك الوقت فندبونى لهذا الامر وبهاء الدين الربيب وفوض الى امر النسخة التى حلف بها وقالوا امضيا مايصل اليه جهدكما وطاقتكما فسرنا حتى أتينا العسكر والناس كلهم آيسون من السلطان وكان وصولنا فى أوائل ذى الحجة فاحترمنا احتراما عظيما وجلس لنا وكان أول جلوسه من مرضه وحلف فى يوم عرفة وأخذنا منه بين النهرين وكان أخذها من سنجر شاه فأعطاها المواصلة وحلفته يمنا تامه وحلفت أخاه الملك العادل ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه وسرنامعه وهو بحران وقد تماثل ووصله خبر موت ابن أسد الدين بن صاحب حمص وكانت وفاته يوم عرفة وجلس الملك العادل للعزاء * وفى تلك الايام كانت وقعة التركمان مع الاكراد وقتل بينهم خلق عظيم * وفى هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان ابن الدكز وكانت وفاته فى سلخ ذى الحجة .

* * *

ذكر عود السلطان إلى الشام

ولما وجد السلطان نشاطا من مرضه رحل يطلب وجهة حلب وكان

(١) الغائلة : الداهية (ج) غوائل .

وصوله اليها رابع عشر محرم سنة اثنتين وثمانين وكان يوما مشهودا لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه فاقام بها أربعة أيام ثم رحل نحو دمشق ولقبه أسد الدين شيركوه بن محمد شيركوه بتل السلطان ومعه أخته وقد صحبه خدمة عظيمة فمن عليه بحمص وأقام أياما يعتبر تركة أبيه ثم سار يطلب لجهة دمشق وكان دخوله اليها فى ثانى ربيع الأول وكان يوما لم ير مثله فرحا وسرورا ووقعت فى هذا الشهر وقعات كثيرة بين الترك والأكراد بأرض نصيبين وغيرها وقتل من الفئتين خلق عظيم وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصا بالراوند فكتب الى عسكر حلب أن حاصروه ، وفى ثانى جمادى الأولى وصل معين الدين من الرواند وقد سلمها الى علم الدين سليمان ثم مضى الى خدمة السلطان ، وفى سابع عشر وصل الملك الأفضل إلى دمشق ولم يكن قد رأى قبل ذلك الشام .

* * *

ذكر مسير السلطان العادل الي مصر ووصول الملك الظاهر الي حلب

وذلك أن السلطان رأي ذهاب الملك العادل إلى مصر فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر ليزيل تقاويضها (١) بذلك وهو على حران مريض وقد حصل ذلك فى نفس العادل فانه كان يحب الديار المصرية فلما عاد السلطان الى دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب الملك العادل الى دمشق فخرج من حلب جريدة فى الرابع والعشرين من ربيع الأول وسار حتى أتى دمشق فاقام بها فى خدمة السلطان فجرت بينها أحاديث ومراجعات فى قواعد تقرير إلى جمادى الآخرة واستقرت القاعدة على عود الملك العادل الى مصر وتسلم حلب وسير الصنيعة لاحضار أهله من حلب وكان الملك

---

(١) تقاويضها : أى تفرقها وتهدمها .

الظاهر أيده الله والملك العزيز بدمشق فى خدمة والدهما فلما استقرت القاعدة على عود الملك العادل الى مصر استقرت على أن يكون أتابك الملك العزيز وسلمه والده اليه يربى أمره وسلم الملك العادل حلب الى الملك الظاهر * ولقد قال لى الملك العادل أنه لما استقرت عليه هذه القاعدة واجتمعت بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما قلت للملك العزيز ياмولاى ان السلطان قد أمرنى أن أسير فى خدمتك الى مصر وأنا أعلم أن المفسدين كثير وغداً لايخلون ممن يقول عنى مالا يجوز ويخوفونك منى فأن كان لك أذن تسمع فقل لى حتى لا أجىء فقال لا أسمع وكيف يكون ذلك * ثم التفت للملك الظاهر أنا أعرف أن أخاك ربما يسمع فى أقوال المفسدين وأنا فمالى إلا أنت متى ضاق صدرى من جانبه فقال مبارك وذكر كل خير * ثم أن الملك الظاهر سيره ووالده إلى حلب ليلعمه أن حلب هى أصل الملك وجرثومته [1] وقاعدته ولهذا دأبت فى طلبها ذلك الدأب * ولما حصلت أعرض عما عداها من بلاد المشرق وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد فسلمها اليه علما منه بحذاقته وحزمه وحفظه وثباته وعلو همته فسار اليها حتى العين المباركة وسير فى خدمته الشحنة حسام الدين بشاره وواليا عيسى بن بلاشوا فنزل بعين المباركة وخرج الناس إلى لقائه فى بكرة تاسع جمادى الأخرى وصعد القلعة ضحوة نهار وفرح الناس به فرحا شديداً ومد على الناس من جناح عدله . وأفاض عليه وابل فضله * وأما الملك العزيز والملك العادل فان السلطان قرر حالتهما وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسير الملك العزيز وهو صحبة عمه ويأمره بالوصول إلى الشام وشق ذلك عليه حتى أظهر للناس وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى برقا فقبح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة وعرفوه أن عمه السلطان يخرج من يده فى

---

(١) الجرثرمة : الأصل . والجراثيم فى علم الطب والأحياء : كائنات دقيقة مجهرية وحيدة الخلية ذوات اشكال كروية أو لولبية وتتكثر بالانفلاق أو الإنشقاق وبعضها يسبب الأمراض .

الحال والله اعلم بما يكون منه بعد ذلك فرأى الحق بعين البصيرة وأجاب بالسمع والطاعة وسلم البلاد ورحل واصلاً إلى خدمة السلطان فسار السلطان إلى لقائه وفرح بوصوله فرحا شديدا وذلك فى الثالث والعشرين من شعبان وأعطاه حماد وسار اليها وكان قد عقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتمم ذلك ودخل بها فى السادس والعشرين من شهر رمضان ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين أسد فى شوال من السنة المذكورة المباركة .

*   *   *

ذكر غزاة انشأها الي الكرك

ولما كان محرم سنة ثلاث وثمانين عزم قصد الكرك فسير الى حلب من يستحضر العسكر وبرز من دمشق فى منتصف محرم فسار حتى نزل بارض نيطرة منتظرا اجتماع العساكر المصرية والشامية وامر العساكر المتواصلة اليه بشن الغارات على مافى طريقهم من البلاد الساحلية ففعلوا ذلك وأقام بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامى إلى الشام وأمنوا غائلة العدو ووصل قفل مصر الشتوى ووصل معه بيت الملك المظفر وما كان له بالديار المصرية وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالإفرنج بأرض الأرمن من بلاد ابن لاون وذلك أنه قد مات ملك الافرنج ووصى لابن أخيه بالملك وكان الملك المظفر بحماه وبلغ السلطان الخبر فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو واخماد ثائرتهم وسار الملك المظفر بعسكر حلب الى حارم فاقام بها ليعلم العدو ان هذا الجانب ليس بمهمل فعاد السلطان الى الشام ونزل بعشترا فى السابع عشر من ربيع الاول ولقيه ولده الملك الأفضل ومظفر الدين بن زين الدين وجميع العساكر . وكان قد تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبى مع الافرنجى ليتفرغ البال من العدو فى جانب واحد فصالحهم فى العشر الأواخر من ربيع الأول وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة

التى عزم عليها فسار ومن اجتمع به من العساكر الشرقية فى خدمته وهم عسكر الموصل مقدمتهم مسعود بن الزعفرانى وعسكر ماردين فلقيهم السلطان فى العشر الأوسط من ربيع الآخر فاقرهم وأكرمهم فى منتصف، هذا الشهر عرض السلطان العسكر لامر قد عزم عليه على تل يعرف بتل تسيل تيسل وتقدم فى اصحاب الميمنه بحفظ موضعهم والى اصحاب الميسرة بذلك والى القلب بمثله .

* * *

ذكر واقعة حطين المباركة علي المؤمنين

وذلك أن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه فى الملك وتمكين الله اياه فى البلاد وانقياد الناس لطاعته ولزومهم قانون خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد الى اقامة قانون الجهاد فسير إلى سائر العساكر واستحضرها واجتمعوا اليه بعشترا فى التاريخ المذكور وعرضهم ورتبهم واندفع قاصداً نحو بلاد العدو المخذول فى نهار الجمعة سابع عشر ربيع الآخر وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع سيما أوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر فربما كانت أقرب إلى الاجابة فسار فى ذلك الوقت على تعبية الحرب وكان بلغه أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم فى مرج صفورية بأرض عكا وقصدوا نحو المصاف ممهم فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصبيرة ورحل من هناك ونزل غربى طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب منتظر ا أن الافرنج اذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم وكان نزوله فى هذه المنزلة يوم الأربعاء الحادى والعشرين فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية وترك الاطلاب بحالها قبالة وجه العدو ونازل طبرية وزحف عليها فهجمها وأخذها فى ساعة من نهار وامتدت الأيدى اليها بالنهب والاسر والحريق والقتل واحتمت القلعة وحدها . ولما بلغ العدو ماجرى على طبرية

لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية [١] فرحلوا من وقتهم وساعتهم وقصدوا طبرية للدفع عنها فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء بحركة الافرنج فسيروا الى السلطان من عرفه ذلك فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ولحق العسكر هو ومن معه فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربى منها وذلك فى أواخر الخميس الثانى والعشرين وحال الليل بين الفئتين فتبايتا على مصاف شاكى السلاح إلى صبيحة الجمعة فى الثالث والعشرين فركب العسكران وتصادما وعملت الجاليشية وتحركت الاطلاب والتحم القتال واشتد الأمر وذلك بارض قرية تسمى اللوبيا وضاق الخناق بالقوم وهم سائرون كانما يساقون إلى الموت وهم ينظرون * وقد أيقنوا بالويل والثبور[٢] * وأحست أنفسهم أنهم فى غد زوار القبور * ولم يزل الحرب يلتحم * والفارس مع قرنه يصطدم * حتى لم يبق إلا الظفر * ووقع الوبال على من كفر * فحال بينهما الليل وظلامه وجرى فى ذلك اليوم من الوقائع العظيمة . والأمور الجسيمة .مالم يحك عمن تقدم وبات كل فريق فى سلاحه ينتظر خصمه فى كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض * وشغله النصب عن الحبو فضلا عن الركوض . حتى كان صباح السبت الذى بركفيه فطلب كل من الفريقين مقامه وعلمت كل طائفة ان المكسورة بينهما مدحورة الجنس معدومة النفس . وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن ومن بين أيديهم بلاد القوم وأن لاينجيهم إلا الله تعالى وكان الله قدر نصر المؤمنين ويسره * وأجراه علي وفق ماقدره * فحملت الاطلاب الاسلامية من الجوانب وحمل القلب وصاحوا صيحةالرجل الواحد فالقى الله الرعب فى قلوب الكافرين . وكان حقا علينا نصر المؤمنين * وكان القومص ذكى القوم وأطغاهم فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ولم

(١) الحمية : أى الأنفة .

(٢) الثبور : تعنى الهلاك .

يشغله ظن محاستة حبسه عن تعبية[1] فهرب فى أوائل الأمر قبل اشتداده وأخذ طريقه نحو صور وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده . وأمن الاسلام كيده واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب واطلقوا عليهم السهام وعاملوهم بالصفاح وانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له تل حطين وهى قرية عنده وعندها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء فضايقهم المسلمون على التل واشعلوا حواليهم النيران وقتلهم العطش وضاق بهم الامر حتى كانوا يستسلمون للاسر خوفاً من القتل فأسر مقدموهم وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهم الملك جفرى والبرنس أرناط وأخو الملك والبرنس هو صاحب الشوبك وابن الهنفرى وابن صاحب طبرية ومقدم الداوية وصاحب حبيل ومقدم الاسبتار وأما الباقون من المقدمين فانهم قتلوا وأما الأذوان فأنهم قسموا الى قتيل وأسير ولم يسلم منهم الامن أسر وكان الواحد العظيم منهم يخلد الى الاسر خوفا على نفسه ولقد حكى لى من اثق به انه لقى بحوران شخصاً وحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا أخذهم وحده لخذلان وقع عليهم * فأما الذين بقوا من مقدميهم فنذكر حديثهم * أما القومص الذى هرب فانه وصل الى طربلس وأصابته ذات الجنب [2] فاهلكه الله بها . وأما مقدم الاسبتار والداوية فان السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة ابيهم . وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر انه اذا ظفر به قتله وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قافله من الديار المصرية فى حالة الصلح فنزلوا عنده بالأمان فغدر بهم وقتلهم فناشدوه الله والصلح الذى بينه وبين المسلمين فقال مايتضمن الاستخفاف بالنبى ﷺ وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه

(١) هكذا فى الاصل .

(٢) ذات الجنب : مرض يصيب البطن وهو التهاب فى الغشاء المحيط بالرئة وكثيراً ما يؤدى إلى الموت ويسمى الجناب .

نذر إن ظفر به قتله . ولما فتح الله بالنصر والظفر جلس السلطان فى دهليز الخيمة فأنها لم تكن نصبت والناس يتقربون إليه بالاسرى ومن وجدوه من المقدمين ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسروراً لما أنعم الله به عليه ثم استحضر الملك جفرى وأخاه والبرنس أرناط وناول الملك جفرى شربة من حلاب بثلج فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ثم ناول بعضها البرنس أرناط فقال السلطان للترجمان قل للملك أنت الذى سقيته وأما أنا فما سقيته وكان على عادة جميل العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك جريا على مكارم الاخلاق ثم أمرهم بمسيرهم الى موضع عين لنزولهم فمضوا واكلوا شيأ ثم عادوا فاستحضرهم ولم يبق عنده سوى بعض الخدم وأقعد الملك فى الدهليز واستحضر البرنس أرناط وأوقفه على ما قال وقال له هاأنا انتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل ثم سل النمجاة وضربه بها فحل كتفه وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه الى النار فأخذ ورمى على باب الخيمة فلما رآه الملك قد خرج به على تلك الصورة لم يشك أنه يشى به فاستحضره وطيب قلبه وقال لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك * وأما هذا فانه تجاوز حده فجرى ماجرى * وبات الناس فى تلك الليلة على أتم سرور . وأكمل حبور [١] . ترتفع أصواتهم بالحمد الله والشكر له والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح فى يوم الاحد وتسلم قدس الله روحه فى بقية ذلك اليوم قلعة طبرية وأقام بها الى يوم الثلاثاء . ثم رحل طالبا عكا وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها يوم الخميس مستهل جمادى الأولى فأخذ واستنقذ من كان فيها من الاسارى وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع والتجائر فانها كانت مظنة التجار وتفرقت العساكر فى بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع ماكان المنيعة واخذوا

---

(١) الحبور : أى السرور والنعيم .

نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة وكان ذلك لخلوها عن الرجل بالفتك والأسر ولما استقر قواعد عكا واقتسم الغانمون أموالها وأساراها سار يطلب تبتين فنزل عليها الأحد ثانى عشر جمادى الأولى وهى قلعة منيعة فنصب عليها المناجيق وضيق عليها بالزحف الخناق وكان بها رجال ابطال شديدون فى دينهم فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ونصره الله عليهم وتسلمها ثامن عشر عنوة وأسر من بقى بها بعد القتل ثم رحل منها الى صيدا فنزل عليها ومن الغد تسلمها وأقام عليها بحيث قرر قاعدتها * ثم سار حتى بيروت فنازلها فى الثانى والعشرين فركب عليها القتال والزحف وضيق عليهم الامر حتى أخذها فى التاسع العشرين وتسلم أصحابه حبيلا وهو على بيروت * ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها لأن العسكر كان قد تفرق فى الساحل وذهب كل انسان يأخذ لنفسه شيئاً وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب وكان قد اجتمع فى صور كل افرنجى بقى فى الساحل فرأى قصد عسقلان لان أمرها كان أيسر ونازلها فى السادس والعشرين من جمادى الآخر وتسلم فى طريقه مواضع كثيرة كالرملة وبينا والداورن وأقام عليها المنجنيقات وقاتلها قتالا شديداً وتسلمها سلخ هذا الشهر وأقام عليها الى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبرين والنطرون بغير قتال وحمان بين فتوح عسقلان وأخذ الافرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة فان العدو ملكها فى سبعة وعشرين من جمادى الاخرى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

*   *   *

ذكر فتوح القدس الشريف حرسها الله تعالي

ولما تسلم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والإجتهاد فى قصده واجتمعت عليه العساكر التى كانت متفرقة فى

الساحل بعد انقضاء لبانها [1] من النهب والغارة فسار نحوه معتمداً على الله معوضاً أمره اليه منتهزاً فرصة فتح باب الخيرالذى حث عليه ﷺ بقوله من فتح باب خير فلينتهز بأنه لا يدرى متى يغلق دونه وكان نزوله عليها فى الخامس عشر من رجب سنة ثلاثون وثمانين المباركة فنزل بالجانب الغربى وكان مشحونا بالمقاتلة والخيانة والرجالة * ولقد تحازر أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ماعدا النساء والصبيان * ثم انتقل رحمه الله لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالى ونصب عليه المجانيق وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب فى السور مما يلى وادى جهنم فى قرنة شمالية * ولما رأى أعداء الله مانزل بهم من الامر الذى لا يندفع عنهم وظهرت لهم امارات نصرة الحق على الباطل وكان قد القى فى قلوبهم الرعب مما جرى على ابطالهم ورجالهم من السبى والقتل والأسر وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والاخذ علموا أنهم الى ما صاروا اليه صائرون .وبالسيف الذى قتل به اخوانهم مقتولون فاستكانوا وأخلوا الى طلب الأمان واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين وكان تسلمه القدس قدس الله روحه فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلة كانت المعراج المنصوص عليها فى القرآن المجيد .فانظر الى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده الى أيدى المسلمين فى مثل زمان الاسراء بنبيهم ﷺ وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم ومن ارباب الحرف والطرق وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس قصده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور وارتفعت الاصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه . وحط الصليب الذى كان على قبة الصخرة وكان شكلا

---

(١) لبانها : أى هدفها ومطلبها .

عظيما ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر . وكانت قاعدة الصلح انهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية وعن كل صغير ذكر أو انثى دينارا واحدا فمن أحضر القطيعة سلم والا أخذ أسيرا وفرج الله عمن كان أسيرا من المسلمين وكان خلقاً عظيما زهاء ثلاثة آلاف أسير واقام رحمه الله يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والعلماء وايصال من دفع قطيعته منهم الى مأمنه وهو صور . ولقد بلغني أنه رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء وكان مئتى الف دينار وعشرين الف دينار وكان رحيله يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان .

* * *

ذكر قصده صور

ولما ثبت قدم السلطان بملك القدس والساحل قويت نفسه على قصد صور وعلم أنه إن أخر أمرها ربما اشتد فرحل سائراً اليها حتى عكا فنزل عليها ونظر فى أحوالها ثم رحل متوجها إلى صور يوم الجمعة خامس شهر رمضان وسار حتى أشرف عليها ونزل قريبا منها ينتظر وصول آلات القتال وكان لما تحرر عزمه على قصد صور سير الى ولده الملك الظاهر يستحضره وكان قد تركه بحلب ليسد ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل فقدم عليه فى الثامن عشر على تلك المنزلة وسر بوصوله سرورا عظيما * ولما تكاملت عنده الآلات القتال من المناجيق والدبابات والسنائر وغير ذلك نزل عليها فى الثامن والعشرين وضايقها وقاتلها قتالا عظيما واستدعى اسطول مصر وكان يحاصرها من البحر والعسكر من البر وكان قد خلف أخاه الملك العادل بالقدس يقرر قواعده فاستدعاه فوصل إليه فى خامس شوال وسير من حاصر هو نين فسلمت فى الثالث والعشرين من شوال .

ذكر كسرة الاسطول

وذلك ان قدم على الاسطول انسان يقال له الفارسى بدران وكان ناهضاً جلداً فى البحر وكان رئيس البحريين يقال له عبد المحسن وكان قد اكد عليهم الوصية وأخذ حذرهم وأيقظهم لئلا تنتهز منهم فرصة فخالفوه وغفلوا عن انفسهم فى الليل فخرج أسطول الكفار من صور وكبسوهم وأخو المقدمين مع خمسة قطع وقتلوا خلقاً عظيما من الاسطول الاسلامى وذلك فى السابع والعشرين من شوال فلما علم السلطان ما تم على المسلمين ضاق عطنه وكان قد هجم الشتاء وتراكمت الامطار وامتنع الناس من القتال من شدة المطر فجمع الامراء واستشارهم فيما يفعل فاشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزأ من الراحة ويستعدو لهذا الامر استعدادا جديداً فرأى ذلك رأيا ورحل عنها بعد ان رمى المنجنيقات وسيرها واحرق ما لا يمكن ثقله وكان رحيله ثانى ذى القعدة من هذه السنه ففرق العساكر واعطاها دستوراً وسار كل قوم الى بلادهم وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين .

* * *

ذكر نزوله علي كوكب

ولما دخلت عليه هذه السنة المباركة رأى الاشتغال بالحصون الباقية لهم مما يضعف قلوب من فى صور وينهى أمرها به فاشتغل بذلك على كوكب فى أوائل محرم وكان سبب بداءته بكوكب أنه قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل اليهم قوة فخرج الافرنج ليلا وأخذوا غرنهم وكبسوهم بعفر بلا وقتلوا مقدمهم وكان من الامراء يعرف بسيف الدين أخى الجاولى واخذو اسلحتهم فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن معه من خواصه فانه كان قد أعطى العساكر دستورا وعاد اخوه الى مصر وولده

الى حلب ولقى فى طريقه شدة من الثلج والبرد فحملته مع ذلك الحمية على النزول عليها وأقام يقاتلها مدة . وفى تلك المنزلة وصلت الى خدمته فانى كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين وكانت وقعة ابن المقدم وكان من اكبر أمراء الشام وكان كثير الغزاة فقدر الله ان جرح بعرفة يوم عرفة ثم حمل الى منى مجروحا ومات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الاكبر وصلى عليه فى مسجد الخيف فى بقية ذلك اليوم ودفن بالمعلا وهذا من أتم السعادات وبلغ ذلك السلطان فشق عليه ثم اتفق لى العود من الحج إلى الشام لقصد القدس وزيارته والجمع بين زيارة النبى ﷺ وزيارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فوصلت الى دمشق ثم خرجت إلى القدس فبلغه خبر وصولى فظن أنى وصلت من جانب الموصل فى حديث فاستحضرنى عنده وبالغ فى الاكرام والاحترام . ولما ودعته ذاهبا الى القدس خرج لى بعض خواصه وابلغنى تقدمه إلى بأن أعود اتمثل فى خدمته عند العود من القدس فظننت أنه يوصينى بهم إلى الموصل وانصرفت إلى القدس يوم رحيله عن كوكب ورحل لأنه علم ان هذا الحصن لا يؤخذ إلا بجمع العساكر عليه وكان حصن قويا وفيه رجال شددا من بقايا السيف وميرة عظيمة فرحل الى دمشق وكان دخوله اليها فى سادس ربيع الاول . وفى ذلك اليوم اتفق دخولى اليها عائداً من القدس وأقام بها خمسة أيام فكان له عنها ستة عشر شهرا وفى اليوم الخامس بلغه خبر الافرنج انهم بحبيلاً واغتالوها فخرج مسرعا ساعة بلوغ الخبر وكان قد سير إلى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب وسار يطلب حبيلا فلما عرف الافرنج بخروجه كفوا عن ذلك . وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للغزاة فسار نحو حصن الاكراد فى طلب الساحل الفوقانى

ذكر دخوله الساحل الاعلي
واخذه اللاذقية وجبلة وغيرهما

ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الأكراد ثم سير إلى الملك الظاهر والملك المظفر أن يجتمعا وينزلا بتبرين قبالة انطاكيه ليحفظ ذلك الجانب وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت لخدمة السلطان فى هذه المنزلة ووصلت إليه بها على عزم المسير الى الموصل متجهز لذلك فلما حضرت عنده فدح بى وأكرمنى وكنت قد جمعت له كتابا فى الجهاد بدمشق مدة مقامى فيها تجمع احكامه وآدابه فقدمته بين يديه فاعجبه وكان يلازم مطالعته وما زلت أطلب دستورا فى كل وقت وهو يدافعنى عن ذلك ويستدعينى للحضور فى خدمته فى كل وقت ويبلغنى على ألسنة الحاضرين ثناءه على وذكره اياى بالجميل فاقام فى منزلته ربيعا الآخر جمعيه وصعد فى اثنائه إلى حصن الأكراد وحاصرها يوم مجيئه بها فما رأى الوقت يحمل حصاره واجتمعت العساكر من الجوانب وأغار على بلد طرابلس فى الشهر دفعتين ودخل البلاد مغيرا ومختبرا لمن بها من العساكر ويقويه العساكر بالغنائم ثم نادى فى الناس فى آواخر الشهر انا داخلون فاحملوا زاد شهر ثم سير الى مع الفقية عيسى وكشف لى أنه ليس فى عزمه ان يمكننى من العود الى بلادى وكان الله قد أوقع فى قلبى محبته منذ رأيته وحبه الجهاد فأحببته لذلك وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الاولى سنة أربع وثمانين وهو يوم دخوله الساحل وجميع ماحكيت قبل انما هو روايتى عمن أثق به ممن شاهده * ومن هذا التاريخ ماسطرت الا ما شاهدته أو أخبرنى به من أثق به خبراً يقارب العيان والله الموفق * ولما كان يوم الجمعة رابع جمادى الاولى رحل السلطان على تعبية لقاء العدو ورتب الاطلاب وسارت الميمنة أولا ومقدمها عماد الدين زنكى والقلب فى الوسط والميسرة فى الآخر ومقدمها مظفر الدين وسار الثقل فى وسط العسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك

الليلة فى بلد العدو ثم رحل ونزل على العريمة فلم يقاتلها ولم يعترض لها ووصل فى السادس الى أنطرسوس فوقف قبالتها ينظر اليها وكان فى عزمه الاجتياز فانه كان له عمل بجبلة فاستهان بأمرها فعزم على قتالها فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ونزل هو في موضعه وصارت العساكر محدقة بها من البحر الى البحر وهى مدينه راكبة على البحر ولها برجان كالقلعتين حصينان وركب هو وقارب البلد وأمر الناس بالزحف والقتال فلبسوا لامة الحرب والقتال والزحف وضايقهم فما استتم نصب الخيم حتى صعد الناس السور وأخذوها بالسيف وغنم العسكر جميع من بها وما بها وخرج الناس والاسرى واموالهم بأيديهم وترك الغلمان نصب الخيم واشتغلوا بالنهب والكسب ووفى بقوله نتغدى بانطرسوس ان شاء الله وعاد الى خيمته فرحا مسروراً . وحضرنا عنده للهناء بما جرى ومد الطعام وحضر الناس واكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقين الحصار فسلم احدهما مظفر الدين فما زال يحاصره حتى خرجه واخذ من كان فيه وامر السلطان باخراب سور البلد وقسمه على الامراء وشرعوا فى خرابه واخذوا يحاصرون الآخر . وكان حصنا منيعا مبنيا بالحجر النحيت وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والبطارقة والمقاتلة فيه وخندقه يدور فيه الماء وفيه فروج كثيرة يخرج الناس منها عن بعد وليس له قدر يخرج عليه مسلم فرأى السلطان تأخير امره والاشتغال بما هو اهم منه فاشتد فى اخراب السور حتى أتى عليه وخرب البيعة وهى بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من اقطار بلادهم وامر بوضع النار فى البلد فأحرق جميعه حتى كان تتأجج النار فى ازره وبيوته والاصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير فاقام عليها يخرجها الى الرابع عشر وسار يريد جبلة وكان عرض له ولده الملك الظاهر فى اثناء طريق جبله فانه طلبه وامره ان يحضر معه جميع العساكر التى كانت بتبرين .

ذكر فتوحه جبلة واللاذقيه

ووصل الى جبلة فى الثامن عشر وما استتم نزول العساكر حتى اتى البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع وبقيت القلعة ممتنعة فاشتغل بقتالها فقاتلت قتالا يقيم عذرا لمن كان فيها وسلمت بالأمان فى التاسع عشر واقام عليها الى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية وكان نزوله عليها فى الرابع والعشرين وهى بلد ملح خفيف القلب غير مستور . وله ميناء مشهورة وله قلعتان متصلتان على تل مشرف على البلد فنزل محدقا بالبلد واخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيها إلامن ناحية البلد واشتد القتال وعظم الزحف وارتفعت الأصوات وقوى الضجيج الى آخر اليوم المذكور . واخذ البلد دون القلعتين وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فانه كان بلد التجار ففرق بين الناس الليل وهجومه واصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهدا فى أخذ النقوب وأخذت النقوب من شمالى القلاع وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ما حكى لى من ذرعه ستين ذراعا وعرضه أربعة اذرع واشتد الزحف عليهم حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة باليد فلما رأى عدو الله ما حل بهم من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الامان عشية الجمعة الخامس والعشرين من الشهر وطلبوا قاضى جبلة يدخل اليهم ليقرر لهم الامان فأجيبوا الى ذلك وكان رحمه الله متى طلب منه الامان لا يبخل به رفقا فعاد الناس عنهم الى خيامهم وقد أخذ منهم التعب فباتوا الى صبيحة السبت ودخل قاضى جبلة اليهم واستقر الحال معهم على انهم يطلقون بنفوسهم وذراريهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب وأطلق لهم دواب يركبونها الى مأمنهم ورقى عليها العلم الاسلامى المنصور فى بقية ذلك اليوم وأقمنا عليها الى السابع والعشرين .

ذكر فتوح صهيون

ورحل عن اللاذقية طالبا صهيون واستدارت العساكر بها من سائر نواحيها فى التاسع والعشرين ونصب عليها ستة مناجيق وهى قلعة حصينة منيعة فى طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة وليس لها خندق محفور الا من جانب واحد مقدار طوله ستون ذراعا أو اكثر وهو نقر فى حجر ولها ثلاثة أسوار سور دون ربضها وسور دون القلعة وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب فحين أقبل العسكر الاسلامى شاهدته قد وقع فاستبشر المسلمون بذلك وعلموا أنه النصر والفتح واشتد القتال عليها من سائر الجوانب فضربها بمنجيق الملك الظاهر صاحب حلب وكان نصب منجيقا قريبا من سورها فقطع الوادى وكان صائب الحجر فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة يمكن الصاعد فى السور الترقى اليه منها ولما كان بكرة الجمعة ثانى جمادى الآخرة عزم السلطان وتقدم وأمر المنجنيقات ان تتوالى بالضرب وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل وما كان الا ساعة حتى رقى المسلمون على الاسوار التى للربض واشتد الزحف وعظم الامر وهجم المسلمون الربض * ولقد كنت اشاهد الناس وهم يأخذون القدور وقد استوى فيها الطعام فياكلونها وهم يقاتلون وانضم من كان فى الربض الى القلعة ويحملون ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم ونهب الباقى واستدارت المقاتلة حول اسوار القلعة ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان ووصل خبرهم الى السلطان فبذل الامان وأنعم عليهم على ان يسلموا بأنفسهم وأموالهم ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير ومن المرأة خمسة وعن الصغير ديناران وسلمت القلعة وأقام السلطان عليها حتى سلم عدة قلاع كالعبد وفيحه وبلاطنيس وغيرها من القلاع والحصون تسلمها النواب.

ذكر فتوح بكاس

ثم رحل وسرنا حتى أتينا سادس جمادى الاخرى بكاس وهى قلعة حصينة على جانب العاصى ولها نهر يخرج من تحتها وكان المنزل على شاطىء العاصى وصعد السلطان جريدة الى القلعة وهى جبل يطل على العاصى فأحدق بها من كل جانب وقاتلها قتالا شديداً بالمجنيقات والزحف المضايق الى تاسع الشهر ويسر الله فتحها عنوة وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ما كان فيها وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يعبر اليها منها بجسر وهى فى غاية المنعة ليس اليها طريق فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب ورأوا أنهم لا ناصر لهم فطلبوا الأمان فى الثالث عشر وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بانطاكية فأذن فى ذلك وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطانى عليها يوم الجمعة سادس عشر ثم عاد السلطان إلى الثقل وسير ولده الملك الظاهر إلى قلعة سرمانية فقاتلها قتالا شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة الى سرمانية فى أيام الجمع وهى علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر لنا الله الفتوح فى اليوم الذى يضاعف فيه ثواب الحسنات وهذا من نوادر الفتوحات فى الجمع المتوالية ولم يتفق مثلها فى تاريخ .

* * *

ذكر فتوح برزية

ثم سير السلطان جريدة الى قلعة برزية وهى قلعة حصينة فى غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل فى جميع بلاد الافرنج والمسلمين يحيط بها أوديه من سائر جوانبها وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفا وسبعين ذراعا ثم جدد عزمه على حصارها بعد رؤيتها واستدعى

الثقل وكان نزول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها فى الرابع والعشرين من الشهر وفى بكرة الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات والات الحصار الى الجبل فأحدقت بالقلعة من سائر نواحيها وركب القتال من كل جانب وضرب اسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلا ونهارا وفى السابع والعشرين قسم العساكر ثلاثة أقسام ورتب كل قسم يقاتل شطرا من النهار ثم يستريح ويسلم القتال للقسم الاخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلا وكان صاحب النوبة الاولى عماد الدين صاحب سنجار فقاتلها قتالا شديدا حتى استوفى نوبته وضرس الناس وتراجعوا واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه وركب وتحرك خطوات عدة وصاح فى الناس فحملوا عليها حملة الرجل الواحد وصاحوا صيحة الرجل الواحد وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الاسوار وهجموا القلعة وأخذت القلعة عنوة فاستغاثوا الامان وقد تمكنت الايدى منهم فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ونهب جميع ما فيها وأسر جميع من كان فيها وكان قد أوى اليها خلق عظيم وكانت من قلاعهم المذكورة وكان يوما عظيما وعاد الناس الى خيامهم غنامين وعاد السلطان الى الثقل فرحا مسرورا وأحضر بين يدية صاحب القلعة وكان رجلا كبيرا منهم وكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفسا فمن عليهم ورق لهم وأنفذهم الى صاحب انطاكية استمالة فانهم كانوا يتعلقون به ومن أهله .

* * *

ذكر فتوح دريساك

ثم رحل حتى أتى جسر الحديد واقام عليه أياما وسار حتى نزل على دريساك يوم الجمعة ثامن عشر رجب وهى قلعة منيعة قريبة من انطاكية فنزل عليها وقاتلها قتالا شديدا بالمنجنيقات وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة ووقف

فى الثغرة رجال يحمونها ممن يصعد فيها ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه وهم قيام فى عرض الجدار مكشفون فاشتد بهم الامر حتى طلبوا الأمان واشترطوا مراجعة انطاكية وكانت القاعده ان ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير ورقى عليها العلم الاسلامى فى الثانى والعشرين من رجب وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر وسارعنها فى الثالث والعشرين منه .

* * *

ذكر فتوح بغراس

وهى قلعة منيعة أقرب الى انطاكية من دريساك وكانت كثيرة العدة والرجال فنزل العسكر فى مرج لها واحدق العسكر بها جريدة مع أنا احتجنا إلى يزك فى تلك المنزلة يحفظ جانب انطاكية لئلا يخرج منها من يهاجم العسكر فضرب يزك الاسلام على باب انطاكية بحيث لا يشذعنه من يخرج منها وانا ممن كان فى اليزك فى بعض الأيام لرؤية البلد زيارة حبيب النجار المدفون فيها ولم يزل يقاتل بغراس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الامان على استئذان انطاكيه ورقى العلم الاسلامى عليها فى ثانى شعبان وفى بقية ذلك اليوم عاد رحمه الله إلى المخيم الأكبر وراسله أهل انطاكية فى طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار فى طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين انطاكية من بلاد الافرنج لا غير على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم وكان إلى سبعة أشهر فان جاءهم من ينصرهم والا سلموا البلد إلى السلطان ورحل يطلب دمشق فسأله ولده الملك الظاهر أن يجتاز به فأجابه وسار حتى أتى حلب حادى عشر شعبان وأقام بقلعتها ثلاثة أيام وولده يقوم بالضيافة حق القيام ولم يبق من العسكر إلا من ناله من نعمته منال واكثر ظنى أنه أشفق عليه والده وسار من حلب يريد دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين واصعده

إلى قلعة حماه واصطنع له طعاما حسنا وأحضر له سماع الصوفية وبات فيها ليلة واحدة وأعطاه جبلة واللاذقية وسار على طريق بعلبك حتى أتاهم وأقام بمرجها يوما ودخل الى حمامها وسار منها حتى دخل رمضان وما كان يرى تخلية وقته عن الجهاد مهما امكنه وكان قد بقى له القلاع القريبة من حوران التى يخاف عليها من جانبها كصفد وكوكب فرأى ان يشغل الوقت بفتح المكانين فى الصوم .

* * *

ذكر فتح صفد

ثم سار فى أوائل رمضان من دمشق يريد صفد ولم يلتفت الى مفارقة الاهل والالولاد والوطن فى هذا الشهر الذى يسافر النسان أين كان فيجتمع فيه بأهله . اللهم انه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك فآته أجراً عظيما . فسار حتى أتى صفد وهى قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها فاحدق العسكر بها ونصب عليه المناجيق فى اثناء شهر رمضان المبارك وكانت الامطار شديدة والوحول عظيمة ولم يمنعه ذلك عن جده . ولقد كنت عنده فى خدمته ليلة وقد عين مواضع خمس مناجيق فقال ما ننام حتى تنصب الخمسة وسلم كل منجيق إلى قوم ورسله تتواتر اليهم يعرفونهم كيف يصنعون حتى أظله الصبح وقد فرغت المنجنيقات ولم يبق الا تركيب خنازيرها فيها فرويت له الحديث المشهور فى الصحاح وبشرته بمقتضاه وهو قوله ﷺ « **عينان لا تمسهما النار عين باتت تحرس فى سبيل الله وعين بكت من خشية الله** » . وفى أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها وخلصوه بها من الاسر وكان قد أسر فى وقعة حطين المباركة ثم لم يزل القتال على صفد متواصلا بالبون مع الصوم حتى سلمت بالأمان فى رابع عشر شوال .

ذكر فتوح كوكب

ثم سار يريد كوكب فنزل إلى الجبل وجرد العسكر وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعا يتجاوز نشاب العدو ونباله حائطا من حجر وطين يستر وراءه حتى لا يقدر احد يقف على باب خيمة إلا أن كان ملبساً وكانت الأمطار متواترة والوحول عظيمة وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الامطار وكون العدو مسلطا عليهم بعلو مكانه وقتل وجرح جماعة ولم يزل راكباً مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها . ولما أحس العدو المخذول أنه مأخوذ طلب الأمان فاجابهم الى ذلك وأمنهم وتسلمها فى منتصف ذى القعدة ونزل على الفور إلى الثقل وكان قد انزله من شدة الوحل والريح فى سطح الجبل فاقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل فى أشغال شخصية حتى هل هلال ذى الحجة وأعطى الجماعة دستورا وسارا مع اخية يريد القدس لزيارته ووداع اخية فانه عائدا الى مصر فوصلا إليه يوم الجمعة ثامن ذى الحجة وصلينا الجمعة فى قبة الصخرة الشريفة وصلينا صلة العيد الأعظم بها أيضا يوم الأحد وسار حادى عشر طالباً عسقلان لينظر فى حالها فاقام بها أياما يلم شعبها ويصلح احوالها فودع اخاه وأعطاه الكرك وأخذ منه عسقلان وعاد يطلب عكا على طريق الساحل ويمر على البلاد يفتقد أحوالها ويودعها الرجال والعدد حتى أتى عكا فاقام بها معظم محرّم سنة خمسة وثمانين ورتب بها بهاء الدين قراقوش واليا وأمره بعمارة السور والطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق مستهل صفر سنة خمس وثمانين .

ذكر توجهه الي شقيف أرتون وهي السفرة المتصلة بواقعة عكا

وأقام بدمشق حتى دخل فى ربيع الأول ثلاثة أيام ووصله فى أثناء ربيع الأول رسل الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالخطبة لولده ولى العهد فخطب له وجدد عزمه على قصد شقيق أرنون وهو موضع حصين قريب من بانياس وكان تبريزه في الثالث فسار حتى نزل مرج برغوث وأقام به ينتظر العساكر الى حادى عشرة ورحل حتى أتى بانياس ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون في السابع عشر فخيم به وهو قريب من ثقيف أرنون بحيث يركب كل يوم بشارفه والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب فاقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامية فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقا الى سلامته فنزل بنفسه وما أحسسنا به الا وهو قائم على باب خيمة السلطان فاذن له فدخل فاحترمه واكرمه وكان من كبار الافرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ وبلغنى انه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وكان عنده ثاني فحضر بين يدى السلطان وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر له انه مملوكه وانه تحت طاعته وانه يسلم المكان اليه من غير تعب واشترط ان يعطى موضعا يسكنه بدمشق فانه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الافرنج واقطاعا بدمشق يقوم به وباهله وان يمكن من الاقامة بموضعه وهو يتردد الى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذى كان فيه حتى يتمكن من تخليص اهله وجماعته من صور فاجيب الى ذلك كله واقام يتردد الى خدمة السلطان فى كل وقت ويناظره فى دينه ونناظره فى بطلانه وكان حسن المحاورة ومتأدبا فى كلامه وفى أثناء ربيع الاول وصل الخبر بتسليم الشوبك وكان قد أقام السلطان عليه جمعا عظيما يحاصرونه مدة سنة حتى فرغ زادهم وسلموه بالأمان .

ذكر اجتماع الافرنج تقصد عكا

وكان السلطان اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان انه ان أمر الملك بتسليمها اطلقه فامرهم بتسليمها وسلموها فطالبه الملك باطلاقه فاطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد من انطرسوس واشترط عليه ان لا يشهر فى وجهه سيفا أبدا ويكون غلامه ومملوكه وطليقه ابداً فنكث لعنه الله فجمع جموعا وأتى صور يطلب الدخول اليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذى كان بها فى ذلك الوقت وكان المركيس اللعين رجلا عظيما اذا رأى وبأس شديد فى دينه وصرامة عظيمة فقال انى نائب للملوك الذين وراء البحر وما أذنوا لى فى تسليمها اليك وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على ان ينفقوا جميعا على المسلمين وعسكروا على باب صور .

* * *

ذكر الواقعة التي استشهد فيها أيبك الاخرش

وذلك انه لما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الاول من السنة المذكورة بلغ السلطان من اليرك ان الافرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وبقيت الأرض التى نحن عليها فركب السلطان وصاح الجاووش فركب العسكر يريدون نحو اليزك فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة وذلك ان الافرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض لهم اليزك الاسلامى وكانوا فى قوة وعدة فقاتلوهم قتالا شديدا وقتلوا منهم خلقا كثيرا وجرحوا اضعاف ما قتلوا ورموا فى النهر جماعة فغرقوا ونصر الله الاسلام وأهله ولم يقتل من المسلمين الا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرش فانه استشهد فى ذلك اليوم وكان شجاعا باسلا مجرباً فى الحرب فارسا تقنطر به فرسه فلجأ الى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فنى ثم بالسيف حتى قتل جماعة ثم تكاثروا عليه فقتلوه ووجد السلطان عليه لمكان شجاعته وعاد

السلطان الى خيم كانت قد ضربت له قريب المكان جريدة .

* * *

ذكر وقعة ثانية استشهد فيها جمع من رجاله المسلمين

واقام فى تلك الخيم الى التاسع عشر وركب يشرف على القوم على عادة فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة وحرص فى ردهم فليس يفعلوا ولقد أمر من ضربهم فلم يفعلوا وخاف عليهم فان المكان كان حرجا ليس للراجل فيه ملجأ ثم هجم الرجالة الى الجسر وناوشوا العدو وعبر منهم جماعة اليهم وجرى بينهم قتال شديد واجتمع بهم من الافرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون وكشفوهم بحيث علموا ان ليس وراءهم كمين فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان فانه كان بعيدا عنهم ولم يكن معه عسكر فانه لم يخرج بتبيعة قتال وانما ركب مستشرفا عليهم على العادة من كل يوم ولما بان له الوقعة وظهر له غبارها بعث اليهم من كان معه ليردوهم فوجدوا الامر قد فرط والافرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السرية التى بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفرة عظيمة وجرى بينهم وبين السرية قتال شديد وأمر جماعة من الرجالة وقتلوا جماعة وكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفرا وقتل أيضا من الافرنج عدة عظيمة وغرق أيضا منهم عدة وكان ممن قتل منهم مقدم الالمانية وكان عندهم عظيما محترما واستشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصاروا وكان شابا حسنا شجاعا واحتسبه والده فى سبيل الله ولم تقصر من عينيه عليه دمعة على ما ذكر جماعة لازموه وهذه الوقعة لم يتفق للافرنج مثلها فى هذه الوقائع التى حضرتها وشاهدتها ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه العدة فى هذة المدة .

* * *

ذكر مسير جريدة الي عكا وسبب ذلك

ولما رأى السلطان ما حل بالمسلمين فى تلك الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقدر معهم أنه يهجم على الافرنج ويعبر الجسر ويقتلهم ويستأصل شأفتهم وكان الافرنج قد رحلوا من صور ونزلوا قريب الجسر وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ فلما صمم العزم على ذلك أصبح يوم الخميس سابع عشر وركب وسار وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ولما وصل أواخر الناس الى أوائلهم وجدوا اليزك عائداً وخيامهم قد قامت فسئلوا عن سبب ذلك فذكروا ان الافرنج رحلوا راجعين الى صور ملتجئين الى سورها معتصمين بقربها وأنهم لما بلغهم ذلك عادوا ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير الى عكا ورتب أحوالها وأمر بتتمة عمارة سورها واتقانه وإحكامه وأمرهم بالاحتياط والاحتراز وعاد الى العسكر المنصور الى مرج عيون منتظرا مهلة صاحب الشقيف لعنه الله .

* * *

ذكر وقعة اخري

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه ان جماعة من رجالة العدو يسطون ويصلون الى جبل تبنين يحتبطون وفى قلبه من رجالة المسلمين وما جرى عليهم أمر عظيم فرأى أن يقرر قاعدة وكمينا يرتبه لهم ويأخذهم فيه وبلغه انه يخرج وراءهم أيضا خيلا تحفظهم فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع ثم أنفذ الى عسكر تبنين وتقدم اليهم ان يخرجوا فى نفر يسير غائرين على تلك الرجالة وان خيل العدو اذا تبعتهم ينهزمون الى جهة عينها لهم وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة وأرسل الى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى اذا تحركوا فى نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم وركب هو وحفله سحر يوم الاثنين شاكى

السلاح متجردين ليس معهم خيمة الى الجهة التى عينها لهزيمة عسكر تبنين ورتب العسكر ثمانية أطلاب واستخرج من كل طلب عشرين فارسا من الشجعان الجياد الخيل وأمرهم أن يتراأوا للعدو حتى يظهر واليهم ويناوشوهم فينهزموا بين ايديهم حتى يصلوا الى الكمين ففعلوا ذلك وظهر لهم من الافرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك وكان قد بلغهم الخبر وتعبوا تعبية القتال وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد والتزمت السرية القتال وأنفوا عن الانهزام بين أيديهم وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان ولقائهم العدو الكثير بذلك الجمع اليسير واتصل الحرب بينهم الى أواخر نهار الاثنين ولم يرجع منهم أحد الى العسكر ليخبرهم بما جرى واتصل الخبر بالسلطان فى أواخر الامر وقد هجم الليل فبعث اليهم بعوثا كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف وفوات الامر ولما بصر الافرنج بأوائل المدد قد لحق السرية عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم بعد ان جرت مقتلة عظيمة من الجانبين وكانت القتلى من الافرنج على ما ذكر من حضر فانى لم اكن حاضرها زهاء عشرة أنفس ومن المسلمين ستة أنفار اثنان من اليزك وأربعة من العرب منهم الامير رامل وكان شابا تاما حسن الشباب مقدم عشيرته . وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضا واسر هو وثلاثة من أهله . ولما بصر الافرنج بالمدد للعسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة . ومن نوادر هذه الواقعة ان مملوك السلطان أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشحب دما وبات ليلته اجمع على تلك الحالة الى صبيحة يوم الثلاثاء ففقده اصحابه فلم يجدوه فعرفوا السلطان فقده فانفذ من يكشف خبره فوجدوه بين القتلى على مثال هذه الحالة فحملوه ونقلوه الى المخيم على تلك الحال وعافاه الله وعاد السلطان الى المخيم يوم الاربعاء عاشر الشهر منصوراً . فرحا مسروراً .

ذكر أخذ أصحاب الشقيف وسبب ذلك

ثم استفاض بين الناس ان صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا انه صادق فى ذلك وانما قصد فيه تدفع الزمن وظهر لذلك مخائل كثيرة من الحرص فى تحصيل الميرة واتقان الابواب وغير ذلك فرأى السلطان أن يصعد الى سطح الجبل ليقرب من المكان ويرسل سرا من يمنع من دخول النجدة والميرة إليه واظهر ان سبب ذلك شدة حَر الزمان والفرار من وخم المرج . وكان انتقاله الى سطح الجبل ليلة الثانى عشر من الشهر وقد مضى من الليل ربعه فما اصبح صاحب الشقيف قرب العسكر منه وعلم انه بقى من المدة بقية جمادى الآخر حدثته نفسه أنه يزل الى خدمة السلطان ويستطعفه ويستزيده فى المدة وتخيل له بما رأى من أخلاق السلطان ولطاقته ان ذلك يتم فنزل الى الخدمة وعرض المكان وقال المدة لم يبق منها الا اليسير وأى فرق بين التسليم اليوم أو غداً وأظهر أنه بقى من أهله جماعة بصور وانهم على الخروج منها فى هذه الايام وأقام فى الخدمة ذلك اليوم الى الليل وصعد القلعة ولم يظهر له السلطان شيئاً وأجره على عادته وتقضى مدته ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدة والفراغ منها وطلب الخلوة بالسلطان وسأل منه أن يمهله تمام السنة تسعه أشهر فاحس السلطان منه الغدر فماطله وما أيسه وقال نتفكر فى ذلك ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم وما ينفصل الحال عليه نعرفك وضرب له خيمة قريبة من خيمته وأقام عليه حرسا لا يشعر بهم وهو على غاية من الإكرام والإحترام له والمراجعة والمراسلة بينهم فى ذلك الفن مستمرة حتى انقضت الأيام وطولب بتسليم المكان فكشف له أنك أضمرت الغدر وجددت فى المكان عمائر . وحملت إليه ذخائر فانكر ذلك راستقرت القاعدة على أن ينفذ من عنده ثقته وينفذ السلطان ثقة يتسلم المكان وينظر هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا فمضوا اليه فلم يلتفت أصحابة المقيمون فيه اليهم ووجدوه قد جدد بابا للسور لم

يكن فاقيم الحرس الشديد عليه واظهر ذلك ومنع من الدخول إلى الخدمة وقيل له قد انقضت المدة ولا بد من التسليم وهو يغالط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه . ولما كان الثامن عشر من جمادى الآخرة وفيه اعترف بانتهاء المدة قال أنا امضى واسلم المكان وسار معه جمع كثير من الأمراء والأجناد حتى أتى الشقيف وامرهم بالتسليم فأبوا فخرج اليه قسيس وحدثه بلسانهم ثم عاد واشتد امتناعهم بعد عود القسيس اليهم فظن انه اكد الوصية على القسيس فى الامتناع وأقام ذلك اليوم والحديث يتردد فلم يتلفتوا واعيد الى المخيم المنصور وسير من ليلته الى بانياس واحيط عليه بقلعتها فاحدق العسكر بالشقيف مقتالين ومحاصرين وأقام صاحب القشيف بسبب تضيع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ولم يعلموا فيها شيئا فاحضر الى المخيم وهدد ليلة وصوله بأمور عظيمة فلم يفعل وأصبح السلطان ثامن من رجب ورقى الى سنام الجبل مخيمة وهو موضع مشرف على الشقيف من المكان الذى كان فيه أولى وأبعد من الوخم وكان قد تغير مزاحه . ثم بلغنا بعد ذلك ان الافرنج بصور مع الملك قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا وان بعضهم نزل بالأسكندرونة وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفرا يسيراً وأقاموا هناك .

* * *

ذكر وقعة عكا

وذلك أنه لما بلغ السلطان حركة الافرنج الى تلك الجهة عظم عليه ولم ير المسارعة خوفا من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشقيف لا قصد المكان فاقام مستكشفا للحال إلى ثانى عشرر رجب فوصل قاصداً آخر أن الافرنج فى بقية ذلك اليوم رحلو ونزلوا عين بصة ووصل أوائلهم الى الزيت فعظم ذلك عنده وكتبت الى سائر أرباب الأطراف يتقدمون بالعساكر الاسلامية بالمسير الى المخيم المحروس وعاد فجدد الكتب والحث وتقدم إلى الثقل أن سار

الليل وأصبح هو صبيحة الثالث عشر سائراً الى عكا على طريق تبنين يستطلعون العدو ويواصلون باخباره وسرنا حتى أتى موضعا يقال له المنية صباح اليوم الرابع عشر وفيه بلغنا نزول الافرنج على عكا يوم الاثنين الثالث عشر وسير صاحب الشقيف الى دمشق بعد الاهانة الشديدة على سوء صنيعه وسار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذى كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ولم يزل يبعث اليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير وعدد وافر ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً وسار من الخروبة وكان قد نزل عليها خامس عشر الشهر فسار منها حتى أتى تل كيسان فى أوائل مرج عكا وأمر الناس أن ينزلوا به على تلك التعبية وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو وآخر الميمنة مقارب تل العياضيه فاحتاط العسكر الاسلامى المنصور بالعدو المخذول وأخذ عليهم الطرف من الجوانب وتلاحقت العساكر الاسلامية واجتمعت ورتب البزك الدائم والجالبش فى كل يوم مع العدو وحصر العدو فى خيامة من كل جانب بحيث لا يقدر ان يخرج منها واحد الا ويجرح او يقتل وكان معسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصليين قريباً من باب البلد وكان عدد راكبهم ألفى فارس وعدد راجلهم ثلاثين الفا وما رأيت من أنقصهم عن ذلك ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ومددهم من البحر لا ينقطع وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة والمسلمون يتهافتون على قتالهم والسلطان يمنعهم من ذلك الى وقته والبعوث من العساكر الاسلامية تتواصل والملوك والامراء من الاقطار تتابع فأول من وصل الامير الكبير مظفر الدين بن زين الدين . ثم قدم بعده الملك المظفر صاحب حماه وفى أثناء هذا الحال توفى حسام الدين سنقر الاخلاطى وأسف المسلمون عليه اسفاً شديدا فانه كان شجاعا ديناً . ثم ان

الافرنج لما تكاثروا واستفحل أمرهم استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج وذلك فى يوم الخميس سلخ رجب . ولما رأى السلطان ذلك عظم لديه وضاق صدره وثارت همته العلية وفتح الطريق الى عكا لتستمر السابلة اليها بالميرة والنجدة وغير ذلك فأحضر أمراءه وأصحاب الرأى من دولته وشاورهم فى مضايقة القوم وانفصل لحمال على انه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفصل أمرهم بالكلية ويفتح وباب والطريق الى عكا فباكرهم صبيحة الجمعة مستهل شعبان وسار مع العسكر القد رتبه ميمنة وميسرة وقلبا وضايقهم مضايقة شديدة وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناما لدعاء الخطباء على المنابر وجرت حملات عظيمة وقلبات كثيرة واتصل الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكى السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الطائفة الأخرى .

* * *

ذكر فتح الطريق الي عكا

ولما كانت صبيحة السبت أصبح الناس على القتال وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالى عكا ولم يكن هناك للعدو خيم لكن العسكر كان قد امتد جريدة الى البحر فحملوا عليهم فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كثيراً وانكف السالمون منهم الى خيامهم وهجم المسلمون خلقهم الى أوائل خيامهم وانفتح الطريق الى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذى جدده وصار الطريق مهيأ يمر فيه السوقى ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة واليزك بين الطريق وبين العدو مانعا من يخرج من عسكرهم أو يدخل ودخل السلطان واستدار العسكر الإسلامى حول العسكر الافرنجى وأحد قوابهم من كل جانب . ولما استقر به ذلك تراجع الناس عن القتال وذلك بعد الظهر لسقى لدواب وأخذ الراحة وكان نزولهم على أنهم إذا أخذوا حظا من الراحة

عادوا إلى القتال لمناجزة القوم وضاق الوقت وأخذ الضجر والتعب من الناس فلم يرجعوا إلى القتال فى ذلك اليوم وبات الناس على أنهم يصبحونهم بكرة الأحد إلى القتال رجاء المناجزة بالكلية واختفى العدو فى خيامهم بحيث لم يظهر منهم أحد . ولما كانت بكرة الأحد ثالث شعبان تعبى الناس للقتال وأحدقوا بالعدو وعزموا على مهاجمة القوم وعلى ان يترجل الامراء ومعظم العسكر ويقاتلوا العدو فى خيامة فلما تهيأ ولذلك رأى بعض الأمراء تأخير ذلك إلى بكرة الأثنين رابع شعبان وأن يدخل الراجل كله الى داخل عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدو ومن ورائه وتركب العساكر الإسلامية من خارج من سائر الجوانب ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان يوالى هذه الأمور بنفسه ويكافحها بذاته لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شدة حرصة ووفور همته كالوالدة الثكلى . ولقد أخبرنى بعض أطبائه انه بقى من يوم الجمعة الى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء وحمى نفسه فى خيامه ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس * وتمطر سماء حربها الرؤس من كل رئيس ومترائس حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان .

* * *

ذكر تأخر الناس الي تل العياضية

ولما كان الثامن عزم العدو على الخروج بجموعهم فخرج راجلهم وفارسهم وامتدوا على التلول وساروا الهوينا [1] غير مفرطين فى أنفسهم ولا خارجين من راجلهم حيث كانت الرجالة حولهم كالسور المبنى يتلو بعضهم بعضا حتى قاربوا خيام اليزك ولما رأى المسلمون ذلك واقدام العدو عليهم شدو وتنازعت الشجعان * وتنازلت الكماة إلى الأقران * وصاح السلطان بالعساكر الإسلامية يا للإسلام فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم راجلهم وشابهم شيخهم وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو

١- ساروا الهوينا : أى ببطئ وعلى رسلهم

المخذول فعاد ناكصاً على عقبيه والسيف يعمل فيهم والسالم منهم جريح . والعاطب طريح مشتدون هزيمة يعبر جريحهم بقتيلهم ولا تلوى الجماعة منهم على قتيلهم حتى لحق الخيام من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياما وكان رأيهم أن يحفظوا نفوسهم * ويحرسوا رؤسهم * واستقر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون اليها وكنت ممن دخل ورقى على السور ورمى العدو بما يسر الله تعالى من فوق السور دام القتال بين الفئتين متصلا الليل والنهار حتى كان الحادى عشر من شعبان ورأى السلطان توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون الى مصارعهم فنقل الثقل الى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصليين مشرف على عكا وخيام العدو * وفى هذه المنزلة توفى حسام الدين ظمان وكان من الشجعان ودفن فى سفح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان وقد مضى من الليل هزيع [1] رحمه الله.

ذكر وقعة جرت للعرب مع العدو

وكان سبب ذلك انه بلغنا أن جمعا من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فاكمن السلطان لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم وأمنه عليهم فخرجوا ولم يشعروا بهم فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيما وأسروا جماعة وأحضروا رؤساء عديدة بين يديه فخلع عليهم وأحسن اليهم وكان ذلك فى السادس عشر * وفى عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيم قتل فيه جمع عظيم من الطائفتين فطال الأمر بين الفئتين وما بخلوا يوما من قتل وجرح وسبى ونهب وأنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانا يتحدثان ويتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة * وكان الرجال يوما من الطائفتين قد سئموا من القتال فقالوا إلى كم تقاتل الكبار وليس للصغار حظ نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الافرنج واشتد

(١) الهزيع من الليل : نحو الثلث أو الربع الأول منه (ج) هزّعٌ .

الحرب بينهم فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الكافرين فاختطفه وضرب به الارض وقبضه أسيراً فاشتراه بعض الافرنج بدينارين وقالوا هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه وهذه نادرة غريبة ووصل للفرنج مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع فى البحر ومازال يسبح وهم حوله يردونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون .

* * *

ذكر المصاف الأعظم علي عكا

وذلك أنه لما كان يوم الاربعاء الحادى والعشرون تحركت عساكر الافرنج حركة لم تكن لهم بمثلها عادة فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم فاصطفوا خارج خيمهم قلبا وميمنة وميسرة وفى القلب الملك وبين يديه الانجيل محمولا مستوراً [1] بثوب أطلس مغطى يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف وهم يسيرون بين يدى الملك وامتدت الميمنة فى مقابلة الميسرة التى لعسكر الاسلام من أولها إلى آخرها وكذلك ميسرة العدو فى مقابلة ميمنتنا إلى آخرها وملكوا رؤس التلال وكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر . وأما العسكر الاسلامى المنصور فإن السلطان أمر الجاويش أن نادى فى الناس ياللاسلام وعساكر الموحدين [2] فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة [3] ووقفوا بين أيدى خيامهم وامتدت الميمنة الى البحر والميسرة الى النهر كذلك أيضاً وكان رحمه الله قد أنزل الناس فى الخيم ميمنة وميسرة وقلبا تعبية الحرب حتى اذا وقعت صيحة لايحتاجون الى تجديد ترتيب وكان هو فى القلب وفى ميمنة القلب ولده الملك الافضل ثم

---

(١) مستوراً : أى مغطى .

(٢) ياللاسلام وعساكر الموحدين : اسلوب استغاثه وهو أحد صور اساليب النداء .

(٣) قال تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ .

عسكر المواصلة يقدمهم ظهر الدين ابن البلنكرى ثم عسكر ديار بكر فى خدمة قطب الدين ابن نور الدين صاحب الحصن ثم حسام الدين بن لاجين صاحب نابلس ثم الطواشى قايماز النجمى وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة وكان فى طرفها الملك المظفر تقى الدين بجحفله [١] وعسكره وهو مطل على البحر * وأما أوائل الميسرة فكان مما يلى القلب سيف الدين على المشطوب وعلى بن أحمد من كبار ملوك الاكراد ومقدميهم والامير على وجماعة المهرانية والهكارية ومجاهدة الدين يرتقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره وأواخر الميسرة كبار المماليك الاسدية كسيف الدين يازكج ورسلان بغا وجماعة الاسدية الذين يضرب بهم المثل ومقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه * هذا والسلطان يطوف على الاطلاب بنفسه يحثهم على القتال * ويدعوهم الى النزال * ويرغبهم فى نصر دين الله ولم يزل القوم يتقدمون * والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى فيه مقدار أربع ساعات وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين فأخرج لهم الملك المظفر الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر وكان فى طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً اطماعاً لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً فلما رأى السلطان ذلك ظن به ضعفاً وأمده بأطلاب عدة من القلب حتى قوى جانبه وتراجعت ميسرة العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين فى مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه الاطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة وهم يسبقون حينا وجاءت الحملة على الديار البكرية كما شاء الله تعالى وكان بهم غرة على الحرب فتحركوا بين العدو وانكسروا كسرة عظيمة وسرى الامر حتى

---

(١) بجحفله : أى بجيشه وقواته . والجحفل الجيش الكبير صاحب العدة والعتاد .

انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية فانهم استداروا حول التل وصعد طائفة من العدو إلى خيمة السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك * وفى ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس وابن رواحة رحمهما الله * وأما الميسرة فانها ثبتت لان الحملة لم تصادفها وأما السلطان فاخذ يطوف على الاطلاب فينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد وينادى فيهم ياللاسلام ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف على الاطلاب ويخرق الصفوف ويأوى إلى تحت التل الذى كان عليه الخيام * وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الفخوانة قاطع جسر طبرية وأمّ [1] منهم قوم محروسة دمشق فاما المتبعون لهم فانهم اتبعوهم إلى العياضية فلم رأوهم قد صعدوا إلى الجبل رجعوا عنهم وجاؤا عائدين إلى عسكرهم فلقيهم جماعة من الغلمان والخزيندية والساسة منهزمين على بغال الحمل فقتلوا منهم جماعة ثم جاؤا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة فإن السوق كان عظيما ولهم سلاح * وأما الذين صعدوا الى الخيام السلطانية فانهم لم يلتمسوا فيها شيئاً ثابتة فعلوا إن الكسرة لا تتم فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم * واما السلطان فان كان واقفا تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعود الى المحلة على العدو فلما رأو الافرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم فصلح فى الناس فحملوا عليهم فطرحوا منهم جماعة فاشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم والطرد وراءهم فلما رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم فى عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل وأنهم انما نجا منهم هذا النفر فقط وان الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا فى الهرب والهزيمة وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال وتداعت

---

(١) أمّ : أى قصد .

وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الايمان وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السائرون إلى عسكرهم فهجم عليهم في الخيام فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الأمر مستريحة فردوا المسلمين وكان التعب قد أخذ من الناس والعرق قد ألجمهم [1] فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم الى خيامهم فرحين مسرورين وعاد السلطان في ذلك اليوم الى خيمته فرحا مسروراً وجلسوا في خيمته يتداركون من فقد من الغلمان وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائه وخمسين نفراً ومن المعروفين استشهد ظهر الدين أخو الفقيه عيسى ولقد رأيته وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول هذا يوم الهناء لايوم العزاء [2] وكان هو قد وقع عن فرسه واركبه فرأيته وقتل عليه جماعة من أقاربه وقتل في ذلك اليوم الامير مجلىء هذا الذى قتل من المسلمين وأما من العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر ورأيتهم وقد حملوها إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف * ولما تم على المسلمين من الهزيمة ماتم ورأى الغلمان خلو الخيام عمن يعترض عليهم فان العسكر انقسم إلى قسمين منهزمين ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد وراءنا فظنوا أن الكسرة تتم وأن العدو ينهب جميع مافى الخيام فوضعوا أيديهم في الخيام ونهبوا جميع ماكان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعم من الكسرة . ولما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ماقد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع الى الكتب والرسل في رد المنهزمين وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيتق وأخذوهم

---

(١) كثر عليهم إكثاراً شديداً

(٢) وذلك لما ناله أخوه من ثواب وجزاء وشهادة فالمؤمن يقاتل وفي عقيدته الفوزباحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة .

بالكره إلى عسكر المسلمين فعادوا وأمر بجمع الاقمشة من أكف الغلمان إلى خيمته حتى جلالات الخيل والمخالى بين يديه فى خيمته وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم الى كل من عرف شيئاً وحلف عليه يسلم إليه وهو يلقى هذه الأحوال بقلب صلب . وصدر رحب . ووجه منبسط ورأى مستقيم غير مختبط . واحتساب لله تعالى وقوة عزم فى نصرة دين الله * وأما العدو المخذول فانه عاد إلى خيمه وقد قتل شجعانهم وطرحت مقدموهم وفقدت ملوكهم فأمر السلطان ان خرج من عكا عجل يسحبون عليه القتلى منهم الى طرف النهر ليلقوا فيه * ولقد حكى لى بعض من ولى أمر العجل أنه أخذ خيطا وكان كلما أخذ قتيلا عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسور وبقى قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدهم فإنه ولى أمرهم غيره وبقى من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا فى مخيمهم لم يكترثوا [1] بجحافل المسلمين وعساكرهم وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة فانه مارجع منها الا رجل معروف يخاف على نفسه والباقون هربوا فى حال سبيلهم وأخذ السلطان فى جمع الأموال المنهوبة واعادتها إلى أصحابها وأقام المناداة فى العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه واجتمع من الاقمشة عدد كثير فى خدمته حتى ان الجالس فى أحد الطرفين لا يرى الجالس فى الطرف الآخر وأقام من ينادى على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وسار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف وأخذه من الحبل والمخلاة إلى الهميان والجوهر [2] ولقى من ذلك مشقة عظيمة ولا يرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها . ويسابق بيد القبول اليها . ولقد حضرت يوم تفرقت الاقمشة على أربابها فرأيت سوقا للعدل قائمة لم ير فى الدنيا أعظم منها وكان ذلك فى

---

(١) لم يكترثوا بجحافل المسلمين : أى لم يبالوا بجيوشهم ولم يهتموا بها .

(٢) أى من أحقر شيء الى أثمن شيء .

يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثائرتها أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخروبة خشية على عساكره من روائح القتلى وآثار الوخم من الوقعة وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذى كان نازلا فيه بقليل وضربت له خيمة عند الثقل وأمر اليزك أن يكون مقيما فى المكان الذى كان نازلا فيه وذلك فى التاسع والعشرين واستحضر الامراء وأرباب المشورة فى سلخ الشهر [1] ثم أمرهم بالاصغاء الى كلامه وكنت من جملة الحاضرين ثم قال **بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله . اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل فى بلدنا وقد وطء أرض الاسلام . وقد لاحت لوائح النصر عليه وان شاء الله تعالى وقد بقى فى هذا الجمع اليسير ولابد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل وهذا العدو ان بقى وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم فلينجزنا كل منكم ما عنده فى ذلك** * وكان ذلك فى ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية وامتخضت [2] الآراء وجرى فى أطراف الكلام وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة وأن يبقى العسكر أياما حتى يستجم من حمل السلاح وترجع النفوس إليهم فقد أخذ التعب منهم واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمرا على خلاف ماتحمله القوى لا تؤمن غائلته والناس لهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل والخيل قد ضجرت من عرك اللجم وسئمت نفوسها ذلك . وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل ويشاركنا فى الرأى والعمل وسنعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة

---

(٢) سلخ الشهر : أى نهايته .

(٣) امتحضت الآراء : أى قلبوها وتدبروا عواقبها حتى ظهر وجهتها .

ليقفوا في مقابلة الرجالة وكان بالسلطان التياث مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وما عاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام فوقع ماقالوه ورأوه مصلحة . وكان انتقال العسكر إلى الثقل ثالث رمضان وانتقال السلطان تلك الليلة وأقام يصلح مزاجه ويجمع العساكر وينتظر أخاه إلى عاشر رمضان .

* * *

ذكر وصول خبر الألمان

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة وصل من جانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر عز نصره يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الألمان قد خرج الى إلقسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا ألف وقيل مائتان وستون ألفا يريد البلاد الاسلامية فاشتد ذلك على السلطان وعظم عليه ورأى استشيار[1] الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة فاستدعاني لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب إربل واستدعاهم إلى الجهاد بانفسهم وعساكرهم وأمرني بالمسير إلى بغداد لاعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة وكان الخليفة اذ ذاك الناصر لدين الله أبا العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله وكان مسيري في ذلك المعنى في حادى عشر رمضان ويسر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وابلاغ الرسالة إليهم فأجابوا بنفوسهم وسار عماد الدين بن زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة وسار ابن أخيه صاحب الجزيرة سنجر شاه بنفسه يجر عسكره وسير صاحب الموصل ابنه علاء الدين خرم شاه بمعظم عسكره وحضرت الديوان السعيد

---

(١) استشيار الناس : أن مشاورتهم في الأمر ولعل ذلك من الصفات الحميدة في السلطان فقد ورد في الحديث (ما خاب من استشار) وقال تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ .

ببغداد وأنهيت الحال كمارسم ووعد بكل جميل ، عدت إلى خدمته رحمة الله عليه وكان وصولى إليه فى يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين وكنت قد سبقت العساكر وأخبرته باجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير فسر بذلك وفرح فرحا شديدا .

* * *

ذكر وقعة الرمل التي علي جانب نهر عكا

ولما كان صفر من تلك السنة خرج السلطان يتصيد مطمئن النفس ببعد المنزلة عن العدو فأوغل فى الصيد وبلغ ذلك العدو فاخذوا غرة العسكر واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الاسلامى فأحس بهم الملك العادل فصاح بالناس وركبت العسكر من كل جانب وحمل على القوم وجرت مقتلة عظيمة قتل وجرح بينهما منهم خلق عظيم ولم يقتل من معروفى المسلمين الا مملوك للسلطان يقال له أرغش وكان رجلا صالحا استشهد فى ذلك اليوم وبلغ الخبر إلى السلطان فعاد منزعجا فوجد الحرب قد انفصل وعاد كل فريق إلى حزبه وعاد العدو خائبا خاسراً ولله الحمد والمنة . وما مضى من الوقعات شاهدت منها ما يشاهده مثلى وعرفت الباقى معرفة خاصة فى هذه الأمور * ومن نوادر هذه الوقعة أن مملوكا كان للسلطان يدعى قرة سنقر وكان شجاعا قد قتل من أعداء الله خلقا عظيما وفتك فيهم فاخذوا فى قلوبهم من نكابته فيهم وتجمعوا له وكمنوا له وخرج اليه بعضهم وترا أواله فحمل عليهم حتى صابينهم فوثبوا عليه من سائر جوانبه فأمسك واحد منهم بشعره وضرب الآخر رقبته بسيفه فإنه كان قتل له أقرباء فوقعت الضربة فى يد الممسك بشعره فقطعت يده وخلى سبيله فاشتد هاربا حتى عاد إلى أصحابه واعداء الله يشتدون عدوا خيفة لم يلحقه منهم أحد وعاد سالما ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً .

ذكر وفاة الفقيه عيسي

وهي مما بلغنى ولم أكن حاضرها وذلك أنه مرض مرضا يتعاهده وهو ضعيف النفس وعرض له إسهال [1] أضعفه فلم تقطع صلابته ولم يغب ذهنه عنه إلى أن مات وكان رحمه الله كريما شجاعا حسن المقصد كبير الغرام بقضاء حوائج المسلمين توفى رحمه الله طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذى القعدة من شهور سنة خمسة وثمانين .

* * *

ذكر تسليم الشقيف سنة ستة وثمانين

ولما كان يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول علم الافرنج المستحفظون بالشقيف أنهم لا عاصم لهم من أمر الله وأنهم إن أخذوا عنوة ضربت رقابهم فطلبوا الأمان وجرت مراجعات كثيرة فى قاعدة الأوان وكانوا قد علموا من حال صاحبهم أنه قد عذب أشد العذاب فاستقرت القاعدة على أن الشقيف يسلم ويطلق صاحبه وجميع من فيه من الافرنج ويترك مافيه من أنواع الأموال والذخائر وعاد صاحب صيدا والافرنج الذين كانوا بالشقيف إلى صور ولما رأى السلطان من اهتمام الافرنج من أقطار بلادهم بالمكان وتصويب عزائمهم نحوه اغتنم الشتاء وانقطاع البحر وجعل فى عكا من الميرة والذخائر والعدد والرجال مأمن معه عليها مع تقدير الله تعالى وتقدم إلى النواب بمصر أن عمروا [2] لها أسطولا عظيما يحمل خلقاً كثيراً وسار دخل عكا مكابرة للعدو ومراغمة [3] له واعطى العساكر دستورا طول الشتاء يستجمعون ويستريحون وأقام هو مع نفر يسير قبالة العدو وقد حال بين

---

(١) مرض يصيب البطن وهو نفض ما فى الامعاء من الأخلاط على غير المألوف فى الطبيعة .

(٢) عمروا : أى اصنعوا وجهزوا .

(٣) مراغمة له : أى كيداً وإغاظة له ومنها سميت سجدتى السهو المراغمتين لأنهما تغيظان الشيطان.

العسكرين شدة الوحول [1] وتعذر بذلك وصول بعضهم إلى بعض .

* * *

ظـريفـة

كان لما بلغ خبر العدو وقصده عكا جمع الامراء وأصحاب الرأى بمرج عيون وشاورهم فيما يصنع وكان رأيه أن قال المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول الى البلد وإلا فإن نزلوا جعلوا الرجالة سورا لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول اليهم وخيف على البلد منهم وكانت أشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا اجتمعت العسكر قلعناهم في يوم واحد وكان الأمر كما قال السلطان والله لقد سمعت هذا القول وشاهدت الفعل كما قال السلطان * وهو يوافق معنى قوله ﷺ إن من أمتي لمحدثين ومكلمين وان عمر لمنهم .

* * *

ذكر وصول رسول الخليفة

ولم يزل السلطان مجداً في الانفاذ إلى عكا بالميرة والعدد والأسلحة والرجال حتى انقضى الشتاء وانفتح البحر وحان زمان القتال كتب الى العسكر يستدعيها من الأطراف * ولما تواصل أوائل العساكر وقوى جيش الاسلام رحل السلطان نحو العدو ونزل على تل كيسان وذلك في ثامن عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين ورتب العسكر قلباً وميمنة وميسرة وأخذت العساكر في التواصل والنجدة في التواتر فوصل رسول الخليفة وهو شاب شريف ووصل منه حملان من النفط وجماعة من النفاطين والزراقين ووصل معه من الديوان العزيز النبوى مجده الله تعالى رقعة تتضمن الاذن للسلطان أن يقترض عشرين ألف دينار من التجار ينفقها في الجهاد ويحيل بها على الديوان العزيز فقبل جميع ماوصل مع الرسول واستغنى عن الرقعة

(١) الوحول : أى الطين الرقيق ترتطم فيه الناس والدواب (مفردها) وحل .

والتثقيل بها * وفى ذلك اليوم بلغ السلطان أن الافرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه فركب إليهم لشغلهم بالقتال عن البلد وقاتلهم قتالا شديداً إلى أن فصل بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق إلى أصحابه ورأى السلطان قوة العساكر الاسلامية وبعد المكان عن العدو فخاف أن لايهجم البلد ويتم عليه أمر فرأى الانتقال إلى تل العجول بالكلية فانتقل بالعسكر والثقل فى الخامس والعشرين وفى صبيحة هذا اليوم وصلت كتب أن قدطم [1] العدو بعض الخندق وقوى عزمه على منازلة البلد ومضايقته فجدد الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول وعبى العسكر تعبية القتال وزحف إلى العدو ليشغله عن ذلك * ولما كان سحر ليلة الجمعة السابع والعشرين وصل ولده الملك الظاهر غياث الدين غازى صاحب حلب جريدة إلى خدمته معالجة البر وترك عسكره فى المنزلة وخدم والده وبل شوقه منه وعاد إلى عسكره فى الثامن والعشرين وسار حتى وصل فى ذلك اليوم بجحفله وقد أظهروا الزينة ولبسوا لامة الحرب [2] وكثرت الاعلام والبيارق وضربت الكؤوسات ولعقت البوقات وعرض بين يدى والده وكان قد ركب إلى لقائه فى المرج وسار بهم حتى وقف بهم على العدو وشاهدوا من جند الله ما ازعجهم وأقلقهم * وفى أواخر ذلك اليوم قدم مظفر الدين بن زين الدين جريدة أيضاً مسارعة للخدمة ثم عاد الى عسكره فى لامة الحرب فعرضهم السلطان حتى وقف بهم على العدو * وكان ماتقدم عسكر إلا يعرضهم ويسيرهم إلى العدو وينزل بهم فى خيمته يمد لهم الطعام وينعم عليهم بما يطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب ثم تضرب خيامهم حيث يأمر وينزلون بها مكرمين .

لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر عز نصره

وذلك أن العدو كان قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد وألبسها

---

(١) طم العدو الخندق : أى ردموه بالتراب ونحوه .

(٢) لامة الحرب : أى ثيابها .

الجلود المسقاة بالخل على ماذكر بحيث لاتنفذ فيها النيران وكانت هذه الابراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على سور البلد وهى مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق وكان ذلك قد عمل فى قلوب المسلمين وأودعها من الخوف مالا يمكن شرحه وأيس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه وكان فرغ من عملها ولم يبق إلا جره' إلى قريب السور وكان السلطان قد عمل فكره فى إحراقها وإهلاكها وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين وحثهم على الاجتهاد فى احراقها ووعدهم عليه بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة وضاقت حيلهم عن ذلك وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقى ذكر بين يديه أن له صناعة فى إحراقها وأنه إن مكن من الدخول إلى عكا وحصلت له الأدوية التى يعرفها أحرقها فحصل له جميع ماطلبه ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع النفط فى قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار * ولما كان يوم وصول الملك الظاهر ضرب واحداً بقدر فلم يكن إلا إن وقعت فيه فاشتعل من ساعة وقته وصار كالجبل العظيم من النار طالعه ذؤابته [١] نحو السماء واستغاث المسلمون بالتهليل وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج ثانى بالقدر الثانية فما كان إلا أن وصلت إليه واشتعلت كالتى قبلها فاشتد ضجيج الفئتين وانعقدت الأصوات إلى السماء وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب وغشى [٢] الناس من الفرح والسرور وماحرك ذوى الاحلام والنهى [٣] منهم حركة الشباب الرعنا وركب السلطان وركبت العساكر ميمنة وميسرة وقلبا وكان أواخر النهاروسار

---

(١) ذؤابته : قمته واعلاه .

(٢) غشى : أى شمل وحوى .

(٣) النهى : أى العقول والذكاء مفردها نهية .

حتى أتى عسكر القوم وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله ﷺ﴿ **من فتح له باب من الخير فلينتهزه** ﴾ فلم يظهر العدو من خيامهم وحال بين الطائفتين الليل وعاد كل فريق إلى حزبه ورأى الناس ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر واستبشر والده بغرته وعلم أن ذلك بيمن صلاح سريرته واستمرار ركوب السلطان إليهم فى كل يوم وطلب نزلهم وقتالهم وهم لايخرجون من خيامهم لعلمهم ببشائر النصر والظفر بهم والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل .

*　*　*

ذكر وصول عماد الدين زنكي صاحب سنجار وغيره

ولما كان الثانى والعشرون من ربيع الآخر وصل عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار يجر عسكره ووصل بتجمل حسن وعسكر تام ولقيه السلطان بالاحترام والتعظيم ورتب له العسكر فى لقائه وكان أول من لقبه من العسكر المنصور قضاته وكتابه ثم لقيه أولاده بعد ذلك ثم لقيه السلطان ثم سار به حتى أوقفه على العدو وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم فحضر هو وجميع أصحابه وقدم له من التحف واللطائف مالا يقدر غيره عليه وكان قد اكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه وبسط له ثوب أطلس عند دخوله وضرب خيمة على طرف الميسرة على جانب النهر . فلما كان سابع جمادى الأولى من هذه السنة وصل سنجر شاه ابن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الجزيرة ووصل فى عسكر حسن فلقيه السلطان واحترمه واكرمه وأنزله في خيمته وأمر أن ضربت خيمته إلى جانب عماد الدين . وفى تاسع الشهر وصل علاء الدين بن مسعود صاحب الموصل مقدما على عسكره ففرح السلطان بقدومه فرحا شديدا وتلقاه عن بعد هو وأهله واستحسن أدبه وأنزله عنده فى الخيمة وكارمة مكارمة عظيمة وقدم له تحفا حسنة وأمر

بضرب خيمته بين ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر . وما من أهله إلا من بسط له من ضيافته وجها مضيئا * ولما كانت ظهيرة نهار ذلك اليوم ظرت في البحر قلوع كثيرة وكان رحمه الله في نظره وصول الاسطول من مصر فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله فعلم أنه هو فركب السلطان وركب الناس في خدمته وتعبى تعبية القتال وقصد مضايقة العدو وليشغله عن قصد الأسطول * ولم علم العدو وصول الاسطول لاستعدوا له وعمروا أسطولا لقتاله ومنعه من دخول عكا وخرج اسطول العدو واشتد السلطان في قتاله من خارج وسار الناس على جانب البحر تقوية للاسطول وايناسا لرجاله والتقى الاسطولان في البحر والعسكران في البر واضطرمت [1] نيران الحرب واستعرت وباع كل فريق روحه براحته الأخروية * ورجح حياته الابدية على حياته الدنيوية * وجرى بين الاسطولين قتال شديد انقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي واخذ من العدو الشواني وقتل من به ونهب جميع ما فيه وظفر من العدو بمركب أيضاً كان واصلا من قسطنطينية ودخل الاسطول المنصور إلى عكا وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها مير وذخائر وطابت قلوب اهل البلد وانشرحت صدورهم فان الضائقة كانت قد اخذت منهم واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل وعاد كل فريق إلى خيامه وقد قتل من عدو الله وجرح خلق كثير عظيم فانهم قاتلوا في ثلاثة مواضع فإن أهل البلد اشتدوا في قتالهم ليشغلوهم عن الاسطول أيضا والاسطولان يتقالان والعسكر يقاتلهم من البر وكان النصر للمسلمين في الاماكن كلها ثم كان وصول زين الدين صاحب اربل في العشر الأواخر من جمادى الأولى وهو زين الدين يوسف بن علي بكتكين قدم بعسكر حسن وتجمل جميل فاحترمه السلطان واكرمه وأنزله في خيمته واكرم ضيافته وامر بضرب خيمته الى جانب خيمة

---

(١) اضطرمت النيران : أي اشتعلت واتقدت ويقال اضطرم الحرب بينهم أي اشتد وهاج .

أخيه مظفر الدين .

*   *   *

ذكر خبر ملك الالمان

تواترت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان وأنه نهض للقائه جمع عظيم من التركمان وقصدوا منعه من عبور النهر وأنه أعجزهم لكثرة خلقه وهدم مقدم لهم يجمع كلمتهم وكان قليج أرسلان أظهر شقاق وهو فى الباطن قد أضمر وفاقه ثم لما عبر إلى البلاد أظهر ما كان أضمر ووافقه وأعطاه رهائن منه على أن ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون وأنفذ معه أدلاء [1] . وعراهم فى الطريق جوع عظيم حتى ألقوا بعض اقمشتهم * ولقد بلغنا والله أعلم انهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها وجعلوها سدرا واحداً وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها أحد وأنها بقيت بعد ذلك تلا من حديد وساروا على ذلك الحال حتى اتوا إلى بلد يقال لها طرسوس فأقاموا على نهر ليعبر . واما ملكهم فعنّ [2] له أن يسبح فيه وكان ماؤه شديد البرد وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب والنصب والمشقة والخوف وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتد به إلى أن قتله * ولما رأى ماحل به أوصى إلى ابنه الذى كان فى صحبته ولما مات أجمعوا رأيهم إلى أن سلقوه فى خل وجمعوا عظامه فى كيس على أن يحملوه الى القدس الشريف حرسه الله ويدفنوه في القدس وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه فإن ولده الأكبر كان قد خلفه فى بلاده وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه واستقر قدم ولده الحاضر فى تقدمه العسكر * ولما أحس ابن لاون بما جرى عليهم من الخلل وما حل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم ما رأى أن يلقى بنفسه

---

(١) أدلاء : أى مرشدين للطريق .

(٢) عَنّ : أى ظهر واعترض بفكره .

بينهم فإنه لايعلم كيف يكون الأمر وهم إفرنج وهو أرمنى فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه المنيعة .

* * *

صورة كتاب الكايفكوس الارمني

ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكايفكوس وهو مقدم الارمن وهو صاحب قلعة الروم التى على طرف الفرات نسخة هذه ترجمتها * كتاب الداعي المخلص الكايفكوس ماأطلع به علم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان .ورافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين * سلطان الإسلام والمسلمين أدام الله اقباله * وضاعف جلاله . وصان مهجته وكمل نهاية آماله بعظمته وجلاله . من أمر ملك الالمان وما جرى له عند ظهوره وذلك أنه أول ما خرج من دياره ودخل بلاد الهنكر غصبا غصب ملك الهنكر بالاذعان والدخول تحت طاعته وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ثم أنه دخل أرض الروم وفتح البلاد ونهبها واقام بها وأخرج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه [1] وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهبا وخمسين قنطاراً فضة وثياب أطلس بمبلغ عظيم واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجنب وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج ارسلان ورد الرهائن وبقى سائراً ثلاثة أيام وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والبقر والخيل والبضائع فداخلهم الطمع وجمعوا جموعا من جميع البلاد ووقع القتل بين التركمان وبينه وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج ارسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيما فظفر به ملك الالمان وكسره كسرة عظيمة [2] وسار

(١) خلصاءه : أى خاصته وصفوته .

(٢) أى هزمه هزيمة ساحقة .

حتى اشرف على قونية فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين وهجم على قونية بالسيف وقتل منهم عالما عظيما من المسلمين والفرس وأقام بها خمسة أيام فطلب قليج أرسلان منه الامان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة اكيدة وأخذ الملك منه رهائن عشرين من أكابر دولته وأشار على الملك أن يجعل على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل منه وصوله الى هذه الديار اختياراً أو كرها اقتضى الحال انفاذ المملوك حاتم وصحبته ما سأل ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك وجواب كتابه وكانت الوصية أن يمروا به على بلاد قليج أرسلان أن أمكن فلما اجتمعوا بالملك الكبير وامادوا عليه الجواب عرفوه الاحوال بالانحراف ثم كثرة عليه العسكر والجموع ونزل على شط بعض الانهار وأكل خبزا ونام وانتبه فتاقت نفسه الى الاستحمام في الماء ابارد ففعل ذلك وخرج وكان من امر الله ان تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد فمكث أياما قلائل ومات * وأما ابن لون فانه كان سائرا يلقى الملك فلما جرى هيرا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا إليه وأخبروه فى الحال فدخل فى بعض حصونه واحتمى هناك وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذى معه عوضه وإستقرت القاعدة وبلغه هروب رسل ابن لاون فنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال أن أبى كان شيخا كبيراً وما قصد هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس وأنا الذى دبرت الملك وعاينت المشاق فى هذه الطريق فمن اطاعنى وإلا قصدت دياره واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع ضرورة * بالجملة فهو فى عدد كثير * ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين مجفجفاً وأما الرجالة فما يحصى عددهم وهم أجناس متفاوته على قصد عظيم وحد فى أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاه * ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد فى ضربه فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع إلى

الملك منهم خلق عظيم فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ [١] على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه [٢] كل ذلك كان حزنا على بيت المقدس . ولقد صح عن جمع منهم انهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرموا ما حل ولم يلبسوا إلا الحديد حتى انكر عليهم الاكابر ذلك وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب فى حال عظيم . طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعد ذلك يطالع به ان شاء الله تعالى * هذا كتاب الكايفكوس ومعنى هذا اللفظ الخلفية واسمه بركرى كور بن باسيل .

* * *

ذكر مسير العساكر الي أطراف البلاد في طرق ملك الالمان

ولما تحقق السلطان وصول ملك الروم إلى ابن لاون وقربه إلى البلاد الاسلامية جمع أمراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع فاتفق الرأى على أن العسكر بعضه يسير إلى البلاد المتآخمة لطريق عسكر العدو الواصل وان يقيم على منازلة العدو بباقى العسكر المنصور وكان أول من سار صاحب منبج وهو ناصر الدين تقى الدين ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما ثم مجد الدين صاحب بعلبك ثم صاحب شيزر سابق الدين ثم الباروقية من جملة عسكر حلب عسكر حماه . وسار ولده الملك الافضل مع مرض عرض له ثم بدر الدين شحنة دمشق مع مرض عرض له أيضا وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر الى حلب لابانة الطريق وكشفا لاخباره وحفظا لما يليه من البلاد وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدو المجتاز * ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها فأمر رحمه الله الملك العادل ان ينتقل الى منزلة تقى الدين فى طرف

---

(١) الملاذ : أى الاحتماء واللجوء والتحصن .

(٢) عزروه : أى لاموه وأدبوه وعاقبوه بما دون الحد الشرعى .

الميمنة وكان عماد الدين زنكى فى طرف الميسرة . ووقع فى العسكر مرض عظيم فمرض مظفر الدين صاحب حران وشقى ومرض بعده الملك الظافر وشقى ومرض خلق كثير من الاكابر وغيرهم الا ان المرض كان سليما بحمد الله وكان المرض عند العدو اكثر وأعظم وكان مقرونا بموتان عظيم وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطا للعدوا .

* * *

ذكر تمام خبر ملك الالمان

وذلك ان ولده الذى قام مقامه مرض مرضا عظيما أقام بسببه بموضع من بلاد ابن لاون وأقام معه خمسة وعشرون فارسا وأربعون داويا وجهز عسكره نحو انطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ثم ان الفرقة الاولى اجتازت تحت قلعة بغراس بقدمها كند عظيم عندهم وان عسكر بغواس مع قلته أخذ منهم مئتى رجل قهرا ونهبا وكبت جزؤمنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات * ولما اتصل هذا الخبر بالنواب فى البلاد الشامية أنقذوا اليهم عسكرا يكشف أخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة فاغاروا عليهم غارة عظيمة وقتلوا وأسروا وكان مقدار ما أخذوه وقتلوه على ما ذكره المخبرون فى الكتب زهاء خمسمائة نفس * ولقد حضرت رسالة رسول ثان من كبغا الفرس بين يدى السلطان وهو يذكر خبرهم ويقول هم عدد كثير لكنهم ضعاف قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمر وخيل ضعيفة قال ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ماوجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا الا النادر فسألتهم عن ذلك فقالوا أقمنا بمرج وخم أياما فقل زادنا وأحطابنا وأوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم واحتجنا الى الخيل فذبحناها وأكلناها وأوقدنا الرماح والعدد لاعواز الحطب . وأما السكند الذى وصل الى انطاكية فى مقدمه العسكر

فانه مات وذكر ان ابن لاون لما أحس منهم بذلك الضعف طمع فيهم حتى انه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذى تخلف معه وأن البرنس صاحب أنطاكية لما أحس منهم بذك أرسل الى ملك الالمان التقطه الى انطاكية طمعا فى أن يموت عنده ويأخذ ماله ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض الى أن وقعت وقعة العادل على طرف البحر .

*　*　*

ذكر الوقعة العادلية

ولما كان يوم الاربعاء العشرون من جمادى الآخرة علم عدو الله ان العساكر قد تفرقت وان الميمنة قد خفت لان معظم من سافر كان منها يحكم قرب بلادهم من طريق العدو فاجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على انهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة وتلاعبت بهم آمالهم فخرجوا ظهيرة النهار وامتدوا ميمنة وميسرة وقلبا وانبثوا فى الارض وكانوا عددا عظيما واستخفوا طرف الميمنة وكان فيها مخيم الملك العادل فلما بصر الناس بهم قد خرجوا فى تعبية صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالاسود من آجامها وركب السلطان ونادى مناديه ياللاسلام وركبت الجيوش وطلبت الاطلاب (ولقد) رأيته رحمه الله قد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه والناس لم يستتم ركوبهم وهو كالفاقدة ولدها . الثاكلة واحدها . ثم ضرب الكؤس وأجابته كؤسات الامراء من أماكنها وركب الناس * وأما الافرنج فانهم سارعوا فى القصد الى الميمنة حتى وصلوا الى خيمة الملك العادل ودخلوا فى راقة وامتدت أيديهم فى السوق وأطرف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا الى خيمة الخاص وأخذوا من شراب خاناتها شيأ « وأما الملك العادل فانه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته واستركب من يليه من الميمنة كالطواشى قايماز النجمى ومن يجراه من أسود الاسلام ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم فى الخيم

ويشتغلوا فى النهب وكان كما ظن فانهم عاثت أيديهم فى الخيام والاقمشة والفواكه والمطاعم فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه وحمل حملته من كان يليه عن الميمنة واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح الى عسكر الموصل وهجموا على العدو هجمة الاسود على فريستها ما أمكنهم الله منهم ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين وعلى أعقابهم ناكصين . وسيف الله فيهم يلتقط الارواح من الاشباح ويفصل بين الاجساد والرؤش ويفرق بين الابدان والنفوس . ولما بصر السلطان باصطلاء الحرب قد ارتفع مما يلى خيام أخيه ثارت فى قلبه نار الاشفاق وحركت الحمية اخوته . وانهضت لرعبة فى نصرة دين الله والخوف على أوليائه عزيمته * وصاح صايحه فى الناس ياللاسلام وابطال الموحدين هذا عدو الله قد أمكن الله منه وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه فكان من المبادرين الى اجابة دعوته جماعة من مماليكه وخاصته وخلقته ثم طلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبى وتتابعت العساكر وتجاوبت الابطال ووقف رحمه الله فى القلب خشية ان يستضعف العدو القلب بحكم ما انفذ منه من العساكر فينال غرضا فتواصلت العساكر واتصل الضرب وقامت سوق الحرب فلم يكن الا ساعة حتى رأيت القوم صرعى كانهم أعجاز نخل خاوية وامتدوا مطروحين من خيام الملك العادل الى خيامهم أولهم فى الخيم الاسلامية وآخرهم فى خيم العدو صرعى على التلول والوهاد وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت * وأكلت أسد الوغى[1] باسنان الظفر منهم حتى شبعت . وأظهر الله كلمته . وحقق لعبده نصرته وكان مقدار ما امتد فيه القتلى فيما بين الخيامين فرسخا وربما زاد على ذلك ولم ينج من القوم الا النادر . ولقد خضت فى تلك الدماء بدابتى واجتهدت فى أن أعدهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين وحكى

(١) الوغى : أى الحرب لما فيها من الصوت والجلبة .

لى منم شاهد أربعة نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان وأسر منم الرجال فى ذلك اليوم نفر يسير فان السلطان كا أمر الناس أن لايستبقوا أحدا هذا كله فى الميمنة وبعض القلب وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم الا وقد نجز الامر وقضى القضاء على العدو مابين الظهر والعصر فان العدو ظهر فى قائم الظهيرة وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الى مخيمهم على ما قيل ولم يفقد من المسلمين أحد فى ذلك اليوم سوى عشرة انفس غير معروفين . ولما أحس جند الله بعكا بما جرى من القعة فانهم كانوا يشاهدون الوقعة من اعالى السور خرجوا الى مخيم العدو وجرت بينهم مقتلة عظيمة وكانت للنصرة للمسلمين بحيث هجموا خيام العدو ونهبوا امنها جمعاً من النسوان والاقمشة حتى القدور فيها الطعام ووصل كتاب من المدينة يخبر بذلك وكان يوما على الكافرين عسيرا واختلف الناس فى عدد القتلى منهم فذكر قوام أنهم ثمانية آلاف . ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها فى خيم العادل وآخرها فى خيم العدو لقد لقيت انسانا جنديا عاقلا جنديا عاقلا جنديا يسعى بين صفوف القتلى وبعدهم فقلت له كم عددت فقال لى هاهنا أربعة آلاف ونيف[١] وستون قتيلا وكان قد عد صفين وهو فى الصف الثالث لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقى وانجلى يوم الاربعاء المذكور بأحسن ماينجلى عنه الاسلام ولما كان يوم الخميس الحادى والعشرون من جمادى المذكورة ورد فى عصره نجاب منحلب له خمسة أيام يتضمن كتابه ان جماعة عظيمة من العدو الشمالى خرجوا لنهب أطراف البلاد الاسلامية ونهض الهسكر الاسلامى من حلب اليهم وأخذ عليهم الطريق ولم ينج منهم الا من شاء الله وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الواقعة المباركة واقعا عظيم وضربت البشائر ولم ير صبيحة لتلك العروس أحسن من هذه النصيحة . وجاءنا بقية ذلك اليوم اليزك قايماز الحرانى وذكر ان العدو قد سأل من

(١) النيف : العدد من واحد إلى ثلاثة .

جانب السلطان من يصل اليهم ليسمع منه حديثا فى سؤال الصلح لضعف حل بهم ولم يزل عدو الله من حينه مكسور الجناح من الجانبين حتى وصلهم كند يقال له كندهرى .

* * *

ذكر وصول الكندهري

وهذا لامذكور من ملوكهم وأعيانهم وصل فى البحر فى مراكب عدة ومعه من الاموال والذخائر والمسيرة والاسلحة والرجال عدد عظيم فقوى بوصوله عزمهم واشتد أزرهم وحدثتهم نفوسهم بطلب العسكر الاسلامى المنصور ليلا وكثر ذلك الحديث على السنة المستأمنين والجواسيس فجمع السلطان الامراء وأرباب الرأى واستشارهم فيما يفعل فكان آخر الرأى انهم يوسعون الحلقة ويتأخر عن العدو رجاء أن يخرج العدو ويبعد عن خيمه فيمكن الله منهم ووافقهم السلطان على ذلك وأوقعه الله فى قلبه فرحل الى جبل الخروبة بالعساكر بأسرها وذلك فى السابع والعشرين من جمادى الاخرى وترك بقية من العسكر فى تلك المنزلة كاليزك مقدار الف فارس يتناوبون لحفظ النوبة . هذا والكتب متواصلة من عكا ومنا اليها على أجنحة الطيور وأيدى السياح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سرقة من العدو . هذا واخبار العدو الواصل من الشمال متواصلة بقلة خيله وعدده وما قد عراهم من الموت والمرض وانهم قد اجتمعوا بانطاكية وانهم قد بقوا رجالة وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطفون حشاشتهم وعلاقتهم ومن يخرج منهم.

* * *

ذكر كتاب وصل من قسطنطينية يسر الله فتحها

وكان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة وكان وصل منه رسول إلى باب السلطان بمرج عيون فى رجب سنة خمس وثمانين

وخمسمائة فى جواب رسول كان أنفذه السلطان إليه بعد تقدير القواعد واقامة قانون الخطبة فى جامع قسطنطينية فمضى الرسول وأقام الخطبة ولقى احتراما عظيما وإكراما زائدا وكان قد انفذ معه فى المراكب الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام شاهده جمع كثير من التجار ورقى الخطيب المنبر واجتمع اليه المسلمون ليقيمون بها والتجار اقام الدعوة الاسلامية العباسية ثم عاد فوصل معه هذا الرسول يخبرنا بانتظار الحال فى ذلك فأقام مدة . ولقد شاهدته يبلغ لرسالة ومعة ترجمان يترجم عنه وهو شيخ أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشايخ وعليه زيهم الذى يختص بهم ومعه كتاب وتذكرة مختوم الكتاب بذهب ولما مات وصل إلى ملك قسطنطينية خبر وفاته فانفذ هذا الرسول فى تتمة ذلك ووصل معه الكتاب فى جواب ذلك . وصورة ما فسر من الكتاب الواصل معه ووصفه أنه كان كتابا مدرجا عرضا وهو دون عرض كتاب بغداد مترجما ظاهره وباطنة بسطرين بينهما فرجة وضع فيها الختم والختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم فى الشمع على ختمه صورة ملك وزن الذهب خمسة عشر دينارا مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صورته .

(**من ايساكيوس**) الملك المؤمن بالمسيح الاله المتوج من الله المنصور العالى أبدا أففقوس المدبر من الله القاهر الذى لا يغلب ضابط الروم بذاته انكلوس الى النسيب سلطان مصر صلاح الدين والمحبة والمودة . قد وصل خط نسبتك الذى انفذت [١] إلى ملكى وقرأناه وعلمنا من أن رسولنا توفى وحزنا عليه حيث أنه توفى فى بلد وريب وما قدر أن يتم كل ما رسم له ملكى رأمره أن يتحدث به مع نسبك ويقول فى حضرتك ولابد لنسبتك ان تهتم بانفاذ رسول إلى ملكى مع رسول المتوفى والقماش الذى خلفه ويوجد

---

(١) انفذت . أى أرسلت .

بعد موته لنعطيه أولاده وأقاربه وما ظن أنه يسمع من نسبتك أخباراً وأنه قد سافر فى بلدى الألمان ولا عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء مكذوبة على قدر أغراضهم ولو تشتهى أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا كثيراً اكثر مما أوذى فلاحوا بلادك وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرجال ومات منهم وقتلوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدى أجناد بلادى وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك فإن وصلوا كانوا ضعافا بعد شدة كبيرة لا ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك . وبعد ذلك كيف نسيت الذى بينى وبينك وكيف ما عرفت لملكى شيئا من المقاصد والمهمات . وما ربح ملكى من محبتك إلا عدواة الافرنج وجنسهم * فوقف رحمه الله على هذه الترجمة واكرم الرسول وأحسن مثواه . وكان شيخا حسن الخلق نبيها عارفا بالعربية والرومية والافرنجية * ثم ان الافرنج شدوا فى حصار البلد وضايقوه لما قد حدث لهم من القوة بوصول الكندهرى فإنه وصل على ما ذكر والله أعلم فى عشرة آلاف مقاتل ووصلتهم نجدة أخرى فى البحر قويت بها قلوبهم ونازلوا البلد بالقتال .

* * *

ذكر حريق المنجنيقات

وذلك أن العدو لما أحس فى نفسه بقوته بسبب توالى النجدات عليهم اشتد طمعهم فى البلد وركبوا عليه المنجنيقات من كل جانب وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل رميها ليلا ولا نهاراً وذلك فى أثناء رجب . ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو وتعلق طمعهم بهم حركتهم النخوة (١) الاسلامية وكان مقدوموه حينئذ اما والى البلد وحارسه فالأمير الكبير بهاء الدين قراقوش * وأما مقدم العسكر فالأمير المبير الاسفهسلاء حسام الدين

(١) النخوة : أى الحماسة والمروءة .

أبو الهيجاء وكان رجلا ذا كرم وشجاعة وتقدم فى عشيرته * ومضاء فى عزيمته فاجتمع رأيهم على انهم يخرجون إلى العدو فارسهم وراجلهم على غرة وغفلة منهم ففعلوا ذلك وفتحت الأبواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ولم يشعر العدو إلا والسيف فيهم حاكم عادل * وسهم قدر الله وقضائه فيهم نافذ نازل . وهجم الاسلام على الكفر فى منازله . وأخذ بناصية مناضله ورأس مقاتله * ولما ولج [1] المسلمون لخيام العدو ذهلوا عن المنجنيقات وحياطتها وحراستها . وحفظها وسياستها . فوصلت شهب الزراقين المقذوفة . وجاءت عوائد الله فى نصرة دينة المألوفة . فلم تكن ساعة حتى اضطرمت فيها النيران وتحرقت منها بيدها ما شيده الأعداء فى المدة الطويلة فى أقرب آن . وقتل من العدو سبعون فارسا وأسر خلق عظيم وكان من جملة الأسرى رجل مذكور منهم ظفر به واحد من آحاد الناس ولم يعلم بمكانته . ولما انفصل الحرب سأل الافرنج عنه هل هو حى أم لا فعرف الذى هو عنده عند سؤالهم أنه رجل كبير فيهم وخاف أن يغلب عليه ويرد بنوع مصانعة أو على وجه من الوجوه فسارع وقتله وبذل الافرنج فيه أموالا كثيرة ولم يزالوا يشتدون فى طلبه [2] ويحرصون عليه حتى ريثت لهم جثته فضربوا بنفوسهم الأرض وحثوا على رؤوسهم التراب ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة وكتموا أمره ولم يظهروا من كان واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون إلى ليلة نصف شعبان وكان الكندهرى قد أنفق على منجيق كبير عظيم الشكل على ما نقل الجواسيس والمستأمنون ألفا وخمسمائة دينار وأعده ليقدمه إلى البلد ومنع من حريقة فى ذلك اليوم كونه بعيدا عن البلد لم يقدم بعد إليه . ولما كانت الليلة المباركة المذكورة

---

(١) ولج : أى دخل .

(٢) يشتدون فى طلبه : أى يبحثون عنه باستمرار .

خرج الزراقين والمقاتلة تحفظهم من كل جانب والله يكلأهم [1] فساروا من تحت ستر الله حتى أتوا المنجنيق المذكور وأضرموا فيه النار فاحترق من ساعته ووقع الصباح من الطائفتين وذهل العدو فانه كان بعيدا من البلد وخافوا أن يكونوا قد أحيط بهم من الجوانب وكان نصراً من عند الله واحرق بلهيبه منجنيقاً لطيفاً إلى جانبه .

* * *

ذكر الحيلة وادخال عكة بطسة عمرها وأودعها أربعمائة غرارة من القمح ووضع فيها الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة

وكان الافرنج خذلهم الله قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين وكانت قد اشتدت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة فركب فى بطسة بيروت جماعة من المسلمين وتزيوا بزى الافرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد وعلقوا الصلبان وجاؤا قاصدين البلد من البعد حتى خالصوا مراكب العدو فخرجوا اليهم واعترضوهم فى الحراقات والشوانى وقالوا لهم نراكم قاصدين البلد واعتقدوا أنهم منهم فقالوا أو لم تكونوا قد أخذتم البلد فقالوا لم نأخذ البلد بعد فقالوا نحن نرد القلوع إلى العسكر وقد أتى بطسة افرنجيه قد اتفقت معهم فى البحر قاصدة العسكر فنظروا فرأوها فقصدوها ينذرونها فاشتدت البطسة الاسلامية فى السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلبت ولله الحمد وكان فرحا عظيما فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد وكان ذلك فى العشر الأواخر من رجب .

---

(١) يكلأهم : أى يحفظهم ويحميهم .

ذكر قصة العوام عيسى

ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها أن عواما مسلما يقال له عيسى وصل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلا على غرة[1] من العدو وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر وعام فى البحر فجرى عليه أمر أهلكه وابطأ خبره عنا . وكان من عادته إذا أدخل البلد أطارطيرا عرفا بوصوله فأبطأ الطير فاستشعرنا هلاكه . ولما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر فى البلد إذا هو قد قذف شيئاً غريقا فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب وكان الذهب نفقة للمجاهدين فما رؤى من أدى الامانة فى حال حياته وقد ردها فى مماته الا هذا الرجل وكان ذلك فى العشر الآخر من رجب أيضا .

* * *

ذكر حريق المنجنيقات

وذلك أن العدو كان نصب على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور وان حجارتها تواترت حتى أثرت فى السور أثراً بينا وخيف من غائلاتها فأخذ سهمان من سهام الجرخ العظيم فأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار ثم رميا فى المنجيق الواحد فعلقا فيه واجتهد العدو فى اطفائهما فلم يقدر على ذلك وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته واشتد نارهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتال فى اطفائهما وكان يوما عظيما اشتد فيه فرح المسلمين وساءت عاقبة الكافرين .

---

(١) على غرة من العدو : أى على غفلة منه .

ذكر تمام حديث ملك الالمان والحيلة التي عملها المركيس

ولما استقر قدم ملك الالمان فى انطاكية أخذها من صاحبها وحكم فيها وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره فاخذها منه غيلة [1] وخديعة وأودعها خزائنة وسار عنها فى الخامس والعشرين من رجب متوجهاً نحو عكا فى جيوشة وجموعه على طريق اللاذقية حتى إلى طرابلس وكان قد سار إليه من معسكر الافرنج بلتقيه المركيس صاحب صور وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الاصل فى تهييج الجموع من وراء البحر * وذلك أنه صور القدس فى ورقة وصور فيه صورة القمامة التى يحجون إليها [2] ويعظمون شأنها وفيه قبه قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه بزعمهم وذلك القبر هو أصل حجهم وهو الذى يعتقدون نزول النور عليه فى كل سنة فى عيد من أعيادهم وصور على القبر فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه وقد وطىء قبر المسيح وبال الفرس على القبر وأبدى هذه الصورة وراء البحر فى الاسواق والمجامع والقساوسه يحملونها ورؤسهم مكشوفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور وللصور عمل فى قلوبهم فإنها أصل دينهم فهاج بذلك خلق لا يحصى عددهم إلا الله وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا فى استدعائهم إلى هذه الواقعة فلما أتصل به قوى قلبه ونصره بالطرق وسلك به الساحل خوفاً من أنه إذا أتى على بلاد حطب وحماه ثار لهم المسلمون من كل جانب وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب . ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم فإن الملك المظفر قصدهم بعساكره وجمع لهم جموعاً وهجم عليهم هجوماً

---

(١) غيلة : غفلة ومكراً .

(٢) والتى بنوا عليها كنيسه سميت بكنيسة القمامة والتى بنتها الملكة هليانه . انظر قصص الانبياء للحافظ . ابن كثير وقصة بناء كنيسة القمامة .

عظيما أخذ فيه من أطراف عساكره وكان قد لحقهم بأوائل عسكره ولو لحقهم الملك الظافر بعساكره لقضى عليهم ولكن لكل أجل كتاب واختلف حزر الناس لهم . ولقد وقفت على كتب بعض المخبرين بالحرب فقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر فانظر إلى صنع الله مع أعدائه . ولقد وقفت على بعض الكتب فذكر فيه انهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا فى أعقابهم نيفا [1] وستين فرسا قد عطبت وانزع لحملها ولم يبق فيها إلا العظام من شدة الجوع ولم يزالوا سائرين وأيدى المسلمين تخطفهم من حولهم نهبا وقتلا وأسرا حتى أتوا طرابلس ووصل خبر وصوله بكرة الثلاثاء ثامن شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة هذا والسلطان ثابت الجأش راسخ القدم لا يرده ذلك عن حراسة عكا والحماية لها ومراصدة العسكر النازل بها وشن الغارات عليها والهجوم عليهم فى كل وقت مفوضا أمره إلى الله معتمدا عليه منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس مواصلا يسره من يفد اليه من القراء والفقهاء والمشايخ والأدباء * ولقد كنت إذا بلغنى هذا الخبر تأثرت حتى دخلت عليه واجد منه من قوة الله وشدة اليأس ما يشرح صدرى واتيقن معه نصرة الإسلام وأهله .

ذكر وصول البطس من مصر

ولما كان العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقواش وهو والى البلد والمقدم على الاسطول والحاجب لؤلؤ يذكر أن السلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة الاقدر يكفى الى ليلة النصف من شعبان لا غير فأسرها وسف فى نفسه ولم يبدها لخاص ولا لعام خشية الشيوع [2] والبلوغ الى العدو فتضعف به قلوب المسلمين وكان قد كتب الى مصر بتجهيز ثلاث بطس

(١) النيف ما زاد على العقد من واحد إلى ثلاثة .

(٢) الشيوع : أى الانتشار .

مشحونة بالقوت والأدم [١] والمير وجميع ما يحتاج إليه فى الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء واقلعت البطس الثالث من الديار المصرية ولحجت فى البحر تتوقى النوتية بها الريح حتى ساروا بالريح التى تحملها إلى نحو عكا ولم يزالوا كذلك حتى وصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان المذكور وقد فنى الزاد ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس فى ذلك اليوم وخرج عليها اسطول العدو يقاتلها والعساكر الاسلامية تشهد ذلك من الساحل والناس فى تهليل وتكبير وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون الى الله تعالى فى القضاء بتسليمها إلى البلد والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى [٢] يشاهد القتال ويدعو ربه بنصره وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره وفى قلبه ما فى قلبه والله يثبته ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب والله يدفع عنها والريح يشتد والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا سالمين الى ميناء البلد وتلقاهم أهل عكا تلقى الأمطار عن جدب وامتاروا ما فيها وكانت ليلة بليال .

ذكر محاصرة برج الذباب

ولما كان الثانى والعشرون من شعبان جهز العدو بطسا متعددة لمحاصرة برج الذباب وهو برج فى وسط البحر مبنى على الصخر على باب ميناء يحرس به الميناء ومتى عبره المراكب أمن غائلة العدو فأراده العدو وأخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول إليه بشيء من البطس فتنقطع الميرة عن البلد فجعلوا على صوارى البطس برجاً وملاؤه حطبا على أنهم يسيرون البطس فإذا قاربت برج الذباب ولاصقه احرقوا البرج الذى على الصارى والصقوه ببرج الذباب ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه وجعلوا فى البطسة وقودا كثيراً حتى يلقى فى البرج إذا اشتعلت النار فيه

(١) الأدم : أى الطعام يؤكل مع الخبز مفردها (إدام) .
(٢) الثكلى : أى التى فقدت أولادها .

وعبوا بطسة ثانية وملؤوها حطبا ووقوداً على أنهم يدفعون بها إلى أن تدخل بين البطس الاسلامية ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية ويهلك ما فيها من الميرة وجعلوا فى بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يحصل لهم نشاب ولا شىء من آلات السلاح حتى إذا أحرقوا ما أرادوا احراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمنوا وقدموا البطسة نحو البرج المذكور وكان طمعهم يشتد حيث كان الهواء مصعدا لهم فلما أحرقه البطسة التى أرادوا أن يحرقوا بطس المسلمين بها والبرج الذى أرادوا أن يحرقوا به من على برج الذباب فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط انعكس الهواء عليهم كما شاء الله تعالى وأراد واشتعلت البطسة التى كان يهاب اسرها واجتهدوا فى اطفائها فما قدروا وهلك من كان فيها من المقاتلة إلا من شاء الله واحترقت البطسة التى كانت معدة لإحراق بطسنا ووثبت أصحابنا عليها فأخذوها إليهم . وأما البطسة التى كانت فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيما فانقلبت وهلك جميع من كان بها لأنهم كانوا فى قبور لم يستطيعوا الخروج منها وكان ذلك من أعظم آيات الله وأندر العجائب فى نصرة دين الله . وكان يوما مشهودا .

ذكر وصول الالمان الي عسكرهم المخذول

عدنا إلى حديث ملك الألمان وذلك أنه أقام بطرابلس حتى استجم [١] عسكره وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه إليهم وقد حموا من ذلك لان المركيس صاحب صور هو رب مشورته وصاحب دولته وكان الملك جفرى وهو ملك الساحل بالعسكر هو الذى يرجع إليه فى الأمور فعلم أنه مع قدوم الألمانى لا يبقى له حكم . ولما كان العشر الآخر من شعبان أزمع [٢] رأيه على المسير فى البحر لعلمه أنه إن لم يركب البحر نكب

---

(١) استجم : أى تجمع وكثر .

(٢) أزمع رأيه : عزمه عليه وثبت وجد فى مضائه .

وأخذت عليه الطريق والمضايق فاعدوا المراكب وأنفذت إليه من كل جانب ونزل فيها هو وعسكره وخيلهم وعدتهم وساروا يريدون العسكر فلم تمض إلا ساعة من النهار حتى قامت عليهم ريح عاصف وثار عليهم الموج من كل مكان واشرفوا على الهلاك وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة وعاد الباقون يرصدون هواء طيباً فأقاموا أياما حتى طابت لهم الريح وصاروا حتى أتوا صور فاقام المركيس والألماني بها وأنفذوا بقية العساكر إلى المعسكر النازل عكا وأقاما بصور إلى ليلة السادس من رمضان وسار الألماني وحده في البحر حتى وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير . هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم * ولقد كان لقدمه وقع عظيم من الطائفتين وأقام أياما وأراد أن يظهر لمجيئه أثر فرنج القوم على طول مقامهم وحسن في رأيه أن تضرب مصاف مع المسلمين فخوفوه من الاقدام على هذا الأمر وعاقبته فقال لابد من الخروج على اليزك ليذوق قتال القوم ويعرف مرساهم ويتبصر بأمرهم فليس الخبر كالعيان فخرج على اليزك الاسلامي واتبعه معظم الافرنج راجلهم وفارسهم وخرجوا حتى قطعوا الوهاد [1] التي بين تلهم وتل العياضية وعلى تل العياضية خيم اليزك وهي نوبة الحلقة السلطانية المنصورة في ذلك اليوم فوقفوا على وجوههم وقاتلوهم وأذاقوهم طعم الموت وعرف السلطان ذلك فركب من خيمته بحفلة وسار حتى أتى بتل كيسان فلما رأى العدو العساكر الاسلامية صوبت نحوه سهام قصدها واتته من كل جانب كقطع من الليل المظلم عاد ناكصا على عقبه وقتل منهم وجرح خلق كثير والسيف يعمل فيهم من أقفيتهم وهم هاربون حتى وصلوا المخيم غروب الشمس وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه وفصل الليل بين الطائفتين وقتل من المسلمين اثنان وجرح جماعة كثيرة وكانت الكثرة على اعداء الله . ولما عرف ملك الالمان ما جرى عليه وعلى

(١) الوهاد : أي الأرض المنخفضة : مفردها (وهدة) .

أصحابه من اليزك الذى هو شرذمه [1] من العسكر وهو جزء من كل رأى أن يرجع إلى قتال البلد ويشتغل بمضايقته فاتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ما هال الناظر إليه من شدة الخوف على البلد واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات وخيف منها عليه فأحدثوا آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة بخلق عظيم ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل وفيها المقاتلة حتى ينطح بها الصور بشدة عظيمة لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها . وآلة أخرى وهى قبو فيه رجال السحب لذلك إلا أن رأسها محدد على شكل السكة التى يحرث بها ورأس البرج ومدور وهذا يهدم بثقله وتلك تهدم بحدتها وثقلتها وهى تسمى سنورا ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة وأعدوا فى البحر بطسة هائلة وضعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا قلبه فى السور انقلب بالحركات ويبقى طريقا إلى المكان الذى ينقلب عليه تمشى عليه المقاتلة وعزموا على تقريبة إلى برج الذباب ليأخذوه به .

ذكر حريق برج الكبش وغيره من الآلات

وذلك أن العدو لما رأى آلاته قد تمت واستكملت شرع فى الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب وأهل البلد كلما رأوا ذلك واشتدت عزائمهم فى نصرة دين الله وقويت قلوبهم على المصابرة . ولما كان يوم الاثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة وهى الذى قدمت به العساكر من الشام فى أحسن زى وأجمل ترتيب وأكمل عدة مع ولده صاحب حلب وسابق الدين صاحب شيزر ومجد الدين صاحب بعلبك وكان السلطان التاث مزاجه الكريم بحمى صفراوية فركب فى ذلك اليوم وكان عيداً من وجوه متعددة وفى ذلك اليوم زحف العدو على البلد فى خلق لا يحصى عددهم إلا الله فأهجابهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه وذوو الآراء المثقفة من مقدمى

(١) شرذمة من العسكر : أى جماعة قليلة منهم .

المسلمين حتى نشبت مخاليب أطماعهم فى البلد وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور وتحصن منهم فى الخندق جماعة عظيمة واطلقوا عليهم سهام الجروح وأحجار المنجنيق وأقواس الرمى والنيران وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد وفتحوا الابواب وباعوا نفوسهم لخالقها وبارئها * ورضوا بالصفقة الموعود بها وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوهم فى الخنادق واوقع الله الرعب فى قلب العدو [1] وأعطى ظهره الهزيمة واخذوا مشتدين هاربين * على أعقابهم ناكصين * يطلبون خيامهم والاحتماء بأسوارهم لكثرة ما شاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل وبقى فى الخندق خلق عظيم وقع فيهم السيف وعجل الله بأرواحهم إلى النار ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو من الخذلان والهزيمة هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حريقه فأحرقوه حريقا شنيعاً وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل * والشكر للقوى الجليل * وسرت نار الكبش بقوتها الى السنور فاحترق وعلق المسلمون فى الكبش الكلاليب الحديدية المصنوعة فى السلاسل فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم فى البلد وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة القى الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام * وبلغنا من اليزك أن وزن ما كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامى والقنطار مائة رطل والرطل الشامى بالبغداى فيه أربعة أرطال وربع رطل * ولقد انفذ رأسه الى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثل السفود الذى يكون بحجر المدار قيل أنه ينطح به فيهدم ما يلاقيه . وكان ذلك من أحسن أيام الاسلام ووقع على العدو خذلان عظيم ورفعوا ما سلم من آلاتهم وسكنت حركاتهم التى ضيعوا فيها وفقتلتهم وتحيرت أبصار حيلهم واستبشر السلطان بغرة ولده واستبارك بها حيث وجد

---

(١) ولعل الرعب كان سببا أساسيا فى هزيمة هؤلاء فإن الرعب من اعتى جنود الله تعالى على أعدائه قال تعالى : ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ الحشر ٢ وقال تعالى ﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ﴾ .

النصر مقرونا بقدومه مرة بعد أخرى . وثانية بعد أولى . ولما كان يوم الاربعاء الخامس عشر رمضان خرج أصحابنا من الثغر المحروس فى شوان على بغتة [١] من العدو وضربوا البطسة المعدة لأخذ برج الذباب بقوارير [٢] نفط فاحترقت وارتفع لهبها فى البحر ارتفاعا عظيما وحزن الالمان لذلك حزنا شديدا وغشيته كآبة عظيمة ووقع عليهم خذلان عميم . ولما كان يوم الخميس السادس عشر الشهر وصل كتاب طائر فى طى كتاب وصل من حماه قد طار به الطائر من حلب يذكر فيه أن البرنس صاحب انطاكية خرج بعسكر نحو القرى الاسلامية التى تليه لشن الغارات عليها فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر فكمنت له الكمينات فلم يشعر بهم الا والسيف قد وقع فيهم فقتل منهم خمسة وسبعون نفرا وأسر خلق عظيم واستعصم نفسه فى موضع يسمى شيحا حتى اندفعوا وسار إلى بلده . وفى اثناء العشر الأوسط ألقت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدو فغنمها المسلمون . وكان العدو قد ظفر منا بزورق فيه نفقة ورجال أرادوا الدخول الى البلد فأخذوه فوقع الظفر بهاتين البسطتين ماحياً لذلك وجابراً له ولم تزل الاخبار بعد ذلك تتواصل على ألسنة الجواسيس والمستأمنين أن العدو قد عزم على الخروج إلى العسكر الاسلامى خروج مصاف ومنافسه والتاث مزاج السلطان بحمى صفراوية فاقتضى الحال تأخر العسكر إلى جبل سفرهم * وكان انتقاله تاسع عشر رمضان فنزل السلطان على أعلى الجبل ونزل الناس على رؤس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة من الوحل * وفى ذلك اليوم مرض زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب اربل مرضاً شديداً بحميين مختلفتى الأوقات واستأذن فى الرواح فلم يؤذن له فاستأذن فى الانتقال إلى الناصره فأذن له فى ذلك اليوم

---

(١) على بغته : أى فى وقت غفلتهم . قال تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ القصص ١٥ .

(٢) القوارير : أى الزجاجات مفرده قارورة .

وأقام الناصرة أياما عديدة بمرض نفسة فاشتد به المرض إلى ليلة الثلاثاء ثامن عشر رمضان وتوفى رحمه الله وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلده واستنزله عن بلاده التى كانت فى يده وهى حران والرها وما يتبعها من البلاد والأعمال وضم إليه بلد شهرزور أيضاً واستدعى الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلا مكانه جابراً لخلل عيبه وأقام مظفر الدين فى نظرة قدوم تقى الدين . ولما كان ضحاء نهار ثالث شوال قدم وقد عاد صحبة معز الدين .

ذكر قصة معز الدين

وهذا معز الدين هو سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى وهو صاحب الجزيرة إذ ذاك وكان من قصته أنه حضر للجهاد وقد ذكرت تاريخ وصوله وأنه أخذ منه الضجر والسآمة والقلق بحيث ترددت رسله ورقاعه[1] إلى السلطان فى طلب الدستور والسلطان يعتذر إليه بأن رسل العدو متكررة فى معنى الصلح ولا يجوز أن تنفض العساكر حتى تتميز على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب وهو لا يألو جهدا [2] فى طلب الدستور إلى أن كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين وحضر سحر ذلك اليوم فى باب الخيمة السلطانية فاستأذن فى الدخول فاعتذر إليه بالتياث كان قد عرى مزاج السلطان فلم يقبل العذر وكرر الاستئذان فأذن له فى الدخول فلما مثل بالخدمة استأذن فى الرواح شفاها فذكر له السلطان العذر بذلك وقال هذا وقت تقدم العساكر وتجمعها لا وقت تفرقها فانكب على يده وقبلها كالمودع له ونهض من ساعته وسار وأمر أصحابه أن ألقوا القدور فيها الطعام وقلعوا الخيم وتبعوه فلما بلغ السلطان صنيعه أمر بانشاء مكاتبة إليه يقول

(١) رقاعه : أى رسائله .

(٢) لا يألو جهداً : أى لا يقصر فى جهده بمعنى أنه يبذل قصارى جهده .

فيها « انك أنت قصدت الانتماء إلى ابتداء وراجعتنى فى ذلك مراراً وأظهرت الخيفة على نفسك وقلبك وبلدك من أهلك فقبلتك وآويتك ونصرتك وبسطت يدك فى أموال الناس ودمائهم وأعراضهم فانفذت اليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته واتفق وقوع هذه الواقعة للاسلام فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس وأقمت هذه المدة المديدة وقلقت هذا القلق وتحركت هذه الحركة وانصرفت عن غير طيب نفس وغير فصل حال مع العدو . فانظر لنفسك وأبصر من تنتمى إليه غيرى واحفظ نفسك ممن يقصدك فمالى إلى جانبك التفات » وسلم الكتاب إلى نجاب فلحقة قريباً من طبرية فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار على وجهه وكان الملك المظفر تقى الدين قد استدعى الى الغزاة بسبب حركة مظفر الدين على ماسبق شرحه فلقيه فى الطريق فى موضع يسمى عقة ميق فرآه محثا ولم ير عليه أمارات حسنة وسأله عن حاله فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع ولم يأذن له ففهم الملك المظفر انفصاله من غير دستور من السلطان وأنه على خلاف اختياره فقال له المصلحة لك أن ترجع إلى الخدمة وتلازم إلى أن يأذن لك وأنت صبى ولم تعلم غائلة [1] هذا الامر فقال ما يمكننى الرجوع فقال ترجع عن غير يد فليس فى الرواح على هذا الوجه لك راحة أصلا فأصر على الرواح فخشى عليه وقال ترجع من غير اختيارك وكان تقى الدين شديد البأس مقداماً على الأمور ليس فى عينه من أحد شيء فلما علم أنه قابضة إن لم يرجع باختياره رجع معه حتى أتى العسكر وخرج الملك العادل ونحن فى خدمته إلى لقاء الملك المظفر فوجدنا معه فدخلا به على السلطان وسألاه الصفح عنه وطلب أن يقيم فى جوار تقى الدين على نفسه فأذن له فأقام فى جواره إلى حين ذهابه .

---

(١) غائلة : داهية (ج) غوائل .

ذكر طلب عماد الدين الدستور

وذلك أن عماد الدين زنكى عم المذكور ألح [١] فى طلب الدستور وشكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له والسلطان يعتذر إليه بأن الرسل متوانرة بيننا وبين العدو فى الصلح وربما انتظم فينبغى أن يكون انتظامه بحضوركم فالرأى مشترك واستأذن فى أن يحمل إليه خيام الشتاء فلم يفعل وأن يحمل إليه نفقة فلم يفعل وتكررت منه الرسل إلى السلطان فى المعنى والسلطان يكرر الاعتذار . ولقد كنت بينهم فى شيء من ذلك وكان عند عماد الدين من علي العزم الرواح ما يجاوز كل وصف وعند السلطان من إمساكه إلى أن يفصل أمر بيننا وبينهم مالا يحد وآل الأمر إلى أن يكتب عماد الدين بخطه ويطلب فيه الاذن فى الرواح وتلين فيها وتخشن فأخذها السلطان وكتبت فى ظهرها بيده الكريمة . من ضيع مثلى من يده . فليت شعرى ما استفاد . فوقف عماد الدين عليها وانقطعت مراجعته بالكلية .

ذكر خروج العدو الي رأس الماء

وتواترت الأخبار بضعف العدو ووقوع الغلاء فى بلادهم وعسكرهم حتى أن الغرارة [٢] من القمح بلغت فى انطاكية ستة وتسعين دياوا صورية ولا يزيدهم ذلك الا صبرا واصرارا وعنادا . ولما ضاق بهم الامر وعظم الغلاء وخرج منهم خلق عظيم مستامنين من شدة الجوع عزموا على الخروج الينا وكان طمعهم بسبب مرض السلطان فظنوا أنه لا يستطيع النهوض وكان خروجهم يوم الاثنين حادى عشر شوال بخيلهم ورجلهم حاملين ازوادا وخياما الى الآبار التى استحدثها المسلمون تحت تل الحجل لما كانوا نزولا عليه وأخذوا عليق أربعة أيام فاخبر رحمه الله بخروجهم على هذا الوجه فأمر اليزك أن يتراجع من بين أيديهم إلى تل كيسان وكان اليزك على العياضية

---

(١) ألح : أى داوم على طلبه وألحف فى مسألته .

(٢) الغرارة وعاء من الخيش ونحوه توضع فيه الحبوب (ج) غرائر .

وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور وباتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل فلما طلع الصبح جاء من اليزك من أخبره بأنهم قد تحركوا للركوب وكان قد أمر الثقل فى أول الليل أن يسيروا إلى الناصرة والقيمون فرحل الثقل وبقى الناس وكنت فى جملة من أقام فى خدمته وأمر العسكر أنْ يركب يمنة ويسرة وقلبا تعبية للقتال وركب وهو صاح الجيش بالناس فركبوا وسار حتى وقف على تل من جبال الخروبة وابتدأت الميمنة بالميسر فسارت حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر فكان فى الميمنة ولده الملك الافضل صاحب بصرى وولد عز الدين صاحب الموصل علاء الدين خرم شاه ثم أخوه فى طرفها ويليه قربا منه حسام الدين لاجين والطواشى قايماز النجمى وعز الدين جردبك النورى وحسام الدين يشاره صاحب بانياس وبدر الدين دلدرم وجمع كثير من الامراء وكان فى الميسرة عماد الدين زنكى غائبا مع الثقل لمرض كان ألم به [1] وبقى عسكره وكان فى الميسرة سيف الدين على المشطوب وجميع المهرانبة والهكارية وخشرتين وغيرهم من الامراء الاكراد فى قلب الحلقة السلطانية . وتقدم السلطان ان يخرج من كل عسكر جمع من الجيش وأن يدور حول العسكر واليزك معهم وأخفى بعض الاطلاب وراء التلال عساهم ان يجدوا عزة من العدو * ولم يزل عدو الله يسير والناس من جميع جوانبه وهو سائر على شاطىء النهر من الجانب الشرقى حتى رأس العين وداروا حوله حتى عبروا الجانب الغربى ونزلوا والقتال يتلقف منهم الأبطال . ويصرع منهم الرجال . وكان نزولهم على تل هناك وضربوا خيامهم هناك ممتدة منه إلى النهر وجرح منهم فى ذلك اليوم خلق عظيم وقتل منهم، أيضا جماعة وكانوا اذا جرح واحد منهم حملوه أو قتل دفنوه وهم سائرون حتى لا يبين قتيل ولا جريح وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر وتراجعت العساكر إلى مواطن المصابرة ومواقف

---

(١) ألم به : أى أصابه .

الحراسة وتقدم السلطان إلى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر والميمنة يستدير بالنهر من الجانب الشرقى والجيش يقاتلهم بقربهم ويرميهم بالنشاب بحيث لا يقطع النشاب عنهم أصلا وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال وسار هو رحمه الله ونحن فى خدمته إلى رأس جبل الخروبة فنزل فى خيمة لطيفة والناس حوله فى خيم لطاف بمرأى من العدو واجتاز العدو يتواصل ساعة فساعة إلى الصبح . ولما كان يوم الاربعاء وصل من أخبر أنهم تحركوا للركوب فركب هو ورتب الاطلاب وسار حتى أتى أقرب جبال الخروبة إليهم بحيث يشاهد أحوالهم . وكان رحمه الله ملتات المزاج ضعيف القوى قوى القلب ثم بعث الى العساكر وأمرها بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب وأمر الاطلاب ان تحيط بهم حيث لا تكون قريبة ولا بعيدة لتكون وراء المقاتلة إلى أن تضاحى [1] النهار وسار العدو إلى شاطىء النهر من الجانب الغربى يطلب جهة والقتال يشتد عليهم من كل جانب إلا من جانب النهر والتحم القتال فصرع منهم خلق عظيم وهم يدفنون قتلاهم ويحملون جرحاهم وقد جعلوا رجالتهم سورا لهم تضرب الناس بالزنبورك والنشاب [2] حتى لا يترك أحد يصل اليهم إلا بالنشاب فإنه كان يظهر إليهم كالجراد وخيالتهم يسيرون فى وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحد فى ذلك اليوم أصلا والكوسات تخفق والبوقات تنعر والاصوات بالتهليل والتكبير تعلو هذا والسلطان يمد الجيش بالطلاب والعساكر التى عنده حتى لم يبق معه إلا نفر يسير ونحن نشاهد الأحوال وعلم العدو مرتفع على عجلة هو مغروس فيها وهى تسحب بالبغال وهم يذبون عن العلم وهو عال جداً كالمنارة خرقته بياض ملمع بأحمر على شكل الصلبان ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهر

---

(١) تضاحى النهار : أى بقى فى وقت الضحى .

(٢) الزنبورك والنشاب : آلات من آلات الحروب قديما .

قباله جسر دعوق وقد ألجمهم العطش وأخذ منهم التعب واثخنهم الجراح واشتد الامر بهم من شدة الحر . ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالا شديدا وأعطوا الجهاد حقه وهجموا عليهم هجوما عظيما واستدار بهم كالحلقة فى ذلك اليوم فانهم أذاقوا طعم الموت وجرح منهم جماعة كابار الطويل فإنه قام فى تلك الحرب العظيمة مقام وجرح جراحات متعددة وهو مستمر على القتال وجرح سيف الدين ياز كوج جراحات متعددة وهو من فرسان الاسلام وشجعانه وله مقامات متعددة وجرح خلق كثير ولم تزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهر نهار ذلك اليوم عند جسر دعوق وقطعوا الجسر وأخربوه خوفا من عبور الناس اليهم ورجع السلطان إلى تل الخروبة وأقام عليهم يزكا يحرسهم وأخبارهم تتواتر حتى الصباح وعزم فى تلك الليلة على كيس بقيتهم وكتب الى البلد كتاب فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب * ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر وصل من أخبر أن العدو على حركة الرحيل فركب السلطان ورتب الاطلاب وكف الناس عن القتال خشية أن يغتالوه فان العدو قد قرب من خيمه وأداروا الاطلاب فى الجانب الشرقى من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل إلى خيمه * وكان ممن خرج من مقدميهم في هذه السرية الكندهرى والمركيس وتخلف ابن ملك الالمان فى الخيم مع جمع كثير منهم * ولما دخل العدو إلى خيمهم كان لهم فيها أطلاب مستريحة فخرجت إلى اليزك الاسلامى وحملت عليه ونشب القتال بين اليزك وبينهم وجرى قتال عظيم قتل فيه من العدو وجرح خلق عظيم وقتل من المسلمين ثلاثة نفر وقتل من العدو شخص كبير فيهم مقدم عليهم وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد إلى حافره وكان عليه لباس لم ير مثله وطلبوه من السلطان إلى مخيمه وأعاد الثقل إلى مكانه وعاد كل قوم إلى منزلهم وعاد عماد الدين وقد أقلعت حماه وبقى الثبات مزاج السلطان وقد كان سبب سلامة هذه الطائفة مع كونه لا يقدر على مباشرة

الأمر بنفسه ولقد رأيته وهو يبكى فى حال الحرب كيف لم يقدر على مخالطته ورأيته وهو يأمر أولاده واحداً بعد واحد بمكافحة الأمر ومخالطة الحرب * ولقد سمعت منه وقائل يقول إن الوخم قد عظم فى مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر فى الطائفتين ينشد متمثلا .

قتلاني ومالكا . واقتلا مالكامعي

يريد بذلك التى قد رضيت أن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله وحدث بذلك قوة عظيمة فى نفوس العسكر الاسلامى .

ذكر وقعة الكمين

وفى الثانى والعشرين من شوال رأى السلطان أن يضع للعدو كمينا وقوى عزمه على ذلك فاخرج جمعا من كماة العسكر وشجعانه وأبطاله وفرسانه وانتخبهم [1] من خلق كثير وأمرهم أن يسيروا فى الليل ويكمنوا فى سفح تل هو شمالى عكا بعيد من عسكر العدو عنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت الوقعة المنسوبة إليه وأن يظهر منهم للعدو نفر يسير وان يقصدوه فى خيمه ويحركوه حتى اذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين ففعلوا ذلك وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلا فكمنوا فيه . ولما تجلى نهار الثالث والعشرين خرج منه يسير على جياد من الخيل وساروا حتى أتوا مخيم العدو ورموهم بالنشاب وحركوا حميتهم [2] بالضرب المتواتر فانتحى لهم مقدار مائتى فارس وخرجوا اليهم شاكى السلاح على خيل جياد بعدة تامة وأسلحة كاملة وقصدوهم وليس معهم أحد راجل وداخلهم الطمع فيهم لقلة عدتهم فانهزموا بين أيديهم وهم يقاتلونهم ويقتتلوا حتى أتوا الكمين فثارت عند وصولهم الابطال وصاحوا صيحة الرجل الواحد وهجموا عليه هجمة الاسود

---

(١) انتخبهم : أى انتقاهم .

(٢) حميتهم : أى أنفتهم وحماستهم .

على فرائسها فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالا شديداً ثم ولوا منهزمين فتمكن أولياء الله منهم وأوقعوا فيهم ضربا بالسيف حتى أفنوا منهم جمعا عظيما واستسلم الباقون للاسر فاسروهم وأخذوا خيلهم وعددهم وجاء البشير إلى العسكر الاسلامى فارتفعت الاصوات بالتهليل وركب السلطان يتلقى المجاهدين وسار وكنت فى خدمته حتى أتى تل كيسان فلقينا أوائل القوم فوقف هناك يتلقى العائدين من المجاهدين والناس يتبركون بهم ويشكونهم على حسن صنيعهم وهو يعترى الاسرى ويتصفح أحوالهم . وكان ممن أسر مقدم عسكر الافرنسيس فإنه كان قد انفذ نجدة قبل وصوله وأسر خازن الملك أيضاً وعاد السلطان بعد تكامل الجماعة إلى مخيمه فرحا مسرورا وأحضر الاسرى عنده وأمر مناديا ينادى من أسر أسيرا فليحضر الناس أسرهم وكنت حاضرا ذلك المجلس . ولقد اكرم المتقدمين منهم وخلع [١] عليهم وعلى مقدم عسكر الافرنسيس فروة خاص وأمر لكل واحد من الباقين بفروة جريخة فإن البرد كان شديدا وكان قد أخذ منهم وأحضر لهم طعاما أكلوه وأمر لهم بخيمة تضرب قريبا من خيمته وكان يكارمهم فى كل وقت ويحضر المقدم على الخوان [٢] فى بعض الاوقات وأمن بتنفيذهم وحملهم إلى دمشق حملوا مكرمين وأذن لهم فى أن يراسلوا صاحبهم وان يحضرا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها ففعلوا ذلك وساروا الى دمشق .

ذكر عود العسكر عن الجهاد

ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدو أن يضرب مصاف وطلب البلد وحصاره من شدة الامطار وتوترها أذن السلطان للعساكر فى العود الى بلادهم ليأخذوا نصيبا من الراحة وتجم خيولهم إلى وقت العمل . وكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجر لما كان عنده من القلق فى طلب

---

(١) خلع عليهم : أى أعطاهم .

(٢) الخوان : آله خشبية يوضع عليها الطعام .

الدستور . وكان مسيره خامس عشرى وسار عقيبه فى ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة هذا بعد أن أفيض عليها من التشريف والانعام والتحف عالم ينعم به على غيرهما . وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل فى مستهل ذى القعدة مشرفا مكرما معه التحف والطرائف وتأخر الملك المظفر إلى ان دخلت سنة سبع وثمانين وتأخر أيضاً الملك الظاهر وسار تاسع المحرم سنة سبع وثمانين وسار الملك المظفر فى ثالث صفر ولم يبق عند السلطان الا نفر يسير من الامراء والحلقة الخاصة وفى أثناء ذى القعدة سنة ست وثمانين وفد عليه زلفتدار فتلقاه واكرم مثواه ووضع له طعاما يوم قدومه وباسطه مباسطه عظيمة . وكانت حاجته أن يوقع له باعادة أملاك كانت فى يده ثم انتزعت من أعمال نصيبين والخابور فوقع باعادتها إلى يده واجراء الأمر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهرة وخلع عليه وشرفه وسار فرحا مسرورا شاكرا لأياديه .[1]

ذكر ارتحال السلطان لادخال البدل إلى البلد

ولما هاج البحر وأمنت غائلة مراكب العدو ورفع ما كان له من الشوانى فى البحر الى البر اشتغل السلطان فى ادخال البدل الى عكا وحمل البر والذخائر والنفقات والعدو منها واخراج من كان بها من الامراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهاراً وكان مقدم البلد من البدل الداخل الأمير سيف الدين على المشطوردخل سادس عشر المحرم من شهور سنة سبع وثمانين وفى ذلك اليوم خرج المقدم الذى كان بها وهو الامير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الامراء وأعيان الخلق وتقدم إلى كل من دخل أن يصحب ميرة السنة وانتقل الملك العادل بعسكرة إلى حيفا على شاطىء النهر وهو

---

(١) شاكر لأياديه : أى شاكراً لأفضاله ولله در القائل : له أياد علىّ سابغة أى له أفضال علىّ كثيرة .

الموضع الذى تحمل منه المراكب فتدخل إلى البلد وإذا خرجت تخرج إليه فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس المير والذخائر لئلا يتطرق إليها العدو من يعترضها وكان مما دخل إليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر محملة وتقدم السلطان بتبيعتها من مدة مديدة وكان دخولها ثاني ذى الحجة من السنة الخالية فانكسر منها مركب على الصخر الذى هو قريب من الميناء فانقلب كل من فى البلد من المقاتلة لتلقى البطس . ولما علم العدو ذلك أخذوا غرتهم وزحفوا إلى البلد فى جانب البر زحفة عظيمة وقاربوا الاسوار وصعدوا فى سلم واحد فاندق بهم السلم كما شاء الله تعالى وتداركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين * وأما البطس فإن البحر هاج هياجا عظيما وضرب بعضها على الصخر فهلكت وهلك جميع من كان فيها * قيل كان عددهم ستين نفرا وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة وذلك بتقدير العزيز العليم ودخل على المسلمين بذلك وهن [١] عظيم واحرج السلطان بذلك حرجا عظيما فاستخلف ذلك فى سبيل الله تعالى وما عند الله خير وأبقى * وكان ذلك أول علامات أخذ البلد والظفر به * ولما كانت ليلة السبت سابع ذى الحجة من السنة الحالية قضى الله وقدر أن وقع من السور قطعة عظيمة ونقلها على الباشورة فهدمت أيضا منها قطعة عظيمة وهى العلامة الثانية وقد أخذ العدو الطمع وهاج الزحف هياجا عظيما وجاؤا إلى البلد كقطع الليل المدلهم [٢] من كل جانب وثارت همم الناس فى البلد وقاتلوا العدو قتالا شديداً حتى ضرسوا وأيسوا من أن ينالوا خيرا فوقفوا على سد موضع القطعة الواقعة وجمعوا من فى البلد من البنائين والصناع ووضعوهم فى ذلك الموضع وحموهم بالنشاب والمناجيق فما مرت إلا ليال

(١) وهن : أى ضعف قال تعالى ﴿ وحملته أمه وهنا على وهن ﴾ .

(٢) المدلهم : أى شديد الإظلام .

يسيرة حتى انتظمت وعاد بناؤها أحسن مما كان وأقوى واتقن .

ذكر الظفر بمراكب العدو

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا وقالوا للسلطان نحن نخوض البحر فى براكيس وبطس إلى العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين فاذن لهم فى ذلك وأعطاهم بركوسا وهو المركب الصغير فركبوا فيه وظفروا بمراكب للتجار من العدو وهى قاصدة الى عسكرهم وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة فوقع عليها البركوس وقاتلوهم حتى أخذوهم واكتسبوا منهم مالا عظيما وأسروهم وأحضروهم بين يدى السلطان وذلك فى ثالث عشر ذى الحجة من السنة المذكورة ولقد كنت حاضرا ذلك المجلس وكان من جملة ما أحضروه مائدة فضة وعليها مكبة مخرمة من فضة فاعطاهم السلطان الجميع ولم يأخذ منهم شيئاً وفرح المسلمون بنصر الله عليهم بأيديهم .

ذكر موت ابن ملك الالمان

وذلك أن العدو لما دخل الشتاء عليهم وتوارت الأنداء واختلفت الأهواء وخم المرج [1] وخما عظيما وقع معه موتان عظيما وانضم إلى ذلك الغلاء الزائد وانسد عليهم البحر الذى كان يجيئهم منه الميرة من كل جانب وكان يموت منهم كل يوم المائة والمئتان على ما قيل وقيل اكثر من ذلك ، ومرض ابن ملك الالمان مرضا عظيما وعرض له مع ذلك مرض الجوف فهلك به فى الثانى والعشرين من ذى الحجة سنة ست وثمانين وحزن الافرنج عليه حزنا عظيما واشعلت له نيران هائلة بحيث لم يبق له خيمة إلا واشعلت فيها الناران والثلاثة بحيث بقى عسكرهم كله نار وفرح المسلمون بذلك بمثل ما حزن الكفار بفقده وهلك منهم كبير يقال له الكند بالياط

---

(١) المرج : الاختلاط والفتنة والاضطراب .

ومرض الكندهرى وأشرف على الهلاك وفى الرابع والعشرين منه أخذ منهم بركوسان فيها نيف وخمسون نفرا وفى الخامس والعشرين منه أخذ منهم أيضا بركوس وجميع ما فيه وكان من جملة ما فيه ملوطة مكانة باللؤلؤ وهى من تفاصيل الملك وقيل كان فى البركوس ابن أخيه وأخذ أيضا .

ذكر غارة أسد الدين

وهذا أسد الدين هو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير وهو صاحب مصر . وكان من حديثه أن السلطان كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الافرنج بطرابلس ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلاحين فى تلك الناحية وأنه قيل له أن إفرنج طرابلس قد أخرجوا جشارهم وخيلهم الى مرج هناك وأبقارهم ودوابهم وأنه قد قرر مع عسكره قصدهم فخرج على غرة منهم وهجم على جشارهم فأخذ منهم الخيل أربعمائة راس ومئة من البقر فهلك من الخيل أربعون وسلم الباقى وعاد إلى البلد ولم يفقد من أصحابه أحد ووصل الكتاب بذلك فى رابع صفر من سنة سبع وثمانين .

ذكر وقائع عدة في هذه السنة

وفى ثالث ربيع الأول كان اليزك للحقة السلطانية وخرج من العدو اليهم خلق عظيم وجرى بينهم وقعة شنيعة وقتل فيها من العدو جماعة وقتل منهم رجل كبير على ما قيل ولم يفقد من المسلمين إلا خادم للسلطان يسمى قراقوش وكان شجاعا عظيما له وقعات عظيمة كثيرة استشهد فى ذلك اليوم * وفى تاسع الشهر بلغ السلطان أن العدو يخرج منه طائفة يتفسحون لبعدنا عنهم فاقتضى رأية أن أنفذ أخاه الملك العادل وفى خدمته خلق عظيم من العساكر الاسلامية وأمره أن يكمن للعدو وراء التل الذى كانت فيه الواقعة المعروفة به فسار هو وجمع كان كمن كبراء أهله وأصحابه فكمن وراء تل العياضية وكان ممن كان معه من كبار أهله الملك المظفر تقى الدين وابنه

ناصر الدين محمد والملك الأفضل ولده ومعه صغار أولاد الملك الاشرف محمد والملك المعظم طور انشاه والملك الصالح إسماعيل وكان من المعممين [١] الفاضل والديون وكنت فى الصحبة فى ذلك اليوم وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد وناوشوا العدو فلم يخرج من ذلك اليوم وكان قد وشى إليهم بحلية الامراء إلا أن ذلك اليوم لم ينفك إلا بنوع تصرفاته وصل فى اثنائه خمسة وأربعون نفراً من الافرنج كانوا قد أخذوا فى بيروت وسيروا إلى السلطان ووصلوا فى ذلك اليوم إلى ذلك المكان . ولقد شاهدت منه رقة قلب لم ير أعظم منها وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن فى السن لم يبق فى فمه ضرس ولم تبق له قوة إلا مقدار تحرك لا غير فقال للترجمان قل له ما الذى حملك على المجيء وأنت فى هذا السن وكم من ههنا إلى بلادك فقال بلادى بينى وبينها عده أشهر . وأما مجيئى فإنما كان للحج إلى القمامة فرق له السلطان ومَنّ عليه وأطلقه وأعاده راكبا على فرس إلى عسكر العدو . ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم فى قتل أسير فلم يفعل فسألته عن سبب المنع وكنت حاجبهم بما طلبوه فقال لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ويهون عليهم ذلك وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر . ولما أيس من خروج العدو عاد المخيم فى عشيه ذلك اليوم .

ذكر وصول العساكر الاسلامية والملك افرنسيس

ومن ذلك الوقت انفتح الباب وطاب الزمان وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر من أمر الملك الظاهر وكان شيخا كبيراً مذكوراً له وقائع ذا رأى حسن والسلطان يحترمه ويكرمه وله قدم صحبة * ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فخر شاه وهو صاحب بعلبك وتتابعت بعد ذلك العساكر الاسلامية من كل

---

(١) أى من العلماء والفقهاء .

صوب [١] * وأما عسكر العدو فإنهم كانوا يتواعدون اليزك ومن يقاربهم بقدوم الملك افرنسيس وكان عظيما عندهم مقدما محترما من كبار ملوكهم تنقاد إليه العساكر بأسرها بحيث إذا حضر حكم على الجميع ولم يزالوا يتواعدون بقدومه حتى قدم فى ست بطس تحمله وميرته وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة

نادرة وبشارة

وكان قد صحبه من بلاده باز [٢] عظيم هائل الخلق أبيض اللون نادر الجنس مارأيت أحسن منه وكان منه وكان يعزه ويحبه حبا عظيما فشذ الباز من يده وطار وهو يستجيئه ولا يجيئه حتى سقط على سور فى عكا فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان وقد كان لقدومه روعة عظيمة واستبشار عظيم بالظفر به فتفاءل المسلمون بذلك وبذل الافرنج ألف دينار فلم يجابوا وقد بعد ذلك كندوفرند وكان مقدما عظيما عندهم مذكوراً فذكروا أنه حاصر حماه وحارم فى عام الرمله * ولما كان الثانى عشر من ربيع الآخر وصل كتاب من اللازقية أن كان جماعة من المسأمنين قد أعطوا براكيس ليكسبوا عليها فى البحر من العدو فأخذوها ونزلوا فى جزيرة قبرص فى عيد لهم وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة فى بيعة قريبة من البحر وأنهم صلوا معهم صلاة العيد وأنهم فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من البيعة من الرجال والنساء وأخذوهم عن آخرهم حتى القس وحملوهم والقوهم فى ركابهم وساروا بهم حتى أتوا اللازقية وكان من جملة ما كان فيها سبعة وعشرون امرأة وأموال عظيمة فتقسموها فوصل إلى كل واحد على ماقيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة بعد ذلك بدر الدين شحنة دمشق فى

---

(١) الصوب : أى الناحية .

(٢) الباز : طائر مفترس قوى له مخالب من فصيلة الصقور .

سابع عشر ربيع الآخر وهجم أصحابنا على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا فركب فى طلبها الراجل والفارس فلم يظفروا منها بشيء*

ذكر ملك الانكتار

وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوى الهمة له وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب وهو دون الفرنسيس عندهم فى الملك والمنزلة لكنه اكثرهم مالا منه وأشهر فى الحرب والشجاعة * وكان من خبره أنه وصل الى جزيرة قبرص ولم ير ان يتجاوزها الا وان تكون له وفى حكمه فنازلها وقاتلها فخرج اليه صاحبها وجمع له خلقا عظيما وقاتلهم قتالا شديدا فأنفذ الانكتار الى عكا يستنجد اليه الملك جفرى أخاه ومعه مائة وستون فارسا ليعينوه على مقصوده وبقيت الافرنج على عكا ينتظرون ما يكون من الطائفتين * وفى سلخ ربيع الآخر وصلت كتب من بيروت انه قد أخذ من مراكب الانكتار القاصدة نحو عسكر العو وخمس مراكب وطرادة فيها خلق عظيم رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك وفيها أرعون فارسا وكان ذلك فتحاً عظيما استبشر به المسلمون * وفى رابع جمادى الاولى زحف العدو الى البلد ونصبوا عليه مناجيق سبعة ووصلت كتب عكا بالاسينفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم فاعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل الى مضايقة العدو وقاربته وأصبح على أهبة المسير الى العدو ورتب العساكر ثم أنفذ من كشف حال العدو وحال خنادقهم هل فيها كمين أم لا فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين فسار بنفسه فى نفر يسير من مماليكه إلى خنادقهم وصعد جبلا كان يعرف بتل الفضول قريباً من العدو مشرفاً على خيمهم وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها وما هو بطال ثم عاد إلى مخيمه وأنا فى خدمته وفى صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر قط أخذ من أمه سرقة .

ذكر قصة الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم الرجال [١] وكان من قصتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر وساروا به حتى أتوا إلى خيمة السلطان وعرضوه عليه وكان ما يأخذونه يعرضونه عليه ويعطيهم ماأخذوه * ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم فقالوا أنه رحيم القلب وقد أذنا لك فى الخروج فاخرجى واطلبيه منه فإنه يرده عليك فخرجت تستغيث إلى اليزك فاخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وانفذوها إلى السلطان فلقيته وهو راكب وأنا فى خدمته وفى خدمته خلق عظيم فبكت بكاء شديداً ومرغت وجهها فى التراب فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودمعت عينه وأمر باحضار الرضيع فوجدوه قد بيع فى السوق فارتده وأمر بدفع ثمنه إلى المشترى وأخذه منه ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل وسلم إليها فاخذته وبكت بكاء شد يداً وضعته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون وأنا واقف فى جملتهم فارضعته ساعة ثم أمر بها فحملت على فرس والحقت بعسكرهم مع طفلها فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر[٢] اللهم انك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك ياذا الجلال والاكرام وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرأفة والكرم شعر

ومليحة شهدت لها ضراتها والحسين ليس لحقه من منكر

وفى ذلك اليوم وصل ظهر الدين بن البلنكرى وكان مقدما عظيما من أمراء الموصل مفارقا لهم يطلب خدمة السلطان ولما عاد السلطان إلى مخيمه لم يلبث إلا ساعة حتى وصله الخبر بتجديد الزحف فعاد وركب من ساعته

---

(١) وذلك مباح شرعاً حيث أن الحرب خدعة .

(٢) فإن رسول الله ﷺ أخبرنا بأن الله يرحم الرحماء وورد عنه أنه قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن » .

نحو البلد وقد انفصل الحرب بدخول الليل من الطائفتين *

ذكر انتقال السلطان إلي تل العياضية

ولما كانت صبيحة الثلاثاء تاسع جمادى الأولى بلغ السلطان الافرنج قد ضايقوا البلد وركبوا المناجيق فأمر الجاويش أن صاح بالناس وركب لركوبه العسكر راجلهم وفارسهم حتى أتى الخروبة وقوى اليزك بتسيير جماعة من العسكر إليه فلم يخرج العدو واشتد زحفهم على البلد فضايقهم رحمه الله مضايقة عظيمة وهجم عليهم فى خنادقهم ولم يزل كذلك حتى عادوا من الزحف ظهر نهار وعاد العدو إلى خيمه وقد أيس من أمر البلد وعاد السلطان إلى خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل فيها من الشمس فنزل بها لصلاة الظهر والاستراحة ساعة وقوى اليزك وأمر الناس بالعود الى المخيم لأخذ جزء من الراحة وكنت خدمته فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزحف لما أحسوا بانصرافه عنهم أشد ما كانوا أولا فأمر من نبه الناس وأمر بالعود فتراجعت العساكر إلى جهة العدو أطلابا أطلابا وأمر بالمبيت على أخذ لامه الحرب وأقام هو هناك على عزم المبيت وفارقت خدمته آخر نهار الثلاثاء وعدت إلى الخيم وبات هو وجميع العسكر على تعبية القتال طول الليل وأصر طائفة منهم على مضايقة العدو ثم سار العسكر أواخر ليلة الأربعاء عاشر الشهر إلى تل العياضية قبالة العدو وضربت له عليه خيمة لطيفة ونازل العدو فى ذلك اليوم جمع بالقتال الشديد والضرب المبرح المتواتر الذى لايفتر شغلا لهم عن الزحف وهو يدور بين الاطلاب ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه . ولما رأى العدو تلك المنازلة الهائلة خافوا من الهجوم عليهم فى خيمهم فرجعوا عن الزحف واشتغلوا بحفظ الخنادق وحراسة الخيم . ولما رأى فتورهم عن الزحف عاد إلى العياضية ورتب على خنادقهم من يخبره بحالهم ساعة فساعة إذا رجعوا إلى الزحف كل ذلك دفعاً للعدو عن مضايقة البلد والزحف عليه .

ذكر الشروع في مضايقة البلد

ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم فى طم خندقه [1] أنهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم بأسرها وآل الأمر إلى أن كانوا يلقون فيه موتاهم وكانوا إذا جرح منهم أحد جراحة مؤلمة مثخنة القوة فيه بهذا جميعه تواصلت كتب أصحابنا من البلد * وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساما قسم ينزلون فى الخندق يقطعون الموتى والدواب التى يفوتها فيه قطعا ليسهل نقلها . وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه فى البحر * وقسم يذبون [2] عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك وقسم فى المنجنيقات وحراسة الأسوار وأخذ منهم التعب والنصب وتواترت شكايتهم من ذلك * وهذا ابتلاء لم يبل بمثله أحد ولا يصبر عليه جلد [3]. وكانوا يصبرون والله مع الصابرين . هذا والسلطان لا يقطع الزحف على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلا ونهارا حتى أثرت فيه الأثر البين وكلما ازدادوا فى قتال البلد ازداد هو فى قتالهم وكبس خنادقهم والهجوم عليهم حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدث معه فلما أخبر السلطان بذلك قال إن كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد فأما نحن فليس لنا إليكم حاجة ولا شغل ودام ذلك متصلا الليل مع النهار حتى وصل الانكتار *

ذكر وصول الانكتار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان قدومه روعة عظيمة ووصل فى خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد وأظهر الافرنج سرورا عظيما حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيرانا عظيمة فى خيامهم ولقد

---

(١) طم خندقه : أى ردمه بالطلاب .

(٢) يذبون : أى يدافعون .

(٣) جلد : أى صبور شديد .

كانت النيران مهولة تدل على عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقفون فيما يريدون فيما يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه فإنه ذو رأى فى الحرب مجرب وأثر قدومه فى قلوب المسلمين خشية ورهبة * هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه *

ذكر غرق البطسة الاسلامية
وهي العلامة الثالثة علي أخذ البلد

ولما كان السادس عشر وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والأسلحة والمسير والرجال والابطال المقاتلة وكان السلطان قد أمر بتعبيتها وتسييرها من بيروت ووضع فيها من المقالتة خلقاً عظيما حتى تدخل البلد مراغمة [١] للعدو وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا ـ فاغرقها الانكتار فى عدة شوان قيل كان فيها أربعون قلعاً فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا فى قتالها .. يرى القصاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالا عظيما وقتل من العدو عليها خلق عظيم وأحرقوا للعدوا شانياً كبيراً فيه خلق عظيم فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدمهم رجلا جيداً شجاعاً مجريا فى الحرب فلما رأى أمارات الغلبة عليهم وأنهم لابد وان يقتلوا قال والله لانقتل إلا عن عزم ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً فوقعوا فى البطسة من جوانبها بالمعاول [٢] فهدموها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها عن جانب أيواباً فامتلأت ماء فغرق جميع من فيها من الآلات والمير وغير ذلك ولم يظفر العدو منها بشيء وكان اسم المقدم المذكور يعقوب من رجال حلب وتلقف العدر بعض من كان فيها فأخذوه الى

---

(١) مراغمة : أى غصبا وقهراً .

(٢) المعاول : آلات الهدم كالقدوم وما شابه ذلك ولكن لها أسنان مدببه تساعد على عملها مفردها (معول) .

الشواني من البحر وخلصوه من الغرق وأنفذوه إلى البلد لخبرهم بالواقعة وحزن الناس لذلك حزناً شديداً والسلطان يتلقى ذلك بيد الإحتساب فى سبيل الله والصبر على بلائه والله لايضيع أجر المحسنين .

ذكر حريق الدبابة

وذلك أن العدو كان قد اصطنع دبابة عظيمة هائلة أربع طبقات الطبقة الاولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعلوا على السور وكان يركب فيها المقاتلة وخاف أهل البلد منها خوفاً عظيماً وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على مايشاهد برأى العين وأخذ أهل البلد فى تولية ضربها بالنفط ليلا ونهاراً حتى قدر الله تعالى حرقها واشتعال النار فيها وظهر لها ذؤابة [1] نار نحو السماء فاشتدت الأصوات بالتهليل والتكبير ورأوا الناس فيها لما ظهرت لها تلك النيران ولقوا جبرا من ذلك الوهن ومحوا لذلك الأثر ونعمة وايناساً بعد يأس وكان ذلك فى يوم غرق البطسة فوقع من المسلمين موقعاً عظيماً وكان مسلياً [2] لحزنهم

ذكر وقعات عدة

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر الشهر زحف العدو على البلد زحفا عظيما وضايقوه مضايقة شنيعة وكان قد استقر بيننا وبينهم أنهم متى زحف العدو عليهم دقوا كؤوسهم فضربوا بكؤسهم فأجابت كؤوس السلطان وركبت العساكر وضايقهم السلطان من خارج وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم فى خيامهم فجاوزوا خنادقهم وأخذوا القدور وما فيها

---

(١) الذؤابة : قمة الشيء وعاليه .

(٢) التسلى : نسيان الشيء والاشتغال عنه .

وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيء عند السلطان وأنا حاضر ولم يزل القتل فيهم يعمل حتى أيقن العدو أنه قد هجم عليه فأخذوا يتراجعوا عن قتال البلد وشرعوا فى قتال العساكر وانتشب الحرب بينهم ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة وغشى الناس من الحر أمر عظيم من الجانبين وتراجعت الطائفات إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب والحر .

ولما كان يوم الاثنين الثالث والعشرون دق كؤوس البلد فجاوبه كؤوس السلطان وثار القتال بين الطائفتين ولج العدو فى مضايقة البلد ثقة منهم إن الناس لا يهجمون على خيمهم وأنهم يهابونها فكذب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضاً ونهبوا منها فتراجع العدو إلى قتالهم ووقع الصياح فيهم فلحقوا من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم وجرى بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين وجرح جماعة وقتل جماعة من العدو . وأعجب مافى هذه الوقعة أنه كان وصل فى هذا اليوم رجل كبير مذكور من أهل مازندران يريد الغزاة فوصل والحرب قائمة فلقى السلطان فاستأذنه فى الجهاد وحمل حملة شديدة واستشهد فى تلك الساعة ولما رأى العدو دخول المسلمين إلى خنادقهم وتوغلهم إلى داخل أسوارهم داخلهم الحمية [1] وبعثتهم النخوة فركب فارسهم وصحبه راجلهم وخرجوا إلى ظاهر أسوارهم وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثبوتا عظيما يتحركوا من أماكنهم والتحم القتال من الجانبين واشتد الضرب من الطائفتين وصبر المسلمون صبرا الكرام ودخلوا فى الحرب بالتحام فلما رأى العدو ذلك الصبر المعجب والاقدام المزعج أنفذوا رسولا فى غضون ذلك يستأذنون بالرسول فى الوصول فأذن له فوصل الرسول أولا الى الملك العادل فاستصحبه ووصل به الى الخدمة السلطانية ومعه أيضاً الملك الافضل فأدى الرسالة وكان حاصلها أن ملك الانكتار يطلب الاجتماع

---

(١) الحمية : أى الحماس والغيرة .

بالسلطان فلما سمع السلطان الرسالة أجاب عنها فى الحال من غير تفكر وا ترو بأن قال أن الملوك لايجتمعون إلا عن قاعدة ولايحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمواكلة واذا أراد ذلك فلابد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ولا بد من ترجمان نثق به فى الوسط يفهم كل واحد منا ما يقول الآخر فليكن بيننا ذلك الترجمان فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك ان شاء الله تعالى ولما كان يوم السبت الثامن والعشرون خرج العدو راجلهم وفارسهم من جانب البحر شمالى البلد وعلم السلطان ذلك فركب ركب العسكر وانتشب القتال بين الطائفتين وقتل من المسلمين بدوى وكردى وقتل من العدو جماعة وأسروا واحداً بسلاحه وفرسه ومثل بين يدى السلطان ولم يزل القتال يعمل حتى حال الليل بين الطائفتين ، ولما كان اليوم التاسع والعشرون خرج العدو برجالة كثيرة على شاطىء النهر الحلو فلقيهم طائفة من اليزك وجرى بينهم قتال عظيم ووصلت رجالة من المسلمين إلى الحرب فأسروا مسلما وقتلوه وأحرقوه وأسر المسلمون منهم واحداً فقتلوه وأحرقوه [1] ولقد رأيت النارين تشتعلا فى زمان واحد ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد بالاحتفال بأمر العدو والشكوى من ملازمة قتالهم ليلا ونهارا وذكر ماينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من جزيرة قدوم الانكتار ثم مرض مرضاً شديداً أشفى فيه على الهلاك وخرج الفرنسيس ولم يزدهم ذلك إلا إصراراً وعتواً وكان لأخت ملك الانكتار خادمان مسلمان فى الباطن كانا فى خدمتها فى صقلية وكانت هى زوجة صاحب صقلية فلما مات ومر أخوها بالبلد أخذها وأصحابها معه إلى العسكر وهرب الخادمان إلى العسكر الاسلامى فقبلهما السلطان وأنعم عليهما إنعاما عظيما .

(١) من المعروف أن الاحراق بالنار للاحياء حرام شرعاً وعرفا علاوة على أنه يكون للانسان إلا أن المسلمين فعلوه من قبيل العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم .

ذكر هرب المركيس إلي صور

ولما كان يوم الاثنين سلخ جمادى الأولى استشعار المركيس أنه إن أقام قبضوا عليه وأعطوا صور للملك القديم الذى كان قد أسره السلطان لما عاناه من الأسر فى نصرة دين المسيح . ولما صح ذلك عنده هرب إلى صور فانفذوا خلفه قسياً ليردوه فلم يفعل وسار فى البحر حتى أتى صور وشق ذلك عليهم وعظم لديهم فإنه كان ذا رأى وشجاعة وخبرة .

* * *

ذكر وصول بقية عساكر الإسلام

وفى سلخ جمادى الأولى قدم عسكر سنجار يقدمه مجاهد الدين برتقش فلقيه السلطان واحترمه وكان ديناً [١] عاقلا محبا للغزو فانزله السلطان فى الميسرة بعد أن أكرمه وانزله فى خيمته وفرح بقدومه فرحا شديدا فى ذلك الوقت ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر كعلم الدين كرجى وسيف الدين سنقر الدوادار وجماعة عظيمة ثم قدم بعد ذلك علاء الدين صاحب الموصل وعسكرهم فلقيه السلطان بالخروبة ونزلوا هناك الى بكرة اليوم الثانى من جمادى الآخرة وأصبح سائرا حتى أتى بجحفله [٢] قبالة العدو وعرض عسكره هناك وأنزله السلطان فى خيمته وحمل له من المتحف وقدم له من اللطائف مايليق بكرمه وأنزله فى الميمنة ، وفى الثالث طائفة من عسكر مصر أيضا ، واشتد مرض الانكتار بحيث شغل الافرنج شدته عن الزحف وكان ذلك خيرة عظيمة من الله تعالى فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما وضاق بهم الخناق وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، هذا واللصوص يدخلون إلى خيامهم ويسرقون أقمشتهم

---

(١) ديناً : أى صاحب دين وعقيدة سليمة .

(٢) الجحفل : الجيش العظيم .

ويأخذون الرجال غفلة بان يجيئوا إلى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ويوقظوه ويقولوا له بالاشارة إن تكلمت ذبحناك ويحملوه ويخرجوا به إلى العسكر وجرى ذلك مرارا وعساكر المسلمين تجتمع وتواتر من كل جانب حتى تكامل وصولها

ذكر وصول رسولهم إلي السلطان

كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمس من جانب الانكتار أن يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاودا فى المعنى وكان فى حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه إلى السلطان واستقر أنه رأى أن يأذن له فى الخروج ويكون الاجتماع فى المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان فلما أذن فى ذلك تأخر الرسول أياما عنده بسبب مرضه واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا عليه وأنكرو عليه ذلك وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول لاتظن تأخرى بسبب ماقيل فإن زمام قيادى مفوض إلى وأنا أحكم ولايحكم على غير أفى هذه الأيام أعترى مزاجى التياث [1] منعنى من الحركة فهذا كان العذر فى التأخير لاغير وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا [2] وعندى ما يصلح للسلطان وأنا أستخرج الاذن من إصاله إليه فقال له الملك العادل قد اذن فى ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية فرضى الرسول بذلك وقال الهدية شيء من الجوارح قد جلب من وراء البحر وقد ضعف فيحسن أن يحمل إلينا طير ودجاج حتى نطعمها لنقوى ونحملها فداعبه الملك العادل وكان فقيها فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج إلى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث الرسالة فى الآخر على أن قال الرسول ما الذى أردتم منا إن كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع فقيل

---

(١) الإلتياث : أى التعب والمرض .

(٢) يتهادوا : أن يتبادلوا الهدايا .

له عن ذلك نحن ماطلبناكم أنتم طلبتمونا فإن كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع وانقطع حديث الرسالة إلى سادس جمادى الآخرى فخرج رسول الانكتار إلى السلطان ومعه انسان مصرى قد أسروه من مدة طويلة وهو مسلم قد أهداه إلى السلطان فقبله وأحسن إليه وأعاد مشرفا مكرما إلى صاحبه وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ماعنده من ذلك أيضا .

ذكر قوة زحفهم على البلد ومضايقته

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمناجيق المتواصلة والضرب وتقتلوا أحجارها حتى خلخلوا سور البلد وأضعفوا بنيانه وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال حتى أن جماعة منهم بقوا ليالى عدة لاينامون أصلا لا ليلا ولا نهارا والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم وهم نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن ولما أحس العدو بذلك وظهر لهم تخلل السور وتقلقل بنيانه شرعوا فى الزحف من كل جانب وانقسموا أقساما وتناوبوا فرقا كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه وشرعوا في ذلك شروعا عظيما براجلهم وفارسهم سابع الشهر ، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلا ونهاراً ، ولما علم السلطان ذلك باخبار من يشاهده واظهار العلامة التى بيننا وبينهم وهى دق الكؤوس ركب وركب العسكر إليهم وجرى فى ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين وهو كالوالدة الثكلى [1] يحول بفرسه من طلب إلى طلب ويحث [2] الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه فى ذلك اليوم مرتين والسلطان يطوف بين الاطلاب بنفسه وينادى ياللاسلام وعيناه تذرفان بالدموع وكلما نظر إلى

---

(١) الثكلى : أى التى فقدت أولادها .

(٢) يحث : أى يحرض .

عكا وماحل بها من البلاء وما يجرى على ساكنيها من المصاب العظيم اشتد فى الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم فى ذلك اليوم طعاما البته وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب وتأخرت عن حضور هذا الزحف لإلمام مرض شوش مزاجى لما عرانى فكنت فى الخيمة فى تل العياضية وأنا أشاهد الجميع ، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن فنام عن تعب لاعن عفو .

ولما كان سحر تلك الليلة أمر الكؤوس أن دقت وركب العساكر من كل جانب وأصبحوا على ما أمسوا عليه وفى ذلك اليوم وصلت مطالعة عن البلد يقولون فيها إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية مابعدها إلا التسليم ونحن فى الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشترى مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكى فى قلوبهم فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الاسلامية واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الاسلام كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما وكان قراقوش ملتزما بحراستها منذ نزل العدو عليها وأصاب السلطان مالم يصبه شيء مثله وخيف على مزاجه التشويش وهو لايقطع ذكر الله والرجوع إليه فى جميع ذلك صابرا محتسبا ملازما مجتهداً والله لايضيع أجر المحسنين فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم فصاح فى العساكر الصائح وركبت الابطال فاجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف ولم يساعده العسكر فى ذلك اليوم على الهجوم على العدو فإن رجالته وقفوا كالسور المحكم إلينا بالسلاح والزنبوك والنشاب من وراء أسوارهم وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا [1] غاية الذب (ولقد حكى) بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد افرنجى صعد سور خندقهم واستدبر المسلمين

---

(١) ذبوا : أى دافعوا .

وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق وقال أنه وقع فيه زهاء خمسين سهما وحجراً ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة فارقه (ولقد حكى) لي شيخ عاقل جندى أنه كان من جملة من دخل قال وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فمازلت ترمينا بقوس من خشب حتى خرجت منا جماعة وتكاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحملناه إلى السلطان فعجب من ذلك عجبا عظيما ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح حتى فصل بينهم الليل .

ذكر ما آل إليه أمر البلد من الضعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد والافرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليها من جانب وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع وتمكن العدو من الخنادق فملكوها وتمكنوا من سور الباشورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشوا النقب ووقعت بدنة من الباشورة ودخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفراً وصاعدا وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد منهم لاتقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية فبادر رجل من الاكراد فقتله وقتل الخمسة الأخرى وفي الغد نادى الافرنج احفظوا الستة فإنا نطلقكم كلكم بهم فقالوا قد قتلناهم فحزن الافرنج لذلك حزناً عظيما وطلبوا الزحف بعد ذلك أياما ثلاثة .

وبلغنا أن سيف الدين المشدوب خرج بنفسه إلى ملك الفرنسيس بالامان وقال له أخذنا منكم بلادا عدة وكنا نهجم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الامان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم واكرامهم ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا فأجابه بأن هؤلاء الذين أخذتوهم منا وأنتم أيضا

مماليكي وعبيدى فأرى فيكم رأى وبلغنا أن المشدوب بعد ذلك أغلظ له فى القول وقال أقاويل كثيرة فى ذلك المقام منها أنا لانسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسون نفساً من كباركم وانصرف عنه .

ولما دخل المشدوب البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا فى البلد فأخذوا بركوسا وركبوا فيه ليلا خارجين إلى العسكر الاسلامى منهم أرسل وابن الجاوى وسنقر الوشاقى فأما أرسل وسنقر فإنهما تغيبا فى العسكر ولم يعلم لهما مكان خشية من نقمة السلطان . وأما ابن الجاوى فظفر به ورمى فى الزردخانة .

وفى سحر تلك الليلة ركب السلطان مشعرا أنه يواصل كبس القوم ومعه المساحى وآلات طم الخنادق فما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا عن ذلك وقالوا نخاطر بالاسلام كله ولامصلحة فى ذلك .

وفى ذلك اليوم خرج من الانكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجاً وذكروا أن مقدم الانكتار يخرج فى الغد يتحدث فى معنى الصلح غير أن السلطان اكرمهم سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم .

وفى ذلك اليوم تقدم إلى صارم الدين قايماز النجمى حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم وترحل جماعة من أمراء الاكراد كالجناح وأصحابه وهو المشطوب وزحفوا حتى وصلوا أسوار الافرنج ونصب قايماز بنفسه علمه على سورهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار ووصل فى ذلك اليوم عز الدين جرديك النورى وسوق الزحف قائم فترجل هو وجماعته وقاتل قتالا شديداً واجتهد الناس اجتهاداً عظيماً .

وفى العاشر أصبح القوم ساكنين عن الزحف والعساكر الاسلامية محدقة بهم وقد باتوا ليلتهم متقلدى السلاح راكبى ظهور خيلهم منتظرين عسى

أن تمكنهم مساعدة إخوانهم المقيمين بعكا ويهجموا على طرف من الافرنج فيكسروهم ويخرجوا يحمى بعضهم بعضا ويخرج العسكر يجاوهم من هذا الجانب فيسلم من يسلم ويؤخذ من يؤخذ فلم يقدروا على الخروج وكان قد ثبت ذلك معهم فلم يتهيأ لهم فى تلك الليلة خروج بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان فأخبر العدو بذلك فاحتاطوا بهم وحرسوهم حراسة عظيمة

ولما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسل ثلاثة واجتمعوا بالملك العادل وتحادثوا معه ساعة زمانية وعادوا ولم ينفصل الحال وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج فى مقالة العدو وباتوا على مثل ذلك .

ولما كان السبت الحادى عشر لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركة عظيمة بحيث إنهم اعتقدو إن كان مصاف واصطفوا وخرج من الباب الذى تحت القبة زهاء [1] أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزيدانى وذكرور أنه صاحب صيداً طليق السلطان فحضر العدل وجرى مبادىء أحاديث فى معنى اطلاق العسكر الذى بعكا واشتطوا فى ذلك اشتطاطا عظيما وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حال .

* * *

ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الاحد ثانى عشر وصلت كتب يقولون فيها انا قد تبايعيا على الموت ولانزال نقاتل حتى نقتل ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء فانظروا أنتم كيف تعملون فى شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا فهذه عزايمنا واياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا لهم فانا نحن قد فات أمرنا وذكر العوام [2]

---

(١) زهاء : أى ما يقرب من ..

(٢) هذا العوام قد يكون هو عيسى العوام البطل الاسلامى الذى مر ذكره .

الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الافرنج أن عسكرا عظيما عبر إلى عكا وسلم وسار فيها قال وجاء انسان افرنجي فوقف تحت السور وصاح الى بعض من على السور وقال له بحق دينك إلا ما أخبرتني كم عدد العسكر الذى دخل إليكم البارحة يعني ليلة السبت وكان قد وقع بالليل صوت وانزعج الطائفتان ولم يكن له حقيقة فقال له ألف فارس فقال لا لكنه دون ذلك أنا رأيتهم لابسين ثيابا خضرا .

ثم تتابعت العساكر الاسلامية واندفع كيد العدو عن القوم فى تلك الأيام بعد أن كان قد أشرف البلد على الأخذ ، وفى يوم الخميس سادس عشر وصل أسد الدين شيركوه واشتد ضعف البلد وكثرت ثغر سوره وجاهد المقيمون فيه وبنوا عرض الثلم سوراً من داخلها حتى إذا تم بناؤه اقتتلوا عليه، واشتد ثبات الافرنج على أنهم لايصالحون ولا يعطون الذين فى البلد أمانا حتى يطلق جميع الأسارى الذين فى أيدى المسلمين وتعاد البلاد الساحلية إليهم وبذل لهم تسلم البلد وما فيه دون من فيه فلم يفعلوا وبذل لهم أيضا مع ذلك صليب الصلبوت فلم يفعلوا واشتد عتوهم واستفحل أمرهم وضاقت الحيل عنهم ومكروا والله خير الماكرين .

ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوام من الثغر ونطقت الكتب عنهم أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وكثرت الثغر وعجزوا عن الحفظ والدفع ورأوا عين الهلاك وتيقنوا أنه متى أخذت البلدة عنوة [1] ضربت أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والاسلحة والمراكب وغير ذلك فصالحهم على ان يسلمون إليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ومئتى الف دينار وألف وخمسمائة فارس أسير

---

(١) عنوة : أى غصبا .

مجاهيل الاحوال ومائة فارس معينين من جانبهم يختاروهم وصليب الصلبوت ويخرجون بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم وضمنوا للمركيس عشرة آلاف دينار لأنه كان واسطة ولأصحابه أربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك .

* * *

ذكر استيلاء العدو علي عكا

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها أنكر ذلك انكارا عظيما وعظم عليه هذا الأمر وجمع أرباب المشورة وشاورهم فيما يصنع واضطرب الامراء وتقسم فكره وتشوش وعزم على أن يكتب فى الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه وهو فى مثل هذا الحال فما أحسن المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك فى ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الأخرى سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصاح الافرنج صيحة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس فى تلاوة إنا لله وإنا اليه راجعون (١) وغشى الناس بغتة عظيمة وحيرة شديدة ووقع فى العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب وكان كل قلب حظ فى ذلك قدر ايمانه ولكل انسان نصيب من هذا الخطب على مقدار ديانته ونخوته وانقشعت الحال على أنه قد استقرت القاعدة بين أهل البلد وبين الافرنج على ذلك الحال المتقدم وأن المركيس دخل البلد ومعه أعلام الملوك فنصب علما على القلعة وعلما على مأذنة الجامع فى يوم الجمعة وعلما على برج القتال عوضا عن علم الإسلام وحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد وجرى على أهل الاسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه ومثلت

---

(١) إنا لله وإنا إليه راجعون كلمة تقال عند المصيبة وهى تسمى الاسترجاع فإنه لا يقولها عند المصيبة إلا كل مؤمن بقضاء الله تعالى وقدره .

فى خدمة السلطان وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى ، والمولهة الحراء فسليته بما تيسر من التسلية وأذكرته فى الفكر فيما يستقبله من الامر فى معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال فى ذلك واعمال الفكر فى خلاص المسلمين المأسورين فى البلد وذلك فى ليلة السبت الثامن عشر وانفصل الحال على أن رأى التأخير عن تلك المنازلة مصلحة فإنه لم يبق فى المضايقة معنى فتقدم ينقل الاثقال ليلا إلى المنزلة التى كان عليها أولا بشفرعم وأقام هو جريدة فى مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد وأقام هو راضياً راجياً من الله تعالى إنه ربما حملهم غرورهم بالخروج إليه والهجوم عليه فينال منهم غرضاً ويلقى نفسه عليهم ويعطى الله النصر لمن شاء فلم يفعل العدو شيئا من ذلك واشتغلوا بالاستيلاء على البلد والتمكن منه فقام إلى بكرة التاسع عشر من الشهر وانتقل إلى الثقل وفى ذلك خرج منهم ثلاثة نفر مع الحاجب قوس صاحب بهاء الدين قراقوش وكان رجلا عاقلا مستخبرين ما وقع عقد الصلح عليه من المال والاسرى فاقاموا ليلة مكرمين وساروا إلى دمشق يبصرون الأسارى فى الحادى والعشرين وانفذا السلطان رسولا الى الفرنج يسألهم كيف جرت الحال ويستعلم كم مدة تحصيل ما وقعت عليه المصالحة واستقرت عليه المهادنة .

* * *

ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك

ولما كان سلخ الشهر خرج الافرنج من جانب البحر شمالى البلد وانتشروا انتشاراً عظيما راجلهم وفارسهم وضربوا اطلابا للقتال فاخبر اليزك بذلك السلطان فدق الكؤوس وركب وانفذ إلى اليزك وقواه برجال كثيرة وتوقف حتى ركبت العسكر الاسلامية واجتمعوا فوقع بين اليزك وبين العدو وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليزك وكان اليزك قد قوى بما

أنفذ اليه [1] فحملوا على العدو حملة عظيمة فانكسر العدو من بين أيديهم وانهزمت الخيالة وسلمت الرجالة وظنوا أن وراء اليزك كمينا فاشتدوا نحو خيامهم ووقع اليزك فى الرجالة فقتل منهم زهاء خمسين نفراً ولم يزل السيف يعمل فيهم حتى دخلوا خنادقهم .

وفى ذلك اليوم وصل رسل الافرنج الذين ساروا إلى دمشق ليتفقدوا حال أسراهم ووصل معهم من مميزى أسراهم أربعة نفر ووصل فى عشيته أيضا رسل السلطان فى تحرير أمر الأسارى المسلمين الذين كانوا بعكا ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان تاسع رجب .

خروج ابن باريك

وفى ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهرانى ومعه اثنان من أصحاب الانكتار فاخبرنى أن الملك أفرنسيس سار إلى صور وذكروا فى تحرير أمر الأسارى وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وأنه فى العسكر أو حمل إلى بغداد فاحضر صليب الصلبوت وشاهدوه وعظمو ه ورموا نفوسهم إلى الارض ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان أن يكون ماوقع عليه القرار تروم ثلاثة كل شهر ترم ، ثم أرسل السلطان رسولا الى الفرنسيس سار اليه الى صور بهدايا سنية وطيب كثير وثياب جميلة

وفى صبيحة العاشر من رجب انتقل السلطان بحلقته وخواصه إلى تل ملاصق لشفرعم ونزلت العساكر فى منازلهم على حالهم قريبا من منزلته الأولى ليس بينهما إلا الوادى ولم تزل الرسل تتواتر فى تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ماكانوا التمسوه من الأسرى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليت ومائة الف دينار وستمائة أسير وانفذوا ثقاتهم وشاهدوا

---

(١) أنفذ إليه : أى أرسل اليه .

الجميع ماعدا الاسارى المعينين من جانبهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقصرون الزمان حتى انقضى الترم الاول فى ثامن عشر رجب ثم انفذوا فى ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان أما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتستلموا الذى عين لكم من هذا الترم ونعطيكم رهائن على الباقى تصل إليكم فى ترومكم الباقية وأما أن تعطونا رهائن على مانسلم إليكم إلى أن يخرج إلينا أصحابنا فقالوا لاتفعل شيئاً من ذلك بل تسلمون إلينا مايقضيه هذا الترم وتقنعون بأيماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لايؤمن غدرهم ويكون وهن الاسلام عند ذلك وهنا عظيما لا يكاد ينجبر .

ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا رحمهم الله

ولما رأى الانكتار الملعون توقف السلطان ببذل المال والاسرى والصليب غدر بأسرى المسلمين وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم ونسائهم وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى فغدرهم الملعون وأظهر ماكان أبطن وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسرى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد وركب هو وجميع العسكر الافرنجية راجلهم وفارسهم فى وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب وساروا حتى أتوا الآبار التى تحت تل العياضية وقدموا خيامهم إليها وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وبين العياضية ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته فى ذلك اليوم وكانوا زهاء ثلاثة آلاف في الحبال وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم صبرا ضربا وطعنا بالسيف واليزك الاسلامى يشاهدون ولايعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم وكان اليزك قد أنفذوا الى السلطان وأعلموه بركوب

القوم ووقوفهم فأنفذ إلى اليزك من قواه وبعد ان فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب قتل فيها وجرح من الجانبين ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الفريقين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا الشهداء فى مصارعهم وعرفوا من عرفوه منهم فغشى المسلمين من ذلك حزن عظيم وكآبة شديدة ولم يبقوا إلا رجلا معروفاً مقداما أو قوى يد لعمائرهم ، وذكر لقتلهم أسباب منها انهم قتلوهم فى مقابلة من قتل منهم وقيل ان الانكتار كان قد عزم على السير الى عسقلان للاستيلاء عليها فما رأى أن يخلف تلك العدة فى البلد وراءه والله أعلم ،

ذكر مسير العدو إلي عسقلان وانتقاله إلي طرف البحر من جانب الغرب

ولما كان التاسع والعشرون من رجب رحل الافرنج بأسرهم وقلعوا خيامهم وحملوها على دوابهم وساروا حتى قطعوا النهر الى الجانب الغربى وضربوا الخيام على طريق عسقلان وأظهروا العزم على المسير عى شاطىء البحر وأمر الانكتار باقى الناس أن يدخلوا إلى البلد وكانوا قد سدوا ثغره وثلمه [1] أو أصلحوا ما انهدم منه وكان مقدم العسكر الخارج السائر الانكتار وجمع عظيم من الرجالة والخيالة ، ولما كان مستهل شعبان اشتعلت نيران العدو فى سحر ذلك اليوم وعادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم وأخبر اليزك بحركاتهم فأمر السلطان الثقل أن يرفع حتى يبقى الناس على ظهر ففعل الناس ذلك وهلك من الناس قماش كثير وحوائج كثيرة من السوقة لم تكن معهم خيل ولا ظهر يحمل جميع ماعندهم لأن كل انسان كان يحصل ما يحتاج إليه فى أشهر وكل واحد من السوقة عنده ما ينفذ من منزل إلى منزل فى مرار معتددة لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلف فيه

---

(١) ثلم الجدار وغيره ثلما : أحدث فيه شقا .

أحد لقربه من الافرنج الذين بعكا والخوف منهم ، ولما أن علا النهار شرع العدو فى السير على جانب البحر وتفرقوا قطعا كثيرة كل قطعة تحمى عن نفسها وقوى السلطان اليزك وأنفذ معظم العساكر قبالتهم فمضوا وقاتلوهم قتالا شديدا وانفذوا ولده الملك الأفضل يخبر أنه قطع طائفة منهم عن الموافقة ولقد نازلناهم بالقتال ولو قوينا لأخذناهم فسير السلطان خلقاً عظيما من العسكر وسار هو بنفسه وأنا فى خدمته حتى أتى أوائل الرمل فلقينا الملك العادل فأخبر أخاه ان تلك الطائفة قد التجأت بالطائفة الأولى ومعظم القوم قد عبروا نهر حيفا وقد نزلوا والباقون قد لحقوا بهم وليس للمسير وراءهم حاصل إلا إتعاب العسكر وضياع النشاب لاغير فتراجع السلطان عن القوم لما تحقق ذلك وأمر طائفة من العسكر أن تسير وراء الثقل تلحق ضعيفهم بقويهم وتكف عنهم أن يلحق بهم من العدو والطماعة وسار هو حتى وصل إلى القيمون عصر ذلك النهار فنزل وضرب له الدهليز [1] وشق دائرة حوله لا غير واستحضر الجماعة فاكلوا شيئاً واستشارهم فيما يفعل .

المنزل الثاني اتفق رأى جماعة على أنهم يرحلون بكرة عند هذا وقد رتب حول الافرنج يزكا يبيتون حوله يرقبون أمره . ولما كان صباح ثانى شعبان رحل السلطان الثقل وأقام هو يترصد أخبار العدو فلم يصل منهم شيء إلى أن علا النهار فثار فى أثر الثقل حتى أتى قرية يقال لها الصابغين فجلس ساعة يترقب أخبار العدو وكان قد خلف جرديك قريب العدو وتعقب خلق عظيم باتوا قريب العدو فلم يصله خبر أصلا فسار حتى أتى الثقل فى منزلة يقال لها عيون الأساود ولما بلغنا المنزل رأى خياما فسأل عنها فقيل أنها خيام الملك العادل فعدل لينزل عنده فأقام عنده ساعة ثم أتى خيمته وفقد الخبز فى هذه المنزله بالكلية وغلا الشعير حتى بلغ درهما وبلغ رطل البقسماط درهمين ثم أقام السلطان حتى عبر وقت الظهر وركب وسار إلى

(١) الدهليز : المدخل بين الباب والدار (ج) دهاليز .

موضع يسمى الملاحة يكون منزلا للعدو إذا رحلوا من حيفا وكان قد سبق ليفقد المكان هل يصلح للمصاف أم لا ويتفقد أراضى قيسارية باسرها إلى الشعرا وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة وقد أخذ منه التعب وسألته عما بلغه من خبر العدو فقال وصل إلينا من أخبرنا أنه ما رحل من حيفا إلى عصر يومنا هذا يعنى ثانى شعبان وها نحن مقيمون مرتقبون أخبارهم ويكون العمل بمقتضاها وبات تلك الليلة وأصبح مقيما بتل الزلزلة ينتظر العدو ونادى الجاويش بالعسكر للعرض فركب الناس على ترتيب المصاف وابهته . ولما علا النهار نزل السلطان فى خيمته وأخذ نصيبا من الراحة بعد الغداء ومثول جماعة من الأمراء إلى خدمته وأخذ رأيهم فيما يصنعون ثم صلى الظهر وجلس يطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى العشاء الآخرة من مائة دينار إلى مائة وخمسين دينارا وزائد وناقص فما رأيت أفسح صدراً منه ولا أبسط وجهاً فى العطاء واتفق الرأى على رحيل الثقل فى عصر ذلك اليوم إلى مجدل يافا .

المنزل الثالث . وأقام هو جريدة بالمنزل إلى صباح رابع الشهر وركب وسار فى رأس النهر الجارى إلى قيسارية ونزل هناك وبلغ رطل البقسماط أربع دراهم وربع الشعير درهمين ونصفاً والخبز لم يوجد أصلا ونزل فى خيمة وأكل خبزا وصلى الظهر وركب إلى طريق العدو لتجديد ارشاده فى ضرب المصاف ولم يعد إلى أن دخل وقت العصر فجلس ساعة وأخذ جزءاً من الراحة ثم عاد وركب وأمر الناس بالرحيل ورمى خيمته ورمى الناس خيامهم فى أواخر النهار .

المنزل الرابع . وكان الرحيل إلى رابية [1] متأخرة عن تلك الرابية وفى ذلك المنزل أتى باثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فامر بضرب رقابهما فقتلا وتكاثر الناس عليهما بالسيوف تشفيا ثم بات هناك وأصبح مقيما

(١) الرابية : المكان المرتفع عن سطح الأرض .

بالمنزل لأنه لم يصح عن العدو رحيل وانفذ إلى الثقل حتى يعود إليه فى تلك الليلة مما طرأ على الناس من الضيق فى المآكل والقضم وركب فى وقت عادته الى جهة العدو وأشرف على قيسارية وعاد إلى الثقل قريب الظهر وقد وصل الخبر أن العدو لم يرحل بعد من الملاحة وأحضر عنده اثنان أيضا قد أخذا من اطراف العدو فقتلا شر قتلة وكان فى حدة الضيقة لما جرى على أسرى عكا ثم أخذ جزءاً من الراحة وجلس بعد صلاة الظهر وحضرت عنده وقد أحضر بين يدية من العدو فارس مذكور هيئته تخبر عن أنه متقدم فيهم فاحضر ترجمانا وبحث عن أحوال القوم وسأله كيف يسوى الطعام عندكم فقال أول يوم رحلنا من عكا كان الانسان يشبع بستة قراطيس فلم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس وسأل عن سبب تأخرهم فى المنازل فقال لانتظار وصول المراكب بالرجال والميرة فسأل عن القتلى والجرحى فى يوم رحيلهم فقال كثير فسأل عن الخيل التى هلكت فى ذلك اليوم فقال مقدار أربعمائة فرس فأمر بضرب عنقه ونهى عن التمثيل به فسأل الترجمان عما قال السلطان فاخبره بما قال فتغير تغيرا عظيما وقال أنا أخلص لكم أسيرا من عكا فقال رحمه الله بل أميرا فقال لا أقدر على خلاص أمير فشعر الطمع فيه وحسن خلقه فانى ما رأيت أتم خلقا منه مع طرف فى الاطراف ورفاهية فأمر أن يترك الآن ويؤخر أمره فصفده [1] وعاتبه على ما بدا منهم من الغدر وقتل الأسرى فاعترف بأنه قبيح وأنه لم يجر إلا برضا الملك وحده وركب السلطان بعد صلاة العصر على عادته وبعد أن نزل أمر بقتل الفارس المذكور وأتى بعده باثنين فأمر بقتلهما وبات فى ذلك المنزل المذكور . وذكر له فى السحر أن العدو قد تحرك نحو قيسارية وقارب أوائلهم البلد فرأى أن يتأخر من طريق العدو منزلا آخر .

---

(١) صفده : أى شده وأوثقه وفى الحديث ﴿ إذا جاء رمضان غلقت أبواب النار وفتحت أبواب الجنة وصفدت الشياطين ﴾ حديث صحيح .

المنزل الخامس . فرحل ورحل الناس الى قريب التل الذى كنا عليه فنزل الناس وضربت الخيام ومضى هو يرتاد الأراضى الكائنة فى طريق العدو لينظر أيها أصلح للمصاف ونزل قريب الظهر واستدعى أخاه الملك العادل وعلم الدين سليمان وأخذ رأيهما فيما يصنع وأخذ جزءاً من الراحة وأذن الظهر فصلى وركب ليشرف وليكشف عن العدو ويتنسم أخباره وأتاه اثنان من الافرنج قد نهبا فأمر بقتلهما فقتلا ثم أتى باثنين آخرين فقتلا أيضاً وجىء فى آواخر النهار باثنين فقتلا أيضاً وعاد من الركوب وصلى صلاة المغرب وجلس على عادته واستدعى أخاه وصرف الناس وخلا به إلى هزيع [1] من الليل ثم بات وأصبح ونادى الجاويش لعرض الحلقة لا غير وركب الى جهة العدو ووقف على تلول مشرفة على قيسارية وكان العدو قد وصل اليها نهار الجمعة سادس شعبان ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار ثم نزل وأكل الطعام وركب إلى أخيه وعاد بعد صلاة الظهر وأخذ جزءاً من الراحة وجلس وأتى بأربعة عشر من الافرنج وامرأة افرنجية بينهم أسيرة وهى بنت الفارس المذكور ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأطلقت المسلمة ورفع الباقون إلى الزردخانة وهؤلاء أتى بهم من بيروت أخذوا فى مركب من جملة عدة كثيرة فقتلوا كل ذلك فى نهار السبت سابع الشهر وهو فى المنزلة ينتظر رحيل العدو مجمعا على لقائه إذا رحل .

المنزل السادس . ولما كان صبيحة الثامن ركب السلطان على عادته ثم نزل ووصله من أخيه أن العدو على حركة وكانت الاطلاب قد بانت حول قيسارية فى مواضعها فأمر بمد الطعام وأطعم الناس فوصل ثان وأخبر أن القوم قد ساروا فأمر بالكؤوس فدقت وركب الناس وسار وسرت فى خدمته حتى أتى عسكر العدو وصف الاطلاب حوله وأمرهم بقتالهم وأخرج الجيش فكان النشاب بينهم كالمطر وكان عسكر العدو قد رتب فكانت الرجالة حوله

(١) الهزيع من الليل : نحو الثلث أو الربع الأول منه (ج) هُزُع .

كالسور وعليهم اللبود الثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأخرون وهم يرموننا بالزنبورك فيخرج خيل المسلمين وخيالتهم ولقد شاهدتهم ويتغرز فى ظهر الواحد منهم الواحد والعشرة وهو يسير على هيئته من غير انزعاج . وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم فإذا تعبت هذه المقاتلة أو أثخنتهم [1] الجراح قام مقامهم المستريح واستراح القسم المقاتل . هذا والخيالة فى وسطهم لا يخرجون عن الرجالة إلا فى وقت الحملة لا غير وقد انقسموا أيضاً ثلاثة أقسام . القسم الأول الملك العتيق جفرى وجماعة الساحلية معه فى المقدمة والانتكار والفرنسيس معه فى الوسط . وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أخرى فى الساقة وفى وسط القوم برج على عجلة على ما وصفته من قبل أيضا كالمنارة العظيمة هذا ترتيب القوم على ما شاهدته وأخبر به من خرج منهم من الأسرى والمستأمنين وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة والمسلمون يرمونهم بالنشاب [2] من جوانبهم ويحركون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا شديداً ويقطعون الطريق على هذا الوضع ويسيرون سيراً رقيقاً ومراكبهم تسير فى مقابلتهم فى البحر إلى أن أتوا المنزل وكانت منازلهم قريبة لاجل الرجالة فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عندهم فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة عن غير دين ولا نفع وكانت منزلهم قاطع نهر قيسارية يسر الله فتحها .

المنزل السابع . ولما كانت صبيحة التاسع وصل من أخبر أن العدو قد ركب سائراً فركب السلطان أول الصبح وطلب الاطلاب وأخرج من كل جانب جيشا فسار يطلب القوم فاتاهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام

---

(١) أثخنتهم الجراح : أى أتعبتهم وأوهنتهم .

(٢) النشاب : أى النبل واحدته نشابه .

وطاف الجيش حولهم من كل جانب ورموهم بالنشاب وهم سائرون ثلاثة أقسام على المثال الذى حكيته وكلما ضعف قسم عاونه الذى يليه وهو يحفظ بعضهم بعضا والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب والقتال بينهم شديد والسلطان يقرب الاطلاب ورأيته وهو يسير بنفسه بين الجيش ونشاب القوم يجاوزه وليس معه إلا صبيان بجنبيه لا غير وهو يسير من طلب إلى طلب يحدثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم والكؤوس تخفق والبوقات تنعر والصياح بالتهليل والتكبير يعلو . هذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون وجرت حالات كثيرة ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبوك والنشاب ولم نزل حواليهم نقاتلهم ونحمل عليهم وهم يكرون بين أيدينا ويفرون [١] إلى أن أتوا نهراً يقال له نهر القصب ونزلوا عليه وقد قامت الظهيرة وضربوا خيامهم وتراجع الناس عنهم فإنهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس منهم ورجعوا عن قتالهم وفى ذلك اليوم قتل من فرسان الاسلام شجاع اسمه إياز الطويل بعض مماليك السلطان وكان قد فتك فيهم وقتل خلقا من خيالتهم وشجاعتهم وكانت قد فاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الأوائل وسار بحيث إذا عرفه الافرنج فى موضع يخافونه تقنطرت به فرسه واستشهد وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما ودفن على تل مشرف على البركة ونزل السلطان بالثقل على البركة وهى موضع يجتمع فيه مياه كثيرة وأقام فى تلك المنزلة إلى بعد صلاة العصر وأطعم الناس خبزاً واستراحوا ساعة ثم رحل وأتى نهر القصب ونزل عليه أيضا فشرب منه قليل من أعلاه والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا إلا مسافة يسيرة وبلغ ربع الشعير أربعة دراهم والخبز موجود كثيرا وسعر الرطل بنصف درهم وأقام ينتظر رحيل الافرنج حتى يرحل الافرنج حتى يرحل فى مقابلتهم فباتوا وبتنا أيضا .

---

(١) يفرون : أى يتقهقرون ويهربون .

ذكر وقعة جرت

وذلك أن جماعة من العسكر الاسلامى كانوا مشرفين على العدو فصادفوا جماعة منهم يشرفون أيضا على العسكر الاسلامى وظفروا بهم وهجموا عليهم وجرى بينهم قتال عظيم فقتل من العدو جماعة وأحس بهم عسكر العدو فثار إليهم منهم جماعة واتصل بالحرب وقتل أيضا من المسلمين نفران وأسر من العدو ثلاثة ومثلوا بخدمة السلطان فسألهم عن الاحوال فاخبروا أن ملك الانتكار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان وأنهما أخبراه بقلة العسكر الاسلامى وذلك الذى أطمعه حتى خرج وانه لما كان بالأمس يعنى يوم الاثنين رأى من المسلمين قتالا عظيما واستكثر الاطلاب وأنه رجح زهاء ألف نفر وقتل جماعة وأن ذلك هو الذى أوجب اقامته اليوم حتى يستريح عسكره وأنه لما رأى ما أصابهم من القتال العظيم وكثرة المسلمين أحضر البدوين عنده وأوقفهما وضرب أعناقهما . وأقمنا فى ذلك اليوم فى تلك المنزلة لإقامة العدو بها وهو ثلاثاء العاشر من شعبان .

المنزل الثامن . ولما كان ظهر اليوم المذكور رأى السلطان الرحيل والتقدم إلى أقدام العدو فدق الكؤوس ورحل الناس ودخل فى شعرا أرسوف حتى توسطها إلى تل عند قرية تسمى دير الراهب فنزل هناك ودهم الناس الليل فتقطعوا فى الشعر وأصبح مقيما ينتظر بقية العساكر إلى صباح الاربعاء الحادى عشر وتلاحقت العساكر وركب يرتاد موضعا يصلح للقتال ولقاء العدو وأقام ذلك اليوم أجمع هناك . ومن أخبار العدو فى تلك المنزلة أنه أقام على نهر القصب ذلك اليوم أيضاً وأنه لحقته نجدة من عكا فى ثمان بطس كبار واليزك الاسلامى حوله يواصلون الاخبار المستجدة بهم وجرى بين اليزك وبين حشاشة [1] العدو قتال وجرح من الطائفتين .

(١) حشاشة العدو : أى البقية الباقية من العدو وهى كلمه تدل على القله والضعف والحشاشه بقية الروح فى جسم المريض .

ذكر مراسلة جرت في ذلك اليوم

وذلك أن العدو طلب من اليزك من يتحدث معه وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان فإنها كانت نوبته فلما مضى إليهم من سمع كلامهم كان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معه فاستأذن ومضى وبات تلك الليلة فى اليزك وتحدثوا معه وكان حاصل حديثهم أنا قد طال بيننا القتال وقد قتل من الجانبين الرجال الابطال وأنا نحن جئنا فى نصرة افرنج الساحل فاصطلحوا أنتم وهم وكل منا يرجع إلى مكانه وكتب السلطان إلى أخيه فى صبيحة يوم الخميس والثانى والعشرين رقعة يقول له فيها « ان قدرت ان تطاول الافرنج فلعلهم يقيمون اليوم حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منا» .

ذكر اجتماع الملك العادل والابتكار

ولما علم الانتكار وصول الملك العادل إلى اليزك طلب الاجتماع به فأجابه إلى ذلك فاجتمعا بفرقة من أصحابهما وكان يترجم بينهما ابن الهنفرى وهو من أفرنج الساحل من كبارهم ورأيته يوم الصلح وهو شاب حسن إلا أنه محلوق اللحية على ما هو شعارهم . وكان الحديث بينهما أن الانتكار شرع فى ذكر الصلح وأن الملك العادل قال له أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان فقال له الانتكار القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا وتنصرفوا إلى بلادكم فأخشن له[1] الجواب وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهم . ولما أحس السلطان برحيلهم أمر الثقل بالرحيل ووقف هو وعبى الناس تعبية القتال وسار الثقل الصغير أيضا حتى قارب الثقل الكبير ثم ورد أمر السلطان بعودهم إليه فعادوا ووصلوا وقد دخل الليل وتخبط الناس تلك الليلة تخبطا عظيما

---

(١) أخشن له الجواب : أى رد عليه رداً غليظا شديدا .

واستدعى أخاه ليعرفه ما جرى بينه وبين الملك وخلا به لذلك وذلك فى ليلة الجمعة ليلة الثالث عشر . وأما العدو فإنه سار ونزل على موضع يسمى البركة أيضا يشرف على البحر وأصبح السلطان فى يوم الجمعة متطلعا إلى أخبار العدو فأحضره عنده اثنان من الافرنج قد تخطفهما اليزك فأمر بضرب أعناقهما ووصل من أخبر أن العدو لم يرحل اليوم من منزلته تلك فنزل السلطان واجتمع باخيه يتحدثان فى هذا الامر وما يصنع مع العدو وبات تلك الليلة فى تلك المنزلة .

* * *

ذكر وقعة أرمون وهي أنكت في قلوب المسلمين

ولما كان يوم السبت الرابع عشر بلغ السلطان أن العدو حرك الرحيل نحو إرسوف فركب ورتب الاطلاب للقتال وعزم على مضايقتهم فى ذلك اليوم ومصادمتهم وأخرج الجاليش من كل طلب وسار العدو حتى قارب شعرا أرسوف وبساتينها فاطلق عليهم الجاليش النشاب وأحاطتهم الاطلاب من كل جانب والسلطان يقرب بعضها ويوقف بعضها ليكون ردأ ويضايق العدو مضايقة عظيمة والتحم القتال واضطرمت ناره من الجاليش [1] وقتل منهم وجرح فاشتدوا فى السير عساهم يبلغون المنزله فينزلوا واشتد بهم الأمر وضاق بهم الخناق والسلطان يطوف من الميمنة إلى الميسرة يحث الناس على الجهاد ولقيته مرارا ليس معه إلا صبيان بجنبيه لا غير ولقيت أخاه وهو على مثل هذه الحال والنشاب يتجاوزهما ولم يزل الأمر يشتد بالطمع للعدو وطمع المسلمون فيهم طمعاً عظيما حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساتين أرسوف ثم اجتمعت الخيالة وتواصلوا على الحملة خشية على القوم ورأوا أنهم لا بنجيهم إلا الحملة . ولقد رأيتهم وقد اجمعوا فى وسط الرجالة وأخذوا ما

---

(١) هكذا بالأصل لعلها تكون (الجيش) .

لهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفرج لهم رجالتهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب فاندفع الناس بين أيديهم وانفق أنى كنت فى القلب ففر القلب فرار عظيما فنويت التحيز إلى الميسرة وكانت أقرب إلى ووصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة وفرت أشد فرار من الكل فنويت التحيز إلى طلب السلطان وكان ردأ الأطلاب كلها كما جرت العادة ولم يبق للسلطان فيه إلا سبعة عشر مقاتلا لاغير وأخذ الباقون إلى القتال لكر الاعلام كلها باقية ثابتة والكؤوس تدق لا تفتر وأما السلطان لما رأى ما نزل بالمسلمين من هذه النازلة سار حتى أتى إلى طلبه فوجد فيه هذا النفر القليل فوقف فيه والناس ينفرون من الجوانب وهو يأمر من يحضره عنده وفى الجملة ما قصر الناس بفرارهم فإن العدو حمل حملة ففروا ثم وقف خوفا من الكمين فوقفوا وقاتلوا ثم حمل حملة ثالثة حتى بلغ إلى رؤوس رواب هناك وأعالى تلول ففروا إلى أن وقف العدو ووقفوا وكان كل من رأى طلب السلطان واقفا والكؤوس تدق يستحى أن يجاوزه ويخاف غائلة ذلك فيعود إلى الطلب فاجتمع فى القلب خلق عظيم ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابى والسلطان واقف فى طلبه والناس يجتمعون عليه حتى أتت العساكر بأسرها وخاف العدو أن يكون فى الشعرا كمين فتراجعوا يطلبون المنزلة وعاد السلطان فى أوائل الشعرا ونزل عليه فى خيمته . ولقد كنت فى خدمته أسليه وهو لا يقبل السلو وأظلل عليه بمنديل وسألناه ان يطعم شيئا فاحضر له شيء لطيف فتناول شيئا يسير وبعث الناس للسقى فإن المكان كان بعيدا وجلس ينتظر الناس من العود من السقى والجرحى يحضرون بين يدية وهو يتقدم بمداوتهم وحملهم وقتل فى ذلك اليوم رجالة كثيرة وجرح جماعة من الطائفتين . وكان ممن ثبت الملك العادل والطواشى قايماز النجمى والملك الافضل ولده وصدم فى ذلك اليوم وانفتح دمل كان فى وجهه وسال

منه دم كثير على وجهه وهو صابر محتسب في ذلك كله وثبت أيضاً طلب الموصل ومقدمة علاء الدين وشكره السلطان على ذلك وتفقد الناس بعضهم بعضاً فوجدوا أن قد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم شخصان أمير كبير مملوك وكان شجاعا معروفاً وقايماز العادل وكان مذكوراً وليفوش وكان شجاعا وجرح خلق كثير وخيول كثيرة وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه وأخذت منهم خيول أربعة وكان تقدم رحمه الله إلى الثقل أن يسير إلى العوجاء وذكر أن المنزل يكون على العوجاء فاستأذنته وتقدمت إلى المنزل وجلس هو ينتظر اجتماع العساكر وما يرى من أخبار العدو وكان العدو قد نزل على أرسوف قبلنا .

المنزل التاسع : وسرت بعد صلاة الظهر حتى أتيت الثقل وقد نزل قاطع النهر المعروف بالعوجاء في منزلة خضراء طيبة على جانب النهر ووصل السلطان إلى المنزلة أواخر النهار وازدحم الناس على القنطرة فنزل على تل مشرف على النهر ولم يعد إلى الخيمة وأمر الجاويش أن ينادى في العسكر بالعبور إليه وكان في قلبه من الوقعة أمر لا يعلمه إلا الله تعالى والناس بين جريح الجسد وجريح القلب وأقام السلطان الى سحر الخامس عشر ودق الكؤوس وركب الناس وسار راجعاً الى جهة العدو حتى وصل الى قريب أرسوف وصف الاطلاب للقتال رجاء خروج العدو ومسيره حتى يصاف فلم يرحل العدو في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح وأقام قبالتهم الى آخر النهار وعاد الى منزلته التي بات فيها . ولما كانت صبيحة السادس عشر دق الكؤوس وركب الناس وسار نحوهم ووصل خبر العدو أنه قد رحل طلباً جهة يافا فقاربهم مقاربة عظيمة ورتب الاطلاب ترتيب القتال وأخرج الجاليش وأحدق العسكر الاسلامى بالقوم وألقوا عليهم من النشاب ما كان يسد الأفق وقاتلت قلوبهم قتال الحنق [1] وقصد رحمه

(١) الحنق : أى العضب والحقد والكراهية .

الله تحريك عزائمهم على الحملة حتنى اذا حملوا ألقى الناس عليهم وقصدوهم ويعطى الله النصر لمن يشاء فلم يحملوا وحفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عادتهم حتى اتوا نهر السوجاء وهو النهر الذى منزلتنا أعلاه فنزل في أسفله وعبر بعضهم الى غربى النهر وأقام الباقون من الجانب الشرقى فلما علم الناس بنزولهم تراجع الناس عنهم وعاد السلطان الى الثقل ونزل فى خيمته وأطعم الطعام وأتى باربعة من الافرنج قد أخذتهم العرب ومعهم امرأة فرفعوا إلى الزردخانات وأقام بقية ذلك اليوم يكتب الكتب إلى الأطراف باستحضار بقيه العساكر وحضر من أخبر أنه قتل من العدو يوم ارسوف خيول كثيرة وأنه تتبعها العرب وعدوها فزادت على مائة وأمر السلطان ان رحلت الجمال وتقدمت إلى الرملة وبات هو بتلك المنزلة .

المنزل العاشر : ولما كان سابع عشر صلى الصبح ورحل ورحل معه الثقل الصغير وسار يريد الرملة وأتى باثنين من الافرنج فضرب أعناقهم ووصل من اليزك من أخبر ان العدو رحل من يافا وسار السلطان إلى أن أتى الرملة وأتى باثنين من الافرنج أيضاً فسألهم عن أحوالهم فذكروا أنهم ربما أقاموا بيافا أياما وفى أنفسهم عمارتها وشحنها بالرجال والعدد فأحضر السلطان أرباب مشورته وشاورهم فى أمر عسقلان وأنها تخرب أو تبقى وأتفق الرأى على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفه من العسكر مقارب العدو ليعرف أحوالهم واتصالها وان يسير هو ويخرب عسقلان خشية أن يستولى عليها الافرنج وهى عامرة فيقتلوا من بها من المسلمين ويأخذوا بها القدس الشريف ويقطعوا بها طريق مصر وخشى السلطان من ذلك وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان مقيما بها ويخيفوا الناس عن الدخول الى عسقلان فادخرت القوة فى عسكر الاسلام لحفظ القدس المحروس فتعين لذلك خراب عسقلان فسار الثقل والجمال من أول الليل ونقدم الى ولده الملك الافضل ان سار عقيب الثقل نصف الليل وسار

هو وأنا فى خدمته سحر الاربعاء .

المنزل الحادى عشر : وهو على عسقلان . ولما كان يوم الاربعاء ثامن عشر الشهر وصل السلطان إلى بيتا فنزل بها ضحى وأخذ الناس راحة ثم رحل وسار حتى أتى أرض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيدا منها فبات هناك مهموما بسبب الخراب وما نام إلا قليلا . ولقد دعانى فى خدمته سحرا وكنت فارقت خدمته بعد مضى نصف الليل فحضرت وبدأ بالحديث فى معنى خرابها واحضر ولده الملك الافضل وشاوره فى ذلك وطال الحديث فى المعنى . ولقد قال لى والله لأن أفقد أولادى بأسرهم أحب الى من أن أهدم منها حجراً واحداً ولكن إذا قضى الله ذلك لحفظ مصلحة المسلمين كان ثم استخار الله تعالى فأوقع الله فى نفسه أن المصلحة فى خرابها لعجز المسلمين عن حفظها فاستحضر الوالى قيصر بها وهو من كبار مماليكه وذوى الآراء منهم فأمره بجمع العمال فيها ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه مستقر الناس للخراب وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من الناس العسكر بدونه معلومة وبرجا معلوما يخربونه ودخل الناس البلد ووقع الضجيج والبكاء وكان بلدا نضرا خفيفا على القلب محكم الاسوار عظيم البناء مرغوبا فى سكناه فلحق الناس عليه حزن عظيم وعظم عويل أهله على مفارقة أوطانهم وشرعوا فى بيع مالا يمكن حمله فبيع ما يساوى عشرة دراهم واحد واختبط البلد وخرج أهله الى العسكر بذراريهم ونسائهم خشية أن يهجم الافرنج وبذلوا فى الكراء أضعاف ما يساوى قوم إلى مصر وقوم إلى الشام وقوم يمشون إذ لم يقع لهم كراء وجرت أمور عظيمة وفتنة هائلة لعلها لم تختص بالذين ظلموا وكان هو بنفسه وولده الملك الافضل يستعملان الناس فى الخراب والحث عليه خشيه أن يسمع العدو فيحضر ولا يمكن خرابها وبات الناس فى الخيام على أتم حال من التعب والنصب وفى تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل أن الافرنج تحدثوا معه فى الصلح

وأنه خرج إليه ابن الهنفرى وتحدث معه وأنه طلب جميع البلاد الساحلية فرأى السلطان أن ذلك مصلحة لما رأى فى أنفس الناس من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة وكثرة ما علاهم من الديون وكتب اليه يسمح فى الحديث فى ذلك وفوض أمر ذلك إلى رأيه وأصبح فى العشرين على الاصرار على الخراب واستعمال الناس فيه وحثهم عليه وأباحهم الهرى الذى كان ذخيرة فى البلد للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من هجوم الافرنج وأمر بحرق البلد فأضمرت النار فى بيوته ودووره ورفض أهله بواقى الأقمشة للعجز عن نقلها والأخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا وكتب الملك العادل يخبران القوم لم يعلموا بخراب البلد وان سوف القوم وطول الحديث لعلنا نتمكن من الخراب وأمر بحشو أبراج البلد بالأحطاب وأن أحرق وأصبح الحادى والعشرون فركب يحث الناس ودام يستعملهم على التخريب ويطوف عليهم بنفسه حتى التاث مزاجه التياثا قويا امتنع بسببه من الركوب والغذاء يومين وأخبار العدو تتواصل إليه فى كل وقت ويجرى بينهم وبين اليزك والعسكر وقعات وقلبات وهو يواظب على الحث على الخراب ونقل الثقل إلى قريب البلد ليعاونوا الغلمان والحمالين وغيرهم من ذلك فخرب من السور معظمه وكان عظيم البناء بحيث انه كان عرضه فى مواضع تسعة أذرع وفى مواضع عشرة أذرع وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض السور الذى ينقبون [١] فيه مقدار رمح ولم يزل التخريب والحريق يعمل فى البلد وأسواره إلى سلخ شعبان [٢] وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم يتفسحون وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها فتحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضاً فى غرتهم [٣] فعزم

(١) ينقبون فيه : أى يثقبونه .

(٢) سلخ شعبان : أى انكشافه ونهايته .

(٣) غرتهم : أى غفلتهم .

على الرحيل على أن يخلف فى عسقلان حجارين ومعهم خيل تحميهم ويستنهضونهم فى الخراب ثم رأى أن يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسبتار وكان برجا عظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة ولقد دخلته وطفته فرأيت بناءه أحكم بناه يقرب من أن لا تعمل فيه المعاول وأنما أراد أن يحرقه حتى يبقى بالحريق قابلا للخراب ويعمل الهدم فيه . وأصبح مستهل رمضان فأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه . ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لحريق البرج ولم يزل الناس ينقلون الخشب ويحشونه فى البرج حتى امتلأ ثم أطلقت فيه النار فاشتمل الخشب وبقيت النار تشتعل فيه يومين بلياليهما ولم يركب السلطان فى ذلك اليوم تسكينا لمزاجه وعرض لى أيضا تشوش مزاج اقتضى انقطاعى عنه فى ذلك اليوم ولقد تردد إلى من سأل عن مزاجى من عنده ثلاث مرات مع اشتغال قلبه بذلك المهم . فالله تعالى يرحمه لقد ماتت محاسن الأخلاق بموته .

ذكر رحيله إلي الرملة

ثم رحل السلطان ثانى رمضان نصف الليل خشية على مزاجه من الحر ووصل بنا ضحوة النهار ونزل فى خيمة أخية واستعلم منه أخبارهم ساعة ثم ركب ونزل فى خيمته وبات فى تلك المنزلة وأصبح ثالث الشهر راحلا الى جهة الرملة فسار حتى أتاها صحوة النهار ونزل بالثقل الكبير نزول اقامة ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً واطعم الناس الطعام وأخذ جزءاً من الراحة وركب بين صلاتى الظهر والعصر وسار الى لدورآها ورأى بيعتها وعظم بنائها قامر بخرابها وخراب قلعة الرملة فوقع الخراب فى الموضعين فى ذلك اليوم وفرق الناس فرقا لتخريب المكانين وارباح ما فيها من التبن والشعير فى الاهراء السلطانية وأمر من كان فيها من المقيمين بالانتقال الى المواضع العامرة وما كان بقى فى المكانين إلا نفر يسير وظل الناس يخربون إلى أن أمسى المساء ثم عاد إلى خيمته وأصبح رابع رمضان فأقام الحجارين فى

المكانين ورتب عليهم من يستنجزهم في ذلك وهو يتردد عليهم في الأصائل[1] حتى جاءت وقت المغرب فمد الطعام وأفطر الناس وانفصلوا الى خيمهم ووقع له ان يشير خفية في نفر يسير يشادوا حوال القدس فسار من اول الليل حتى أتى بيت نوبة فبات فيها حتى أتى الصباح وصلى ثم سار حتى أتى القدس في خامس الشهر وخلف اخاه في العسكر يحث الناس على الخراب واقام ذلك اليوم بتصفيح أحوال القدس في عمارته وميرته وعدته ورجاله وغير ذلك وظفر في ذلك غلمان الطواشي قايماظ بنفر من النصارى ومعهم كتب قد كتبها الوالي الى السلطان قريبة التاريخ يذكر فيها اعواز البلد الغلة والعدة والرجال فوقف على الكتب وضربت رقاب كل من كان معهم وما زال يتصفح أحوال المكان ويأمر بسد خلله الى الثامن وخرج سائر الى العسكر بعد صلاة الظهر فبات في بيت نوبة . وفي هذا اليوم وصل عز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج ارسلان وافدا عليه مستنصراً به على إخوته وأبيه فانهم كانوا يقصدون أخذ بلدة منه فلقيه الملك العادل قاطع لد فاحترمه واكرمه ثم لقيه الملك الافضل وضربت خيمته قريبا من لد وفي ذلك اليوم خرج من العدو الحشاشة فحمل عليهم اليزك ووصل الخبر الى عسكرهم فخرج الى نصرتهم خيالة وجرى بينهم وبين اليزك قتال وذكر بعض الاسرى أنه كان معهم الانتكار وأن مسلما قصد طعنه فحال بينه وبينه افرنجي فقتل الافرنج وجرح هو هكذا ذكروا والله أعلم .

ذكر وصول رسول مركيس

وفي غضون وصل رسول المركيس يذكر أنه يصالح الاسلام بشرط أن يعطى صيدا وبيروت على ان يجاهر الافرنج بالعداوة ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم واشترط أن يبذل للسلطان اليمين على ذلك ابتداء قسير العدل النجيب وحمله الاجابه إلى ملتمسه لقصد فصله عن الافرنج فانه

(١) الأصائل : الوقت حين تصفر الشمس لمغربها مفردها الأصيل .

كان خبيثاً ملعونا وكان قد استشعر منهم أخذ بلده وهى صور فانحاز عنهم واستعصم بصور وهى منيعة فقال ذلك القول لهذا السبب وسار النجيب العدل مع رسوله فى الثانى عشر واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة القوم وحصار عكا وأخذها واطلاق من بها وبصور من الاسرى وعند ذلك يسلم اليه الموضعان وفى عشية ذلك اليوم خرج رسول ملك الانتكار إلى الملك العادل فى تحريك سلسلة الحديث فى الصلح .

ولما كان الثالث عشر من رمضان رأى السلطان ان يتأخر العسكر الجميل ليتمكن الناس من انفاذ دوابهم إلى العلوفة فإنا كنا على الرملة قريبين من العدو ولا يمكن التفريط فى الدواب خشية المهاجمة فرحل ونزل على جبل متصل بجبل النطرون بالثقل الكبير وجمع العسكر ما عدا اليزك على العادة وذلك بعد خراب الرملة ولد ولما نزل هناك دار حول النطرون وأمر بخرابها وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة فشرع فى خرابها .

وترددت الرسل بين الملك العادل والانتكار يذكرون أنه قد سلم أمر الصلح إلى الملك العادل وأخلد إليه وخرج فى عشرة أنفس إلى اليزك فاخبروه بأخبار طيبة وكتب بها إلى السلطان فى السابع عشر وكان مما أخبره به أخوه أن الملك افرنسيس مات كان موته بانطاكية عن مرض عرض له وان الانتكار عاد الى عكا وكان سبب عوده أنه صح عند مراسلة المركيس للسلطان وبلغه أن المركيس قد انتظم الحال بيننا وبينه وأنه قد استقرت القاعدة على عكا فعاد هو الى عكا ففسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس اليه فركب السلطان إلى اليزك واجتمع بأخيه هناك وسأله عن الاخبار وعاد الى المخيم وقت العصر وأتى باثنين من الافرنج قد تخطفهم اليزك فاخبروا بصحة موت الافرنسيس وعود الانتكار الى عكا .

ذكر مسير الملك العادل إلى القدس

ولما كان التاسع عشر اقتضى الحال تفقد القدس والنظر فى عمارتها وكان الملك العادل قد عاد من اليزك وعلم بعد مسير مقدمى الافرنج عنه أى أن يكون هو الذى يسير فسار فى هذا اليوم لهذا الغرض .

وفى تاريخ هذا اليوم وصل الكتاب من تقى الدين يخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن يلدكز قفز عليه أصحابه فقتلوه وقيل ان ذلك كان من تحت يد زوجته تعصباً للسلطان طغريل وجرى بسبب قتله خبط عظيم فى بلاد العجم وكان قتله فى أوائل شعبان من هذه السنة .

ولما كان الحادى والعشرون من رمضان قدم الملك العادى من القدس وفى هذا التاريخ وصل كتاب من الديوان العزيز النبوى يذكر فيه قصد الملك المظفر تقى الدين خلاط ويذكر فيه العناية التامة ببكتمر ويشفع فى حسن ابن قفجاق والتقدم باطلاقه وكان قد قبض عليه مظفر الدين بن زين الدين باريل ويتقدم بمسير القاضى الفاضل الى الديوان لبث حال وفصل أمر وسير الكتاب الى الفاضل ليقف عليه ويكتب الى تقى الدين .

ذكر أخبار اليزك كان على عكا ولصوص دخلوا في خيام العدو

ولما كان الثاني والعشرون أحضر لصوص فرسا وبغلة قد دخلوا إلى خيم العدو وسرقوهما وكان قد رتب رحمه الله ثلاثمائة لص من شلوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم ويسرقون الرجال أحيانا وذلك أنه يكون الواحد منهم نائما فيوضع على حلقه الخنجر ثم يوقظ فيرى الشلح وقد وضع الخنجر على نحره فيكست ولا يتجاسر أن يتكلم فيحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيم ويؤخذ أسيراً وتكلم منهم جماعة فنحروا فصار من أصابة ذلك لا يتكلم واختاروا الاسر على القتل وداموا على ذلك

مدة طويلة الى انتظام الصلح .

وفى ذلك اليوم وصل من اليزك من أخبر أنهم خرجوا من عكا يتفسحون وأن اليزك حمل عليهم فأسر منهم أحدا وعشرين نفسا وأن الأسرى أخبروهم بصحة عود الانتكار الى عكا وأنه مريض بها وخبروا عن ضعف أهل عكا وفقرهم وقلة الميرة عندهم . وفى هذا التاريخ وصل للعدو مراكب عدة قيل انها وصلت من عكا وان فيها الانتكار قد عاد بجماعة عظيمة ليقصد عسقلان ويعمرها وقيل يقصد القدس والله أعلم .

ولما كان الرابع والعشرون وصل الاسرى المذكورون من الزيب وكان وصولهم فرحا للمسلمين مبشرا بكل خير وفيه وصل رسول من الانتكار معه حصان الى الملك العادل فى مقابلة هدية كان انفذها اليه . وفيه وصل خبر وفاة حسام الدين لاجين بدمشق لمرض كان اعتراه فصعب على السلطان موته وشق عليه وفيه وصل كتاب من سامة يذكر فيه أن البرنس أغار على حبلة واللاذقية وانه كسر كسرة عظيمة وقتل منه جماعة وعاد إلى أنطاكية .

ذكر رسول الملك العادل إلي الانتكار

ولما كان السادس والعشرون كان اليزك لعادل فطلب الانتكار رسوله فأنفذ الصنيعة وهو كاتبه . وكان شابا حسنا فوصل اليه وهو فى بازور قد خرج فى جمع كثير من الرجالة وانبثوا فى تلك الأرض فاجتمع به وسار معه زمناً طويلاً وحادثه فى معنى الصلح وقال لا أرجع عن كلام التحدث به من أخى وصديقى يعنى العادل وذكر له كلاما وعاد وأخبره به فكتبه الملك العادل فى رقعة وأنفذها إلى السلطان وكان يتضمن أنك تسلم عليه وتقول له أن المسلمين والافرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الأمر حقه وليس

هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا إلا واحدا . وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن . وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا التعب . ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى ارباب المشورة فى دولته واستشارهم فى الجواب والذى رآه السلطان أن قال القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم فانه مسرى بيننا ومجتمع الملائكة فلا تتصور ان ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين وأما البلاد فهى أيضاً لنا فى الاصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين واما البلاد فهى ايضاً لنا فى الاصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الوقت وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائما وما فى أيدينا منها تأكل بحمد الله مغله وننتفع به . وأما الليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لايجوز لنا ان نفرط فيها الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هى أوفى منها وسار هذا الجواب إليه مع الواصل منه .

ذكر هرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا وكان أسيراً

ولما كان آخر السادس والعشرين وصل شيركوه بن باخل وهو من جمله الامراء المأسورين بعكا وكان من قصته أنه هرب ليلة الحادى والعشرين وذلك أنه كان ادخر له حبلا فى مخدته وكان الامير حسن بن باريك ادخر له حبلا فى بيت الطهارة وإتفقا على الهرب ونزلا من طاقة كانت فى بيت الطهارة وانحدر من السور الاول وعبر شيركوه من الباشورة أيضا وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل ونزل شيركوه سيما فرآه وقد تغير من الوقعة فكلمه فلم يجبه وحركه فلم يتحرك فهزه لعله ينشط فيسير معه فلم يقدر فعلم انه اذا اقام عنده أخذا جميعا فتركه وانصرف واشتد هرباً فى قيوده

حتى اتى تل العياضية وقد طلع الصبح فاكمن فى الجبل حتى علا النهار وكسر قيده وسار وستر الله حتى اتى المعسكر ومثل بخدمه السلطان وكان من أخباره ان سيف الدين المشطوب ضيق عليه وانه قطع على نفسه قطيعة عظيمة من خيل وبغال وأنواع الأموال وأن الملك الانتكار أتى عكا وأخذ كل ماله بها من خدمه ومماليكه وأقمشه ولم يبق له منها شيئاً وان فلاحى الجبل يمدونه بالميرة مدداً عظيماً وان طغرل السلحدار أخذ خواص مماليك السلطان وهربوا قبل هروبه .

ذكر رساله سيرني فيها الملك العادل الي السلطان مع جماعة من الامراء

وذلك أنه لما كان التاسع والعشرون من رمضان استدعانى الملك العادل فى صحبته وأحضر جماعة من الامراء علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم حسام الدين بشارة وشرح لنا ما عاد به رسوله من الانتكار من الرسالة والكلام وذلك أنه ذكر انه قد أراد أن يتزوج الملك العادل بأخت الانتكار وكان قد استصحبها معه من صقلية فإنها كانت زوجة صاحبها وقد مات فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية فاستقرت القاعدة على ان يكون مستقر ملكها بالقدس وان أخاها يعطيها بلاد الساحل التى بيده من عكا إلى يافا وعسقلان إلى غير ذلك ويجعلها ملكة الساحل ويجعله ملك الساحل ويكون ذلك مضافا إلى ما فى يده من البلاد والاقطاع وأنه يسلم إليه صليب الصلبوت وتكون القرى للداوية والسبتار والحصون لهما وأسرانا تفك وكذلك أسراهم وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة ويرحل الانتكار طالبا بلاده فى البحر وينفصل الأمر هكذا ذكر رسول العادل الانتكار . ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن استحضرنا عنده وحملنا هذه الرسالة إلى السلطان وجعلنى المتكلم فيها والجماعة يسمعون ونعرض عليه هذا الحديث فان استصعبوه ورآه مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالذل فى ذلك والرضا به وان

أباه شهدنا عليه ان الحال فى الصلح قد انتهى إلى هذه الغايه وانه هو الذى رأى ابطاله ناموا مثلنا بالخدمة السلطانية عرضت عليه الحديث وتلونا عليه الرساله بمحضر من الجماعة المذكورين فبادر الى الرضا بهذه القاعدة معتقداً أن الانتكار لا يوافق على ذلك أصلا فإن هذه منه مكر وهزل فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات وهو يقول نعم ويفرح ويشهد على نفسه به فلما تحققنا منه ذلك عدنا إلى الملك العادل فعرفناه بما قال وعرفه الجماعة أنى كررت عليه الحديث فى تقييد الشهادة عليه وأنه أصر على الإذن فى ذلك واستقرت القاعدة عليه.

ذكر عود الرسول إلي الانتكار بالجواب عن هذه الرسالة

ولما كان ثانى شوال سار ابن النحال رسولا من جانب السلطان ومن جانب الملك العادل فلما وصل الى مخيم العدو وأنفذ من عرف الملك بقدومه أنفذ إليه من قال له أن الملكة عرض عليها أخوها النكاح فسخطت من ذلك وغضبت بسببه وأنكرت ذلك انكاراً عظيما وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك وكيف تمكن مسلما من غشيانها ثم قال أخوها إن الملك العادل يتنصر وأنا أتمم ذلك وترك باب الكلام مفتوحا .

ولما كان خامس شوال وصل الخبر أن الاسطول الاسلامى استولى على مراكب الافرنج وفيها مركب يعرف بالسطح قيل إنه كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك وأنه من خلق عظيم واستبقى منهم أربعة مذكورون وسر المسلمون بذلك وضربت بشائر النصر ونعق [1]بوق الظفر فلله الحمد والمنة.

ولما كان سادس شوال جمع السلطان أكابر الامراء وأرباب الآراء من دولته وشاورهم كيف يصنع ان خرج العدو وكان قد تواصلت الاخبار عنهم

---

(١) نعق البوق : أى دقت الاجراس والكؤوس .

أنهم قد اتفقوا على الخروج الى العسكر الاسلامى فاتفق الرأى بين ذوى الآراء على أنهم يقيمون بمنزلهم بعد تخفيف الاثقال فان خرج الافرنجى كانوا لقاءهم .

وفى عشية ذلك اليوم استأمن من الافرنج اثنان على فرسين وأخبر أن العدو على عزم الخروج وأنهم زهاء [١] عشرة آلاف فارس وذكرانهم لا يعرفون قصدهم وهرب أسير مسلم من جانبهم وأخبر أنهم قد أظهر الخروج الى الرملة ثم فيها يتعقبون على موضع يقصدونه . ولما تحقق السلطان أمر الجاويش أن ينادى فى العسكر حتى يتجهز جريدة وشدت الرايات واتفق على أنه يقف قبالة أن خرجوا وسار فى السابع مؤيدا منصورا حتى أتى قبلى كنيسة الرملة ليلا فخيم هناك ليلة .

ذكر خروج الافرنج من يافا

ولما كانت صبيحة الثامن رتب الابطال للقتال وسلم اليزك للملك العادل وتبعه من يريد من الغزاة وكان قد وصل وجماعة من الروم يريدون الغزاة فخرجوا فى جملة من خرج فلما وصلوا الى خيام الافرنج هجم عليهم المماليك السلطانية لقوة جأشهم [٢] وأنسهم بقتالهم وثقتهم بمراكبهم ورموا عليهم النشاب فرآهم الغزاة الواصلون من الروم فاعتروا تلك المضايقة والمنازلة ثارت هممهم وحركتهم نخوتهم فركبوا من داخل الخيام وصاحوا صيحة الرجل الواحد وحملوا فى جمع كثير فنجا من سبق به جواده وقدر فى القدم نجاته وظفروا بجماعة فقتل منهم ثلاثة نمفر ونقلوا خيامهم إلى بازور وأقام السلطان فى تلك الليلة بمنزلته الى الصباح .

---

(١) زهاء : أى يقربوا من .

(٢) قوة جأشهم : أى شدتهم وشجاعتهم وصبرهم .

ذكر وفاة تقي الدين الملك المظفر

ولما كان الحادى عشر ركب السلطان الى جهة العدو فأشرف عليهم ثم عاد وأمرني بالاشارة الى أخية بأن يحضر معه علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم فلما مثل هذه الجماعة بين يديه أمر خادما ان يخلى المكان عن غير الحاضرين وكنت فى جملتهم وأمر بابعاد الناس عن الخيمة ثم أخرج كتابا من قباه وفضه ووقف عليه وبدت دموعه وغلبه البكاء والنحيب [١] حتى وافقناه من غير أن نعلم السبب ما هو وفي اثناء ذلك ذكر انه يتضمن وفاة الملك المظفر فاخذ الجماعة فى البكاء حتى أنو بوظيفته ثم ذكرته الله تعالى وانتهاء قضائه وقدره فقال استغفر الله إنا لله وانا اليه راجعون ثم قال المصلحة كتم ذلك واخفاؤه لئلا يتصل بالعدو ونحن نتازله ثم احضر الطعام فاكلوا الجماعة وانفصلوا وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه هو غير الكتاب الواصل إلى حماه بنعيه فى طي كتاب وصل من النائب بها وكانت وفاته بطريق خلاط مائداً إلى ميافارقين فحمل ميتا الى ميافارقين ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بارض حماة وحمل إليها وزرت ضريحه وكانت وفاته تاسع عشر رمضان سنة سبعة وثمانين .

ذكر كتاب وصل من بغداد

ولما كان الثانى عشر من شوال وصل من دمشق كتاب من النواب بها فى طيه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوى مجده الله يتضمن فصولا ثلاثة الاول الانكار على الملك المظفر فى مسيره الى بكتمر وبولغ فيه حتى قيل ان الديوان العزيز لا يسلمه . والفصل الثانى يتضمن الانكار على مظفر الدين فى امساك حسن بن قفجاق والأمر بإعادته الى الكر خانى وبولغ فيه حتى قيل أن الديوان العزيز لم يأذن لغيره فى سكانها . وكانت قصة حسن

---

(١) النحيب : اخراج الصوت مع البكاء والبكاء بصوت عالٍ .

ابن قفجاق أنه قصد أرميه إلى السلطان طغريل فانه كان قد نزل به في معونته . هرب من ديار العجم واستنصر به وتزوج اخته ووقع في ذهنه انه يكون أميرا ويملك به البلاد فقصد أرميه فقتل أهلها على ما قيل وسبى نساءهم وذراريهم وتعرض للقوافل وكان معلقة الكرخاني فلما وجد السلطان طغريل قوته تركه وانصرف عنه وعاد الى بلاده وأظهر الفساد في الارض والتعرض للقوافل على ما قيل فاستطعفه مظفر الدين صاحب أربل حتى عاد إليه وانخرط في سلك أصحابه وقبض عليه وانفذ إلى الديوان العزيز ذلك وفي معناه استيلاء مظفر الدين على بلاده ولعله تشفع إلى الديوان فاقتضت عاطفته ذلك في حقه . واما الفصل الثالث فكان يتضمن التقدم باحضار القاضي الفاضل في الديوان رسولا لتقرر عليه قواعد ويسر اليه أسباب هكذا كان مضمون الكتاب واما الجواب عنه فان السلطان أجاب عن الفصل الاول بانا لم نأمره بشيء من ذلك وقد أمرنا بالعود . وأما الفصل الثاني فاجاب عنه بان عرفهم حال ابن قفجاق وما تصدى له من الفساد في الأرض وأنه تقدم الى مظفر الدين حتى يحضره معه الى الشام فيقطعه فيه ويكون ملازما للجهاد . واما الفصل الثالث فانه اعتذر عن القاضي الفاضل بانه كثير الامراض وقوته تضعف عن الحركة الى العراق فهذا كان حاصل الجواب .

ذكر وصول صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس

ولما كان ثالث عشر شوال وصل من أخبر بوصول صاحب صيدا من جانب المركيس صاحب صور وكان قد جرى بيننا وبينه أحاديث مترددة حاصلها انهم ينقطعون عن الافرنج ونصرتهم ويصيرون معنا عليهم بناء على فتنة كانت جرت للمركيس مع الملوك بسبب امرأة تزوجها كانت زوجة لاخي الملك جفري وقبح نكاحها بأمر اقتضاه دينهم فاضطربت آراؤهم فيه فخاف المركيس على نفسه فأخذ زوجته وهرب تحت الليل الى صور وأخلد

الى السلطان والاعتضاد [1] به وكان في ذلك مصلحه للمسلمين لانقطاع المركيس عن الافرنج كان اشدهم باسا . واعظمهم للحرب مراسا . واثبتهم فى التدبير أساسا . وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان أمر باجلاله واحترامه فضربت خيمة وضرب حولها شقة ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم وأمر بانزاله فى الثقل يستريح ثم يجتمع به .

ذكر واقعة الكمين الذي استشهد فيه اياس المهراني

ولما كان سادس عشر شوال أمر السلطان الحلقة ان كمنت للعدو فى بطون أودية هناك واستصحبوا جماعة من العرب فلما استقر الكمين فى موضعه ظهرت العرب على جارى عادتها فى مناوشتها العدو وكان العدو تخرج منه جماعة للاحتشاش [2] والاحتطاب قريباً من مخيمة تضرب العرب وتضرب العرب عليهم فضربوا عليهم ووقع الحرب بينهم وثار الصياح وسمع العرب فركب منهم جمع من الخيالة وطلبوا جهة العرب فانهزم العرب بين أيديهم الى جهة الكمين والعدو طمعاً حتى قاربوا الكمين فخرج الكمين عليهم وصاحوا بهم صيحة الرجل الواحد فانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم واتصل الخبر بالعدو فركب منهم خلق عظيم وقصدوا نحوالوقعة والتحم القتال واشتد الامر وقتل جمع من الطائفتين وأسر وجرح جمع من العدو وأخذ منهم خيل كثيرة وكان سبب انفصال الحرب ان السلطان أحس بهذه الوقعة فانفذ أمراء أخر أسلم وسيف الدين يازكج ومن يجرى مجراها رداً للمسلمين وقال اذا رأيتم الغلبة على الكمين فاظهروا فلما رأوا الكثرة من جانب العدو خرجوا بخيلهم ورجلهم ولما رأى العدو الاطلاب الاسلامية قد صوبت نحوه أعنة خيلها ولوا الادبار نحو خيامهم والسيف يعمل فى أقفيتهم

(١) الاعتضاء به : أى التقوى به والاحتماء به .

(٢) للاحتشاش : أى لقطع الحشائش للحيوانات .

حتى دخلوا الخيام وانفصل الحرب قبيل الظهر وكان السلطان قد ركب متشوفا أخبار الكمين وكنت في خدمته وكان أول من دخل من الوقعة ووصل جماعة العرب ومعهم خمس رؤوس من الخيل قد أخذوها وانفصلوا قبل انفصال الحرب وما زالت الطلائع تتواتر والبشائر تتواصل وقتل العدو زهاء ستين نفرا وجرح من المسلمين جماعة منهم اياس المهراني وكان شجاعا معروفا وجاولي غلام القيدي وأسر من العدو فارسان معروفان واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما وعاد السلطان الى خيمة فرحا مسرورا معرضا من قتل فرسه متلطفا بالجريح مترحما على الشهيد .

وفي بقية هذا اليوم وصل رسول الانتكار الى الملك العدل بعتبه على الكمين ويطلب الاجتماع به .

ذكر ما جري للملك العادل والانتكار واجتماعهما

ولما كان الثامن عشر سار الملك العادل الى اليزك وضربت له قبة عظيمة وساروا معه من الاطعمه والحلاوات والتجملات والتحف وما جرت العادة ان يحمل من ملك الى ملك وهو اذا تجمل في ذلك لا يغلب وسار الانتكار الى خيمته وحضره عنده فاحترمه احتراما عظيما ووصل مع الانتكار الى خيمته وأحضر من طعامهم الذى يختصمون به ما اتحف به الملك العادل على وجه المطايبة فتناول منه الملك العادل وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل وتحادثا معظم ذلك النهار وتفاصلا على تواد ومحبة أكيدة .

ذكر الرسالة التي أنفذها الانتكار إلي السلطان

وفي ذلك اليوم سأل الانتكار الملك العادل أن يلتمس من السلطان الاجتماع به والمثول [1] بين يديه . ولما وصلت هذه الرساله شاور السلطان

(١) المثول : أي الوقوف للمسألة .

الجماعة في الجواب فما منهم من وقع له ما وقع للسلطان . وذلك أنه قال الملوك اذا اجتمعوا قبح منهم المخاصمة بعد ذلك فاذا انقطع أمر حسن الاجتماع والاجتماع لا يكون إلا لمفاضلة في مهم وأنا لا أفهم بلسانك وأنت تفهم بلساني ولابد من ترجمان بيننا نثق أنا وأنت به فليكن ذلك الترجمان رسولا حتى يستقر أمر وتستتب قاعدة وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبة الوداد والمحبة قال الرسول ولما سمع الانتكار هذا الجواب استعظمه وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرض إلا بالدخول تحت المراضي السلطانية .

ذكر حضور صيدا بين يدي السلطان

ولما كان التاسع عشر جلس السلطان واستحضر صاحب صيد السماع رسالته وكلامه فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه وكنت حاضر المجلس فاكرمه اكراما عظيما وحادثهم وقدم بين أيديهم ما جرت به العادة . ولما فرغ الطعام خلا بهم وكان حديثهم في أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور وكان قد انضم إليه جماعة من أكابر الافرنجية منهم صاحب صيدا وغيره من المعروفين وقد سبقت قصته وكان من شروط الصلح معه اظهار عداوة الافرنج البحرية وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة وبذل له السلطان الموافقة على شروط قصد بها الايقاع بينهم وان يقتل بعضهم فلما سمع السلطان حديثه وعد ان يرد عليه الجواب فيما بعد وانصرف عنه في ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول الانتكار وهو ابن الهنغري وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم

وصل وفي صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة فأحضره السلطان عنده وسمع كلامه . وكانت رسالته أن الملك يقول اني احب صداقتك ومودتك وان ذكرت انك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك

فاريد ان تكون حكماً بيني وبينه ولابد ان يكون لنا علقة بالقدس الشريف ومقصودى ان نقسم بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ولا على لوم من الافرنجية فأجابه فى الحال بوعد جميل ثم أذن له فى العود فى الحال وتأثر بذلك تأثراً عظيما وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الاسارب وكان منفصلا عن حديث الصلح فقال ان كان صلح فعلى الجميع وان لم يكن صلح فلا يكون من حديث الاسارى شيء وكان غرضه رحمه الله أن يفسخ قاعدة الصلح فانه التفت الى فى آخر المجلس بعد انفصالهم وقال متى ما صالحناهم لا تؤمن غائلتهم فاننى لو حدث بى حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر وتقوى الافرنج فالمصلحة ان لا تزال على الجهاد حتى تخرجهم من الساحل او ياتينا الموت هذا كان رأيه قدس الله روحه وانما غلب على الصلح .

* * *

ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصلح وبين الانتكار والمركيس

ولما كان حادى عشر شوال جمع السلطان الامراء والاكابر وأرباب المشورة وذكر لهم القاعدة التى التمسها المركيس واستقر الامر من جانبه عليهاوهى أخذ صيدا وان يكون معنا على الافرنج ويقاتلهم ويجاهرهم بالعدوان وذكر ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح وهى ان تكون لنا من القرى الساحلية مواضع معينة وتكون لنا الجبليات باسرها او تكون القرى كلها مناصفة وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس فى بيع القدس الشريف وكنائسه . وكان الانتكار قد خيرنا بين هذين القسمين فشرح قدس الله روحه الحال فى القاعدتين للامراء واستنبط آراءهم فى ترجيح أحد الحالين الانتكار

(١) أرباب الرأى : أى اصحاب الحل والعقد والسلطان .

والمركيس وترجيح احد القسمين المذكورين من جانب الملك فرأى أرباب الرأى [1] أنه ان كان صلح فليكن مع الملك فان مصافاة الافرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة غير مأمونة الغائلة وأنقض الناس وبقى الحديث مترددا فى الصلح والرسل تتواصل فى تقرير قواعد الصلح . وأوصل التقاعد ان الملك قد بذل اختـه للملك العـادل بطريق التـزويج وان تكون البـلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لهما فاما الافرنجية فلها من جانب اخيها والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك فى المعنى ان قال ان معاشر دين النصرانية قد أنكروا على وضع اختى تحت مسلم بدون مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانية ومقدمة وها أنا أسير إليه رسولا يعود فى ستة أشهر فان اذنت فيها ونعمت والا زوجتك ابنة أخى وما أحتاج إلى اذنه فى ذلك . هذا كله وسوق الحرب قام ، والقتـال عليهم ضربة لازم ، وصاحب صيدا يركب الملك العادل فى الاحيان ويشرف على الافرنج وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفا من أن ينضاف المركيس إلى المسلمين وعند ذلك ذلك تنكسر شوكتهم ولم يزل الحال كذلك الى خامس عشر شوال

*　*　*

ذكر رحيله رحمه الله إلي تل الجزر

ولما كان ذلك اليوم اصبح الملك على عزم الرحيل واحضر أرباب الرأى وشاورهم فى جواب رسالة القوم وعرض عليهم حديثه وذكر ماعندهم فى ذلك واحضر الرسل وكان ابن الهنغرى يترجم بينه وبين البحرين واستقرت القاعدة على أن ينفذ معهم رسولين رسولا من جانبه ومن جانب العادل الآخر لان الحديث كان يتعلق به وكان من جملة رسالتهم ان البابا ان اذن فى هذا العقد تم وان لم يأذن زوجنا الملك العادل بابنة أخى الملك وهى بكر وذكروا ان من دينهم أن البابا انما يحتاج إلى إذنه فى تزويجة الثيب من

بنات الملوك وأما الابكار فيزوجها أهلها وانفصل الحال على ذلك وسارت الرسل إلى خيم الملك العادل ليجهز رسول السلطان ويلحقه ثم وصل بعد ذلك من اليزك من اخبر ان الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير وخرجوا عن الاسوار التى لهم ولم يظهر لخروجهم غائلة وسار رحمه الله عليه الى تل الجزر لارتياد اليزك وتبعه الناس فى الرحيل فما كان الظهر إلا ورحل الناس إلى السلطان ونزلنا بتل الجزر . ولما عرف الافرنج بعود السلطان رحلوا عائدين واقام السلطان بتل الجزر ثم رحل الى جهة القدس الشريف ورحل الافرنج الى جهة بلادهم واشتد الشتاء واعظمت الامطار وسار السلطان الى القدس الشريف واعطى العسكر دستوراً واقمنا بالقدس فى ذلك الشتاء أجمع وعاد العدو الى بلادهم ووصل الانكتار عساكره الى يافا وعاد الى عكا ينظر فى أحوالها فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول انى أوثر الاجتماع بالملك العادل ففيه مصلحة تعود على الطائفتين فقد بغنى ان السلطان فوض الصلح الى أخيه الملك العادل فاتفق الرأى فى مضى الملك العادل على أنه يمضى بحيث يجتمع بعساكرنا التى فى الغور وكوكب وتلك النواحى ويحدثه ويقول له ان الحديث جرى بيننا مرارا وما أسفر عن مصلحة فان كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلاحاجة الى الحديث ، وان كان الغرض بت حال فقارب الحال وأنا لا أجتمع بك الا أن رأى ما يقارب فصل الحال وقرر مع الملك العادل ان رأى مايمكن معه فصل الحال والا طاوله وماطاله الى أن تصل العسكر من الاطراف فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن انهاء ماينفصل الحال عليه فكتب تذكرة فيها المناصفات وذكر فيها من أمر بيروت انه أصر على طلبها وأن نعطى صليب الصلبوت ويكون لهم فى القمامة قس ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لايحملوا السلاح وكان الحامل على ذلك ما أخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الاوطان فان من الناس من كان لايفارق السلطان ولايمكنه طلب دستور منه .

ذكر مسير الملك العادل

وكان مسيرة من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الاول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ثم وصل كتابة من كيسان يخبر أنه لقيه الهنغرى مع الحاجب أبى بكر رسولا من الانكتار يقول انا قد وافقنا عى قسمة البلاد وان كل من فى يده شيء فهو له فان كان ما فى أيدينا زائدا أخذتم فى مقابلته مايقابل الزيادة مما يخصنا وان كان مافى أيديكم اكثر فعلنا كذلك ويكون القدس لنا ولكم فيه الصخرة هكذا كان مضمون الكتاب فاوقف السلطان عليه الامراء فاستصوب ذلك الامير أبو الهيجاء ورأو من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل وهو مصلحة وسار الجواب الى الملك العادل فى ذلك .

ولما كان حادى عشر ربيع الاول وصل الحاجب أبو بكر صاحب الملك العادل يخبر ان الانكتار سار الى يافا من عكا وأن الملك العادل ما رأى أن يجتمع به الا عن قاعدة منفصلة وانه جرى بين هذا الحاجب وبين الانكتار مفاوضات كثيرة حاصلها انه نزل على ان تكون الصخرة لنا والقلعة فى أيدينا والباقى مناصفة وان لايكون فى البلد منهم مذكور وان تكون قرى القدس وباطنه مناصفة ثم قدم الملك العادل فى سادس عشر ربيع الاول من الغور ولقيه السلطان وحكى ماسبق من الخبر .

وفى بقية ذلك اليوم وصل من أخبر أن الافرنج أغاروا على حالة عرب قريبة من الدارون وأنهم أخذوا منهم جماعة وانهم أخذوت منهم زهاء ألف رأس غنم فعظم ذلك على السلطان وشق عليه فسير جماعة فلم تلحقهم .

ذكر انفصال رسول المركيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولا من جانب المركيس يلتمس الصلح مع المسلمين فاشترط رحمه الله عليه شرطاً منها اذ يقاتل

جنسه وبياينهم .ومنها ان ما يأخذه من البلاد الافرنجية بعد الصلح بانفراده يكون له وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا وما نتفق نحن وهو على أخذه تكون له نفس البلد ويكون لنا مافيه من أمرى المسلمين وغير ذلك من الاموال . ومنها أن يطلق لنا كل أسير فى مملكته . ومنها ان فوضى الانكتار اليه أمر البلاد أمر يجرى بينهم كان الصلح بيننا وبينه على ماستقر بيننا وبين الانكتار ماعدا عسقلان ومابعدها فلايدخل فى الصلح وتكون الساحليات له وما فى أيدينا لنا ومافى الوسط مناصفة وسار رسوله على هذه القاعدة . ولما كان يوم الاثنين الثامن والعشرون من ربيع الاول وصل أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه ووصل جريدة مقدما على عسكره .

ذكر خروج سيف الدين المشطوب من الأسر

وكان وصوله الى القدس الشريف يوم الخميس مستهل جمادى الاخرى دخل على السلطان بغتة وعنده اخوه الملك العادل فنهض له واعتنقه وسر به سروراً عظيما وأخلى المكان وتحدث معه بطرف من أحاديث العدو وسأله عن حديث الصلح فذكر أن الانتكار سكت عنه .

وفى هذا اليوم كتب السلطان الى ولده الملك الافضل ان يسير الى قاطع العراة ويستلم البلاد من الملك المنصور بن الملك المظفر وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السلطان على نفسه وأظهر ذلك ودخل فى أمره العادل وسير الى املك العادل حتى يتحدث فى أمره . وكان ذلك قد شق على السلطان وأثار منه غيظاً عظيما كيف يكون هذا الامر من أهله ولم يكن أحد من أهله خاف منه ولا طلب يمنه وهذا كان السبب فى توقف الانتكار فى الصلح فانه ظن ان خلافه يكدر للسلطان شرب الغزاة ويحوجه الى الموافقة على مايرضاه فانفذ الى الملك الافضل أن يسير إلى البلاد وكتب إلى الملك الظاهر بحلب المحروسة أن أخاه أن إحتاج إلى معونة عاونه وجهزه

بحملة كبيزة وسار باحترام عظيم حتى وصل إلى حلب وأكرمه أخوه الملك الظاهر اكراما عظيما وعمل له ضيافة تامة وقدم بين يديه تقدمة سنية وعدنا إلى حديث العدو .

ذكر عودة رسول صور

ولما كان سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وصل يوسف من جانب المركيس يجدد الصلح ويقول قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الافرنجية فان نجز فى هذه الايام سارت الفرنسيسة فى البحر وان تأخر بطل الحديث فى الصلح بالكلية فرأى السلطان الصلح مع المركيس مصلحة لاشتغال قلبه من جانب الشرق وخاف أن يتصل ابن تقى الدين بكتمر فيحدث من ذلك مايشتغل الخاطر من الجهاد فأجاب الى ملتمس المركيس وكتب مع صاحبه مواضعة على نعت ماتقدم وسار يوسف الرسول بالجواب تاسع ربيع الآخر .

ذكر قتل المركيس

ولما كان السادس عشر من الشهر وصل من الرسول المنفذ الى المركيس كتاب ان المركيس قتل وعجل الله بروحه الى النار وكانت صورة قتله انه تقدم يومن الثلاثاء ثالث عشر عند الاسقف ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين وكان خفيفاً من الرجال فما زالا يضربانه حتى عجل الله بروحه الى النار وأمسك الشخصان وسئلا عن هذا الامر ومن حضهما عليه فقالا ان الانكتار حملنا عليه وقام بالامر اثنان فحفظا القلعة الى ان انصل الخبر بالملوك وانعقد الامر وتدبر المكان .

ذكر تتمة خبر الملك المنصور وماجري له

وذلك أنه لما بلغه مؤاخذة السلطان أنفذ الى الملك العادل رسولا يشفع به ليطيب قلب السلطان ويقترح عليه أحد قسمين إما حران والرها وسميساط

وإما حماه ومنهج وسلمية والمعرة مع كفالة اخوته فراجع الملك العادل السلطان مراراً فلم يجبه الى شيء من ذلك فكثرت الشفاعة اليه من جميع الامراء وهزت شجر رأفة منه فرجع خلقه النبوى وحلف له على حران والرهاوسميساط على انه اذا عبر الفرات أعطى المواضع وتكفل اخوته ويتخلى عن تلك المواضع التى فى يده ودخلت تحت ضمان الملك العادل ثم التمس الملك العادل خط السلطان ثانياً ولج عليه فمزق نسخة اليمين فى التاسع والعشرين من ربيع الآخر وانفصل الحال وانقطع الحديث وكنت المتردد بينهما فى ذلك وأخذ الغيظ السلطان كيف يخاطب بمثل ذلك من جانب اولاد اولاده .

ذكر قدوم رسول ملك الروم

ولما كان مستهل جمادى الاولى وصل رسول من قسطنطينية الكبرى والتقى بالاحترام والاكرام بالخدمة السلطانية فى ثالث الشهر وكانت رسالته تشتمل على مطالب منها صليب الصلبوت . ومنها أن تكون القمامة بيد قسوس من جانبه وكذا سائر كنائس القدس ومنها أن يكون الافتاق معه على ان يكون عدو من عاداه وصديق من صادقه وان يوافق على قصد جزيرة قبرص فاقام عنده يومين ثم سير معه رسولا يقال له ابن البزاز من الديار المصرية وأجبت بالمنع عن جميع مقترحاته وقيل ان الصليب قد بذل فيه ملك الكرج مئتى الف دينار فلم يجب الى ذلك .

ذكر ماجري للملك العادل في البلاد التي هي قاطع الفرات

وذلك انه لما سار الملك الافضل رقق الملك العادل قلب السلطان على ابن تقى الدين وقد كثر الحديث فى معناه وأنفذنى السلطان لمشاورة الامراء فى خدمة الملك العادل فى أمره فجمعهم فى خدمته فذكرت لهم ماراسلنى فيه

اليهم فانتدب الامير حسام الدين أبو الهيجاء للجواب وقال نحن عبيده ومماليكه وذلك وصيي وربما حمله خوفه أن انصاف الى جانب آخر ونحن لانقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار فان أرادنا نقاتل المسلمين صالحنا الكفار وسرنا ذلك الجانب وقاتلنا بين يديه وان أراد منا ملازمة الغزاة صالح المسلمين وسامحهم . وهذا كان جواب الجميع فرق السلطان وجدد نسخة يمين لابن تقي الدين وحلف له بها واعطاه خطه بما استقر من القاعدة ، ثم ان الملك العادل التمس من السلطان البلاد التى كانت بيد ابن تقي الدين بعد استقلاله وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها وكنت الرسول بينهما وكان آخر مااستقر انه يسلم تلك البلاد وينزل عن كل ماهو شامي الفرات ماعدا الكرك والشوبك والصلت والبقاء وخاصة بمصر بعد النزول عن الجيزة وعليه في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء الى المقدس والمغل في السنة المذكورة في مواضعه له ومغل قاطع الفرات في هذه السنة للسلطان أيضاً وأخذ خط السلطان بذلك وسار بنفسه يصلح أمر ابن تقي الدين ويطيب قلبه وكان مسيرة في ثامن جمادى الاولى .

ذكر استيلاء الافرنج علي الدارون

وكان الافرنج خذلهم الله تعالى لما رأو أن السلطان قد أعطى العساكر دستورا وتفرقت العسكر عنه نزلوا على الدارون طمعا فيه وكان بيد علم الدين قيصر وفيه نوابه . ولما كان يوم تاسع جمادى الاولى اشتد زحف العدو على المكان راجلا وفارساً وكان الانكتار قد استنفذ من نوبة عكا ما بين جبليين فتمكنوا من نقب المكان وأحرقوا النقب وطلب أهل الحصن مهلة بحيث يشاورون السلطان فلم يمهلوهم واشتدوا في القتال عليه فأخذوه عنوة[1] واستشهد فيه من قدر الله له ذلك وأسر من قدر له ذلك وكان ذلك

(١) عنوه : أي غصبا وقهراً .

قدرا مقدراً .

ذكر قصدهم لمجدل يابا

ولما استولى الافرنج على الدارون ساروا بعد ان قرروا أمره ووضعوا فيه من اختارو حتى نزلوا على منزلة يقال لها الحسى وهى قريب من جبل الخليل عليه السلام وذلك رابع عشر جمادى الاولى فأقاموا عليه ثم تأهبوا بقصد حصن يقال له مجدل يابا فأتوه جريدة وخلفوا خيامهم فى منزلتهم وكان عسكر اسلامى فلقيهم وجرى بينهم قتال عظيم وقتل من العدو كند مذكور واستشهد من المسلمين فارس واحد كان سبب قتله انه وقع رمحه فنزل ليأخذه فمنعه فرسه الركوب فبادروه وقتلوه وعادوا الى خيامهم بقية اليوم خائبين ولله الحمد .

ذكر وقعة جرت في صور

ولما كان سادس عشر جمادى وصل كتاب من حسام الدين بشارة يذكر انه تخلف فى صور مائة راكب وانضم اليهم من عكا خمسون وطمعوا فخرجوا لشن الغارات على البلاد الاسلامية فوقع عليهم العسكر المرصد لحفظ البلاد ذلك الطرف وجرى بينهم قتال شديد وقتل من العدو خمسة عشر نفرا ولم يقتل من المسلمين أحد وعادوا خائبين ولله الحمد .

ذكر قدوم العساكر الاسلامية للجهاد

ولما رأى السلطان ماجرى من العدو من التبطىء سير الى العساكر من سائر الاطراف أن يسابقوا إلى الحضور وكان أول قادم بدر الدين دلدرم مع خلق كثير من التركمان فلقيه السلطان واحترمه ووصل بعده عز الدين ابن المقدم فى سابع عشر جمادى الاولى بعسكر حسن وآلات جميلة ففرح به السلطان.

وأما العدو فانه رحل من الحسى ونزل عى مفرق طرق منها طريق عسقلا

وطريق الى بيت جبرين والى غير ذلك من الحصون الاسلامية ولما بلغ السلطان ذلك أمر العساكر ان سارت نحوه فخرج أبو الهيجاء السمين وبدر الدين دلدرم وابن المقدم وتتابعت العسكر وتخلف هو فى القدس لنوع التياث كان عرض له فلما أحس العدو والمخذول بظهور العساكر الاسلامية اعاد خائباً خاسرا ناكصا على عقبيه ووصلت الكتب من الامراء مخبرين برحيل العدو الى عسقلان .

ذكر تعبية العدو لقصد القدس الشريف

ولما كان يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الاولى وصل قائد من العسكر يخبر ان العدو قد خرج فى راجله وفارسه وسواد عظيم وخيم على تل الصافية فسير السلطان الى العساكر الاسلامية ينذرها ويحذرها واستدعى الامراء جريدة اليه ليعقدوا رأيا فيما يقع العمل بمقتضاه فوصل ورحل العدو من تل الصافية الى جانب النطرون فنزل شماله وذلك فى السادس عشر من جمادى الاولى وكانت قد سارت من عرب الاسلام جماعة للغزاة على يافا فوصلوا بليل من غير علم يحركه العدو فنزلوا فى بعض الطريق يقسمون فوقعت عليهم عساكر العدو فاخذوهم وهرب منهم ستة نفر فوصلوا الى السلطان واخبروه الخبر ووصلت الجواسيس وتواترت الاخبار من جانب العدو انه مقيم بالنطرون لنقل الازواد والآلات التى تدعو الحاجة اليها فى الحرب فاذا حصل عندهم مايحتاجون اليه قصدوا القدس الشريف حرسه الله تعالى . وفى يوم الاربعاء وصل منهم رسول صحبته غلام كان للمشطوب عندهم يحدث فى معنى قراقوش ويتحدث فى معنى الصلح .

ذكر نزولهم في بيت نوبة وهو موضع وطأة بين جبال بيتا بينه وبين القدس مرحلة

رحل العدو من النطرون يوم الاربعاء السابع والعشرين من جمادى الاولى

ونزلوا بيت نوبة . ولما عرف السلطان ذلك استحضر الامراء وضرب المشورة فيما يفعل فكانت خلاصة الرأى ان يقسم الاسوار على الامراء ويخرج ببقية العسكر جريدة الى جهة العدو فاذا عرف كل قوم موضعهم من السور استعدوا فان دعت الحاجة اليهم خرجوا وان دعت الحاجة الى ملازمة مواضعهم لازموها فكتبت الرقاع وسيرت الامراء وكانت طريق يافا سابلة [١] لمن ينقل الميرة الى العدو فامر السلطان من فى اليزك ان يعمل معهم ما يمكنه وكان فى اليزك بدر الدين دلدرم فكمن حول الطريق جماعة جيدة فمربهم جمع من خيالة العدو ويحمون قافلة تحمل ميرة فاستضعفوهم فحملوا عليهم وجرى قتال عظيم فى التاسع والعشرين من جمادى الاولى الى القدس وكان لدخولهم وقع عظيم وجر على العدو من ذلك وهن [٢] كبير وقويت قلوب اليزكية وانبعثت هممهم حتى حملوا على العسكر ونزلوا الى أطراف الخيم ولله الحمد .

ولما علم المسلمون أن القوافل لا تنقطع خرج جماعة وأخذوا معهم عربا كثيرا وكمنوا كمينا واجتازت القافلة ومعها جماعة كثيرة فخرجت العرب على القافلة وتبعتهم الخيالة فدحروا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين فخرجت الاتراك عليهم فاخذوا وقتلوا وجرح من الاتراك جماعة وذلك فى ثالث جمادى الآخرة

ذكر أخذ قافلة مصر حرسها الله تعالي

وذلك انه كان تقدم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدو فاقاموا ببلبيس أياما حتى اجتمعت القوافل اليهم واتصل خبرهم بالعدو ثم ساروا طالبين البلاد والعدو يترقب اخبارهم ويتوصل اليها بالعرب المفسدين . ولما تحقق العدو خبر القوافل امر عسكره

---

(١) سابله : أى مسلوكه ومعده للسير .

(٢) وهن : أى ضعف وهزال .

بالاحتياط والتحفظ وسار حتى أتى تل الصافية فبات ثم سار حتى اتى الصافية ثم علق على خيله فئة وسار حتى اتى ماء يقابل حسى واتصل خبر نهضة العدو بالسلطان فانفذ بنذير للقافلة وكان المندوب لذلك الامير أخر أسلم والطنبا العادل وجماعة من الفرسان المذكورين وأمرهم ان يبعدوا بالقافلة فى البرية ويتباعدوا عن العدو ما أمكن فاتفق أن العسكر وصل الحسى قبل وصول العدو اليه فلم يقيموا عليه وساروا حتى وصلوا القفل والعسكر المصرى فاتوا بالقفل على ذلك الطريق ثقة منهم بانهم لم يجدوا فيه ذاعر ا ولا أحسوا فيه بمخوف فرغبوا فى قرب الطريق وسلكوا بالناس هذا الطريق حتى وصلوا الى ماء الخويلفة وتفرق الناس لاجل الماء فاخبر العرب العدو بذلك وهو نازل برأس احسى فقام من وقته وسرى حتى أتاهم قبيل الصبح وكان مقدم العسكر فلك الدين أخو الملك العادل لامه [١] فاشار اسلم بالمسير ليلا للطريق واستظهارا بالصعود الى الحبل فخاف فلك الدين انه ان رحل بالليل جرى أمر على القافلة لتبددها فنادى فى الناس أن لايرحلوا الى الصباح .

وأما الانكتار فبلغنا انه لما بلغه الخبر لم يصدقه وركب مع العرب بجمع يسير وسار حتى أتى القفل فطاف حوله فى صورة عربى ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريب الصباح فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله وكان الشجاع هو الذى ركب فرسه ونجا بنفسه وانهزم الناس الى جهة القفل والعدو يتلوهم فلما رأوا القفل اعرضوا عن قتال العسكر وطلبوا القفل فانقسم القفل ثلاثة اقسام قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وعسكر الملك العادل وقسم أوغلوا فى البرية [٢] مع جماعة من العر أيضاً . وقسم استولى عليهم العدو فساقهم بجمالهم

---

(١) لامه : أى عتب عليه .

(٢) البريه : أى الصحراء .

وأحمالهم وجميع ما كان معهم وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة وكان فى العسكر المصرى جماعة من المذكورين كحسين الجراحى وفلك الدين وبنى الجاولى وغيرهم من المذكورين وقتل من العدو زهاء مئتى فارس على رواية . وعشرة أنفس على رواية ولم يقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف وابن الجاولى الصغير فانهما استشهدا الى رحمة الله تعالى وتبدد الناس فى البرية ورموا أموالهم وكان السعيد منهم من نجا بنفسه وجمع العدو ما أمكنهم جمعة من الخيل والبغال والجمال والاقمشة وسائر أنواع الاموال وكلف الجمالين خدمة الجمال والخربندية خدمة البغال والساسة خدمة الخيل وسار فى جحفل من الغنية يطلب عسكره فنزل على الخويلفة فاستقى منها ثم سار حتى أتى الحسى ، ولقد حكى لى من كان أسيراً معهم فى تلك الليلة وقع فيهم الصوت ان عسكرْ السلطان قد قصدهم فتركوا الغنيمة وانهزموا وبعدوا عنها زمانا ولما انكشف لهم أن العسكر لم يلحقهم عادوا الى الرحل وهرب فى تلك الغيبة جمع من أسارى المسلمين وكان الحاكى منهم فسألته بكم حزرتم الجمال والخيل فاخبرانى الجمال تناهز ثلاثة الاف والأسارى خمسمائة وتقرب من ذلك عدة الخيل وكانت هذه الوقعة صبيحة الثلاثاء حادى عشر جمادى الاخرة ووصل الخبر الى السلطان فى عشية ذلك اليوم بعد العشاء الآخرة وكنت جالسا فى خدمته وأوصل الخبر شاب من اصطبليه فما مر بالسلطان خبر انكى منه فى قلبه ولا اكثر تشويشا لباطنه وأخذت فى تسكينه وتسليته وهو لايكاد يقبل التسلية .

وكان أصل هذه القضية أن الامير أسلم أشار عليهم أن يصعدوا الجبل فلم يفعلوا فصعد هو وأصحابه فلما وقعت الكبسة كان هو على الجبل فلم يصل اليه أحد من العدو ولم يشعروا به ولما انهزم المسلمون تبعتهم خيالة الافرنج وأقام الرجالة منهم يستولون ماتخلف من المسلمين من الاقمشة ولما

تحقق الامير أسلم ان الخيالة قد بعدت عن الرجالة نزل اليهم بمن معه من الخيالة وكبسهم من حيث لم يشعروا وقتلوا منهم جماعة وغنموا منهم دواب من جملتها بغلة كانت تحت هذا القاصد ، ثم سار العدو يطلب خيامه فكان وصوله الى المخيم يوم الجمعة سادس عشر جمادى الاخرى وكان يوما عظيما عندهم أظهروا فيه من السرور وأسبابه مالايمكن وصفه وأعادوا خيمهم الى الوطأة على بيت نوبة وصح عزمهم على القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الاموال والجمال التى كانت تحمل الميرة والزاد والواصلة من مصر مع عسكرها ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقلون الميرة وأنفذوا الكندهرى الى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا الى القدس ولما عرف السلطان ذلك منهم عاد الى الاسوار فقسمها على الامراء وتقدم اليهم بتهيئة أسباب الحصار وأخذ فى افساد المياه بظاهر القدس وتخريب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا وأطنب فى ذلك اطنابا عظيما وأرض القدس لايطمع فى حفر بئر بها فيها ماء معين لانها جبل عظيم وحجر صلب وسير الى العساكر يطلبها من النواحى والبلاد .

* * *

ذكر قدوم الملك الافضل وأمره بالعود عن تلك البلاد « وكان قد وصل الى حلب المحروسة »

ولما وصل أمر السلطان اليه بالعود عاد مع انكسار فى قلبه وتشويش فى باطنه فوصل الى دمشق مستعتباً ولم يحضر الى خدمة السلطان فلما اشتد خبر الافرنج سير اليه وطلبه فما وسعه التأخر فسار مع من كان قد وصل من العسكر الشرقية الى دمشق وكان وصله فى يوم الخميس تاسع عشر جمادى الاخرى ولقيه السلطان قريبا من العازرية فترحل له جبرا لقلبه وتعظيما لأمره

وسار وفي خدمته أخوة الملك الظافر وقطب الدين الى ظاهر القدس

ذكر عود العدو الي بلادهم وسبب ذلك

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الاخرى استحضر السلطان الامراء عنده فحضر الامير أبو الهجاء السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خيمة السلطان وحضر المشطوب والاسدية بأسرهم وجماعة الامراء ثم أمرني ان اكلمهم وأحثهم على الجهاد فذكرت مايسره الله من ذلك . وكان مما قلته أن النبي ﷺ لما اشتد به الامر بايعه الصحابة رضى الله عنهم على الموت في لقاء العدو[1] ونحن أولى من تأسى به ﷺ والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو فا ستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة مفكر والناس سكوت كأن على رؤسهم الطير فقال **«الحمدلله . والصلاة على رسول الله اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته . وانتم تعلمون ان دماء المسلمين واموالهم وذراريهم معلقة بذممكم وان هذا العدو ليس له من المسلمين من تلقاه الا انتم فان وليتم بانفسكم والعياذ بالله طوى البلاد طي السجل للكتاب وكان ذلك في ذمتكم فانكم أنتم الذين تصديتم لهذا واكلتم مال بيت المال فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام»** ، فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يامولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت انعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطيتنا وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك . والله لايرجع أحد منا عن نصرتك الى أن نموت فقال الجماعة مثل ماقال فانبسطت نفسه بذلك المجلس وطاب قلبه وأعمهم ثم انصرفوا وانقضى يوم الخميس على أشد حال التأهب والاهتمام حتى كانت العشاء الاخرة وجميعنا في خدمته على العادة

---

(١) فقالوا له والله يا رسول الله لو خضت هذا البحر لخضناه معك .. اذهب انت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

وسهرنا حتى مضى من الليل هزيع [1] وهو غير منبسط على عادته ثم صلينا العشاء وكانت العشاء هى الدستور العام فصلينا واخذنا فى الانصراف فاستدعانى فلما جلست فى خدمته قال علمت ما الذى تجدد قلت قال ان أبا الهيجاء السعين أنفذ الى اليوم وقال انه اجتمع عند جماعة من المماليك وانكروا علينا موافقتنا على الحصار وقالوا لا مصلحة فى ذلك فانا نخاف أن نحصر ويجرى علينا مثل ماجرى على عكا وحينئذ تؤخذ بلاد الاسلام أجمع والرأى ان نلقى مصاف فان قدر الله تعالى ان نهزمهم ملكنا بقية بلادهم وان تكن الاخرى يسلم العسكر ويمض القدس وقد حفظ الاسلام. بعساكره مدة بغير القدس و كان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال فشقت عليه هذه الرسالة وأقمت تلك الليلة فى خدمته وهى من الليالى التى احييتها فى سبيل الله . وكان مما قالوه فى الرساله ان اردت أن نقيم فتكون معنا انت أو بعض اهلك والا فالاكراد لايدينون للاتراك والاتراك كذلك فانفصل الحال على ان يقيم من اهله مجد الدين ابن فخر وشاه وصاحب بعلبك . وكان رحمه الله يحدث نفسه بالمقام ثم صرف رأيه عنه لما فيه من الخطر على الاسلام فلما أن قارب الصبح واشفقت عليه خاطبته فى أن يستريح ساعة وانصرفت عنه فما وصلت الا والمؤذن قد أذن فاخذت فى أسباب الوضوء فما فرغت الا والصبح قد طلع فعدت الى خدمته وهو يجدد الوضوء فصلينا ثم قلت له قد وقع لى واقع أعرضه قال وما هو قلت من كثر اهتمامه بما قد حمل على نفسه وقد عجزت اسبابه الارضية ينبغى له ان يرجع الى الله وهذا يوم الجمعة وهو ابرك أيام الاسبوع فيه دعوة مستجابة ونحن فى أبر موضع فالسلطان يغتسل ويتصدق بصدقة خفية بحيث لايشعر أحد انها منه ويصلى بين الاذان والاقامة ركعتين يناجى فيهما ربه ويفوض مقاليد اموره اليه ويعترف بالعجز

(١) الهزيع : بداية الليل .

عما تصدق له فلعل الله يرحمه ويستجيب دعاءه وكان حسن العقيدة تام الايمان يتلقى الامور الشرعية باكمل انقياد . ثم انفصالنا فلما جاء وقت الجمعة صليت الى جانبه فى الاقصى فصلى ركعتن ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه ثم انقضت الجمعة بخير ولما كانت عشيتها ونحن فى خدمته على العادة وصلت رقعة من جرديك وكان فى اليزك وكان جملة مافيها أن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا فى التل وقت الظهيرة ثم عادوا الى خيامهم وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم . ولما كانت صبيحة السبت وصلت رقعة اخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم أختلفوا فى الصعود الى القدس والرحيل الى بلادهم فذهبت الفرنسيسة الى الصعود الى القدس وقالوا نحن انما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه . وقال الانكتار ان هذا الموضع قد افسدت مياهه ولم يبق حوله ماء أصلا فمن اين نشرب فقالوا له نشرب من نهر نقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ فقال كيف نذهب الى السقى فقالوا تنقسم قسمين قسم يركب الى السقى و قسم يبقى على البلد فى المنازلة ويكون الشرب فى اليوم مرة فقال الانكتار اذا يؤخذ اعسكر البرانى الذى يذهب الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقين ويذهب النصرانية فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم وحكم الثلاثمائة اثنى عشر وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد بانوا على حكم الثلاثة فما امروا به فعلوه فلما أصبحوا حكموا بالرحيل فلم تمكنهم المخالفة وأصبحوا فى بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخرة راحلين نحو الرملة وعلى أعقابهم ناكصين [١] ولله الحمد ومضى عسكرهم شاكيا السلاح ولم يبق فى المنزلة الا الآثار ثم نزلوا الرملة وتواترت الاخبار بذلك فركب السلطان وركب الناس وكان يوم سرور وفرح

---

(١) ناكصين : أى منهزمين .

ذكر رسالة الكندهري

ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو حضر رسول الكندهرى يقول ان الانكتار قد اعطانى البلاد الساحلية وهى الآن لى فاعد على بلادى حتى أصالحك وأكون أحد أولادك فغضب السلطان لذلك غضبا عظيما بحيث أنه كاد يبطش به فاقيم من بين يديه فسأل أن يمهل ليقول كلمة اخرى فاذن له فى ذلك فقال يقول ان البلاد فى يدك فما الذى تعطينى منها فانتهزه وأقامه

ولما كان اليوم الثالث والعشرين حضر الرسول وكان جوابه ان يكون الحديث بيننا فى صور عكا على ما كان مع المركيس ، ثم وصل بعد ذلك الحاجب يوسف صاحب المشطوب من عند الافرنج وذكر ان الانكتار أحضره واحضر الكندهرى وأخلى المجلس وقال له قيل لصاحبك انا قد هلكنا وانتم والاصلح حقن الدماء ولا ينبغى أن تعتقد ان ذلك لضعف منى بل لمصلحة ولا تغتر بتأخرى عن منزلى فالكبش يتأخر لينطح وأن يكون هو الواسطة بينهم وبين السلطان وأنفذ مع الحاجب شخصين يسمعان الكلام من المشطوب وكان ظاهر الحال الكلام فى اطلاق بهاء الدين قراقوش وباطنه فى معنى آخر وأخبر الحاجب أنهم رحلوا عن الرملة قاصدين يافا وأنهم على غاية الضعف والعجز عن قصد مكان آخر فاستحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة وكان الجواب الى الكندهرى أن نعطى عكا ونصالحه على مال ويتركنا والانكتار على بقية البلاد .

وكان رحمه الله قد جعل فى مقابلة عكا عسكرا خشية خروج العدو الى النواحى التى تليها فلما كان الثانى والعشرون خرج العدو من عكا غائرين على ما يليها من البلاد والرسانيق فثارت عليهم الكمينات من الجوانب وكان قد شعر العسكر الاسلامى بخروجهم فكمن لهم فاخذوا

منهم جماعة وقتلوا جماعة ولله الحمد .

ذكر عود رسولهم في معني الصلح

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرين من الشهر عاد رسولهم صحبة الحاجب يوسف وقد حمل الحاجب يوسف رسالة يؤديها بحضور صاحبهم وهى ان الملك الانكتار يقول انى راغب فى موتك وصداقتك وانه لايريد أن يكون فرعون بملك الارض ولا يظن ذلك فيك ولايجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ولايجوز لى أن أهلك الافرنج كلهم وهذا ابن أختى الكندهرى قد ملكته هذه الديار وسلمته اليك ليكون هو وعسكره تحت حكمك ولو استدعيتهم الى الشنق سمعوا وأطاعوا ويقول ان جماعة من الرهبان المنطقعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها وأنا أطلب منك كنيسة وتلك الامور التى كانت تضيق صدرك مما كان يجرى فى المراسلة مع الملك العادل تركتها وأعرضت عنها ولو أعطيتنى مقرعة أو خربة قبلتها . فلما سمع السلطان هذه الرسالة جمع أراب الرأى واصحاب مشورته وسألهم عما يكون الجواب لهذه الرسالة فمامنهم الا من أشار بالمحاسنة وعقد الصلح لما كان قد أخذ المسلمين من الصخر والتعب وعلاهم من الديون . واستقر الحال على هذا الجواب .

اذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الاحسان الا الاحسان ان ابن أختك يكون عندى كبعض أولادى وسيبلغك مافعل معه وأنا أعطيك اكبر الكنائس وهى القمامة وأمابقية البلاد فنقسمها فالساحلية التى بيدك تكون بيدك والذى بأيدينا من القلاع الجبلية يكون لنا ومابين العملين يكون مناصفة وعسقلان وما وراءها يكون خرابا لالنا ولالكم وأن اردتم قراها كانت لكم والذى كنت اكرهه حديث عسقلان .

وانفصل الرسول طيب النفس وذلك فى ثانى يوم قدومه وهو الثامن والعشرون واتصل الخبر بعد وصول الرسول اليه انهم راحلون الى عسقلان طالبون جهة مصر ووصل رسول من جانب قطب الدين ابن قليج ارسلان يقول ان البابا قد وصل الى القسطنطينية فى خلق لايعلم عددهم الا الله تعالى وقال الرسول انى قتلت فى الطريق اثنى عشر فارسا . ويقول تقدم الى من يستلم بلادى متى فانى قد عجزت عن حفظها فلم يصدق السلطان هذا الخبر ولم يكترث به .

ذكر عود رسول الافرنج ثانياً

ولما كان التاسع والعشرون وصل الحاجب صاحب المشطوب ومعه جفرى رسول الملك فقال ان الملك شكر انعام السلطان وقال ان الذى أطلبه منك أن يكون لنا فى قلعة القدس عشرون رجلا وان من سكن من النصارى والافرنج لايتعرض اليهم وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة والبلاد الجبلية لكم وأخبرنا الرسول من عند نفسه منصحة انه قد نزل عن حديث القدس ماعدا الزيارة ولكن يقول ذلك تصنعا لضعفنا وانهم راغبون فى الصلح وان الانكتار لابد له من الرواح الى بلده وأقام يوم الاثنين سلخ الشهر وكان معه فى هذه الدفعة بازيان هدية للسلطان فاستحضر الامراء بأسرهم وشاورهم فيما يكون الجواب لهذه الرسالة وانفصل الحال على هذا الجواب وهو أن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة فقال الرسول وليس على الزوار شيء يؤخذ منهم فعلم من هذا القول الموافقة وأما البلاد كعسقلان وماوراءها فلابد من خرابة فقال الرسول قد خسر الملك على سورها مالا جزيلا فقال المشطوب للسلطان المصلحة ان تجعل مزارعها وقراها فى مقابلة خسارتها فاجاب وان الدارون وغيره نخرب وتكون بلادها مناصفه . وأما باقى البلاد فتكون لهم من يافا الى صور باعمالها . ومهما اختلفنا فى قرية كانت مناصفة هكذا كان جواب رسالته وسار فى يوم الثلاثاء مستهل رجب

ومعه الحاجب يوسف وكان قد طلب رسولا مذكورا يحلفه ان استقرت القاعدة فأخر السلطان تسيير الرسول الى حين استقرار القاعدة وأنفذلهم هدية حسنة فى مقابل هديتهم وماكان يغلب فى الهدايا .

ذكر عود الرسول

كان عوده وقد مضى هزيع من ليلة ثالث رجب فحضر الحاجب ليلا وأخبر السلطان الخبر وحضر الرسول فى بكرة الخميس الثالث من رجب وأدى الرسالة وهى ان الملك يسأل ويخضع لك ان تترك له هذه الاماكن الثلاثة عامرة وأى قدر لها فى ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها وقد ترك القدس بالكلية فلايطلب أن يكون فيه رهبان ولاقسوس الا فى القمامة وحدها فانت تترك له هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل مافى أيديهم من الدارون الى الطاكية ولكم مافى أيديكم وينتظم الحال ويروج وان لم ينتظم الصلح فالافرنج لايمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم . فانظر الى هذه الصناعة فى استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى . وكان لعنه الله مضطرا الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره والله الولى فى ان بقى المسلمين شره فما بلونا أعظم حيلة ولاأشد اقداما منه .

ولما سمع السلطان هذه الرسالة أحضر الامراء وأرباب الرأى من دولته وسألهم عن الجواب مايكون فكان خلاصة الرأى هذا الجواب وهو « ان أهل انطاكية لنا منهم حديث ورسلنا عندهم فان عادوا بمانريد أدخلناهم فى الصلح والا فلا . وأما البلاد التى سألها فلا يوافق المسلمون على دفعها اليه وان كانت لاقدرلها . وأما سور عسقلان فيأخذ فى مقابلة ما خسر عليه لدا فى الطأة وسير الرسول صبيحة الجمعة رابع رجب » .

ولما كان الخامس من رجب وصل ولده الملك الظاهر عز نصره وكان

كثير المحبة له والايثار لجانه لما يراه فيه من أمارات السعادة وصفات الكفاءة وتوسم الملك فخرج السلطان الى لقائه فلقيه من قاطع العزازية ونزل له عند لقائه واحترمه واكرمه وضمه اليه وقبله بين عينيه ونزل فى دار الاسبتار .

ولما كان السابع وصل الحاجب يوسف وحده وذكر ان الملك قال له لايمكن ان نخرب من عسقلان حجرا واحداً ولا يسمع عنا فى البلاد مثل ذلك . ،وأما البلاد فحدودها معروفة ولامناكرة فيها وعند ذلك تأهب السلطان للخروج الى جهة العدو وأظهر القوة وشدة العزم على اللقاء .

ذكر تبريزه رحمة الله عليه

ولما كان العاشر من رجب بلغ السلطان ان الافرنج رحلوا طالبين نحو بيروت فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفراتية فى بكرة الحادى عشر فدخل الصخرة وصلى عندها ثم توجه يتبع السلطان . ثم ان السلطان رحل من الجيب الى بيت نوبة .

وبعث الى العسكر القدس يحثهم على الخروج واللحاق به ولحق السلطان فى بيت نوبة فانى كنت تخلفت عنه ليلة الاستعداد ثم رحل فى يوم الاحد الثالث عشر الى الرملة ضحوة نهاره على تلال بين الرملة ولد فأقام بها بقية الأحد . ولما كانت صبيحة الاثنين ركب جريدة حتى أتى بازور وبيت جبرين فأشرف على يافا ثم عاد الى منزلته وأقام بها بقية يومه وجمع أرباب مشورته وشاورهم فى النزول على يافا واتفق الرأى على ذلك .

ذكر حصار يافا

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشرة رحل طالبا جهة يافا فخيم عليها ضحوة النهار ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا وكان طرف الميمنة على البحر وطرف الميسرة أيضاً على البحر والسلطان فى الوسط وكان صاحب الميمنة الملك الظاهر أعز الله نصره وصاحب الميسرة أخاه الملك العادل

والعساكر فيما بينهما . ولما كان السادس عشر من الشهر زحف الناس اليها واستحقروا أمرها استحقارا عظيما ثم رتب السلطان الناس للقتال وأحضر المنجنيقات وركبها على أضعف موضع فى السور مما يلى الباب الشرقى وشرع النقابون فى السور وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج واشتد الحزم والزحف فأخذ النقابون النقب من شمالى الباب الشرقى الى الزواية بطول البدنة وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان فى الحصار الاول وبناه الافرنج وتمكن النقابون من النقب ودخلوا فلم يشك الناس فى أخذ البلد فى هذا اليوم هذا وأمر العدو فى ازدياد وكان الملك قد توجه من عكا الى بيروت وهذا الذى حمل السلطان على نزوله على يافا ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضرس العدو منه وظهر من العدو من الشدة والحمية والذب والمنعة ما أضعف قلوب الناس هذا والنقابون قد تمكنوا من النقب عليهم فما قارب الفراغ أخذ العدو فى خسف النقب عليهم فخسفوه فى مواضع عدة وخاف النقابون وخرج منهم جماعة وفتر الناس عن القتال وعلموا أن أمر البلد مشكل وانه يحتاج الى زيادة عمل فى أخذه فعزم السلطان عزم مثله فأمر النقابين أن ياخذوا النقب فى بقية البدنة من البرج الى الباب وأمر المنجنيقات ان تضرب قبالة البدنة المنقوبة ففعلوا ذلك واقام السلطان فى تلك الليلة هناك الى ان مضى من الليل ثلثه وعاد الى الثقل وكان الثقل بعيدا عن البلد على تل قبالته واصبحت المنجنيقات قد أقيم منها اثنان وأقيم الثالث فى بقية النهار وأصبح السلطان على القتال والزحف فلم يجد من الناس الا الفتور بسبب نصب المنجنيقات ظنا منهم ان المنجنيق لايعمل الابعد أيام . ولما علم السلطان من الناس الفتور والتواكل حملهم على الزحف فالتحم القتال واشتد الامر واذاقوا العدو مر الحرب فاشرف البلد على الاخذ واتفقت النفوس وطمعت فى ذلك طمعا شديدا وضعف العدو الا انه جرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبوك من البلد . ولما رأى العدو

المخذول ماقد حل به أرسل رسولين نصرانيا وافرنجيا يطلبان الصلح ويتحدثان فيه فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته فاجابوا الى ذلك واشترطوا أن ينظر الى يوم السبت الذى هو تاسع عشر رجب فان جاءتهم النجدة والا تمت القاعدة على ما استقر فابى السلطان الانظار فعاد الرسول ثم رجعوا يسألونه الانظار فابى ذلك وفتر الناس عن القتال بسبب تواصل الرسل سكونا الى الدعة على جارى العادة فامر السلطان النقابين بحشو النقب بعد انتهائه ففعلوا ذلك ووضعت النار فيه فوقع نصف البدنة وكان العدو قد عرف وقوع النار فى النقب وعلم ان ذلك المكان يقع فعمد الى أخشاب عظيمة وهيأها خلف ذلك المكان فلما وقع ذلك المكان التهبت النيران فمنعت من الدخول الى الثلمة ثم أمر السلطان الناس فزحفوا وضايقوا القوم مضايقة عظيمة فلله درهم من رجال أقيال ما أشدهم وأعظم باسهم فانهم مع هذا كله لم يغلقوا لها بابا ولم يزاولوا يقاتلون خارج الابواب أعظم قتال حتى فصل الليل بين الطائفتين ولم نقدر على البلد فى ذلك اليوم بعد حرق النقوب فى باقى البدنة وضاق صدر السلطان لهذا الامر وتقسم فكره وندم كيف لم يجبهم الى الصلح وبات تلك الليلة فى المخيم وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق تضرب بعضها البدنة الضعيفة بسبب النقوب والنيران والخسف من جانبهم .

ذكر فتح يافا وما جري فيه من الوقائع

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب أصبحت المنجنيقات وقد نصبت وحجارتها قد جمعت من الاودية والاماكن البعيدة لعدم الحجر فى ذلك المكان وظلت ترمى البدنة المنقوبة وزحف السلطان وزحف ولده الملك الظاهر عز نصره زحفا شديدا وزحف عسكر الملك العادل من الميسرة فانه كان مريضا وارتفعت الاصوات وضربت الكؤسات وخفقت البوقات ورمت المنجنيقات وأحاط بهم الويل واشتد عزم النقابين فى ايقاد النار فما مضى

من النهار ساعتان الا ووقعت البدنة وكان وقعها كوقع الواقعة ونادى الناس الا ان البدنة قد وقعت فلم يبق من له أدنى ايمان الا وزحف والقلب من العدو الا أرعد ورجف هذا الزحف وهم على القتال أشد وأحزم . وعلى الموت أعزم واكرم . وذلك انها لما وقعت علالها دخان وغبار . وأظلم الافق وعميت عين النهار . وما تجاسر احد على الولوج خوفا من اقتحام النار . فلما انكشفت الظلمة ظهرت أسنة قد نابت مناب الاسوار . ورماح قد سدت الثلمة حتى غيبت نفوز الابصار . ورأى الناس هولا عظيما من صبر القوم وثباتهم . وسداد حركاتهم وسكناتهم . ولقد رأيت رجلين على ممشى السور يمنعان المتسلق عليه من جهة الثملة وقد اتى أحدهما حجر المنجيق فأخذه ونزل الى داخل وقام رفيقة مقامه متصديا لمثل ما لحق صاحبه فى ساعة أسرع من لمح العيون بحيث لم يفرق بينهما فارق .

ولما رأى العدو ما آل الامر اليه سيروا رسولين الى السلطان يلتمسون الامان فقال رحمه الله الفارس بالفارس والتركبيلى بمثله والراجل بالراجل والعاجز على قطيعة القدس فنظر الرسول فرأى القتال على الثلمة أشد من إضرام النار فسأل السلطان ان يبطل القتال الى ان يعود فقال لا أقدر على منع المسلمين من هذا الامر ولكن داخل الى أصحابك فقل لهم يتجاوزو الى القلعة ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فما بقى دونه مانع فعاد الرسول بهذه الرسالة فانحاز العدو الى قلعة يافا بعد ان قتل منهم جماعة عظيمة ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالا كثيرة وأثاثا وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية واستقرت القاعدة على الوجه الذى قرره السلطان .

ولما كان عصر الجمعة المباركة وصل السلطان كتاب من قايماز النجمى وكان طرف العدو لحمايته من عسكر العدو الذى فى عكا يخبر فيه ان الانتكار لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت وعاد الى قصد يافا فاشتد

عزم السلطان على تتمة الامر وتسلم القلعة ممن لا ير الامان لانه قد لاح أخذهم وكان الناس لهم مدة لم يظفروا من العدو بغنم ونوبتهم عليه فكان أخذهم عنوة مما يعث همم العسكر غير ان الامان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدو من القلعة وتسلمها خوفا من لحوق النجدة وكان السلطان يشتهي خروجة غير ان الناس قد أقعدهم التعب عن اتمام المر وأخذ منهم الخديد وشدة الحر ودخان النار بحيث لم تبق لهم استطاعة على الحركة وأقام السلطان يحثهم الى ان هوى الليل فلما رأى ما قد نزل بالناس من التعب ركب وسار الى خيمته الى الثقل وسار الناس الى خدمته ثم نزل فى خيمته وعدت الى خيمتى وعندى من الخوف ما اقلقنى عن النوم .

ولما كان سحر تلك الليلة سمعنا بوق الافرنج قد نعق فعلمنا بوصول النجدة قد وصلت فى البحر فاستدعانى السلطان من وقته وقال لاشك ان النجدة قد وصلت فى البحر وعلى الساحل من عساكر الاسلام من يمنعهم من النزول والمصلحة ان تسير الى الملك الظاهر وتقول له ان يقف بظاهر الباب القبلى وتدخل أنت ومن تراه الى القلعة وتخرجون القوم وتستولون على ما فيها من الاموال والاسلحة وتكتبها بخطك الى الملك الظاهر خارج البلد وهو يسيرها الى ويسير معى لتقوية البلد مع ذلك عز الدين جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهرانى فسرت من ساعتى ومعى شمس الدين عدل الخزانة حتى أتيت الملك الظاهر وهو نائم على شيلته على تل قريب البحر فى اليزك وعليه كراغنده وهو بلأمة حربة فلا ضيع الله صنعهم فى نصرة الاسلام فايقظته فقام والنوم فى عينية وسرت فى خدمته وهو يستفهم منى رسالة السلطان حتى وقف حيث أمره ودخلنا نحن الى يافا وأتينا القلعة وأمر الافرنج بالخروج فأجابوا الى ذلك وتهيأوا للخروج .

ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدو

ولما أجابوا الى الخروج قال عز الدين جرديك لا ينبغى ان يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية ان يتخطفهم الناس وكان الناس قد داخلهم الطمع فى البلد وأخذ عز الدين يشتد فى ضرب الناس واخراجهم وهم غير مضبوطين بعد ولا محصورين فى مكان فكيف يمكن اخراجهم وطال الامر الى أعلا النهار وأنا ألومه وهو لا يرجع عن ذلك والزمان مضى ولما رأيت الوقت كاد يفوت قلت له ان النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة فى اخراجهم ومضينا الى باب القلعة القريب من الباب الذى الملك الظاهر قائم عنده فأخرجنا تسعة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم وسيرناهم ولما خرج هؤلاء اشتد الباقون وحدثتهم نفوسهم بالعصيان وكان سبب خروج من خرجوا أنهم استقلوا المراكب التى جاءتهم وظنوا ان لا نجدة لهم فيها ولم يعلموا ان الانتكار مع القوم ورأوهم قد تأخروا عن النزول الى علو النهار فخافوا ان يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا فخرج من خرج ثم بعد ذلك قربت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركباً فقويت نفوس الباقين فى الحصن وظهرت عليهم امارات العصيان ودلائلة وخرج نهم من أجبرنى بتشويش عزمهم وأخذ الطارقيات والجنويات وعلوا على الاسوار وكانت القلعة جديدة لم تشرف بعد فلما رأيت الامر قد آل الى ذلك نزلت من التل الذى كنت واقفاً عليه وهو ملاصق لباب القلعة وقلت لعز الدين جرديك وهو مع عسكره فى الاسفل مع جمع من الاجناد خذوا حذركم فقد تغيرت عزائم القوم فما كانت الا ساعة بحيث صرت خارج البلد فى خدمة الملك الظاهر الا وقد ركب القوم خيلهم وحملوا من القلعة حملة الرجل الواحد واخرجوا من كان فى البلد من الاجناد ولقد ازدحم الناس فى الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة وبقى فى بعض الكنائس جماعة من أتباع العساكر مشتغلين بما لا يجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا وسيرنى الملك الظاهر الى

ولده السلطان أعرفه بالحال فامر الجاويش ان ينادى فى العسكر وضرب الكوس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة وهجموا البلد وحشر العدو فى القلعة فأيقنوا بالبوار واستبطاؤا نزول النجدة اليهم وخافوا خوفا عظيما فارسلوا بطركهم والقسطلان رسولان الى السلطان يعتذران اليه مما جرى ويسألان القاعدة الاولى فخرجا الى السلطان والقتال يشتد عليهم وكان سبب انقطاع النجدة انهم رأو البلد مشحونا بيبارق المسلمين ورجالهم فخافوا ان تكون القلعة قد اخذت وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب لكثرة الضجيج والتهليل . فلما رأى من فى القلعة شدة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها بلغت نيفاً وخمسين مركبا منها خمسة عشر شانياً فيها شانى الملك علموا ان النجدة ظنت ان البلد قد أخذ ووهب واحد نفسه للمسيح وقفز من القلعة الى الميناء وكانت رملا فلم يصبه شيء واشتد عدواً حتى أتى البحر فخرج له شانى الملك فحدثه بالحديث فلما شعر الانتكار ان القلعة مع أصحابة اندفع يطلب الساحل وكان أول شانى ألقى من فيه بالبر شانيه وكان أحمر ورقبته حمراء ويبرقه أحمر فما كانت الا ساعة حتى نزل كل من فى الشوانى الى الميناء هذا كله وأنا أشاهد ذلك ثم حملوا على المسلمين فاندفعوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء وكانت تحتى فرس فسقته الى السلطان وأخبرته الخبر وبين يديه الرسولان وقد أخذ القلم بيده ليكتب لهم الامان فعرفته فى أذنه ما جرى فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث فما كان الا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان فصاح فى الناس فركبوا وقبض على الرسولين وأمر بترحيل الثقل والاسواق الى بازور فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوه من يافا لم يقدروا على نقله ورحل الثقل وبقى السلطان جريدة فى الليل وبات هناك وخرج الانتكار الى موضع السلطان الذى كان فيه لضيق البلد وأمر من فى القلعة ان يخرجوا اليه معظم سواده فاجتمع به

جماعة من المماليك وجرت بينهم أحاديث ومجاوبات كثيرة .

ذكر حديث الصلح

ثم طلب الحاجب ابا بكر العادلي وحضر عندهم ايبك العزيزى وسنقر المشطوبى وغيرهم وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ودخل معهم دخولا عظيما بحيث يجتمعون به فى أوقات متعددة وكان قد صادق من الامراء جماعة كبدر الدين دلرم وغيره فلما حضر هذا الجمع عنده جد وهزل ومن جملة ما قاله هذا السلطان عظيم وما فى هذه الارض للاسلام اكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولى والله ما لبست لامة حرب ولا تأهبت لأمر وليس فى رجلى الارذول البحر فكيف تأخر . ثم قال والله العظيم الكريم ما ظننت انه يأخذ يافا فى شهرين فكيف أخذها فى يومين . ثم قال لابى بكر سلم على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالى فى الصلح فهذا الامر لا بد له من آخر وقد هلكت بلادى وراء البحر وما فى دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ثم انفصلوا عنه وحضر أبو بكر عند السلطان وعرفه ما قال وكان ذلك فى أواخر يوم السبت تاسع عشر شهر رجب فلما سمع السلطان ذلك أحضر أباب المشورة وانفصل الحال على ان الجواب هو « انك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة وكان الحديث فى يافا وعسقلان والآن قد خربت يافا فيكون لك من صور الى قيسارية » فمضى اليه وعرفه ما قال فرده اليه ومعه رسول افرنجى وقال يقول الملك « ان قاعدة الافرنج انه اذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تبعه وغلامه وانا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما فى خدمتك دائما واذا احتجت الى وصلت اليك فى أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتى » فكان جواب السلطان « حيث دخلت هذا المدخل فانا اجيبك بان نجعل هذين البلدين قسمين احداهما لك وهو يافا وما وراءها والثانى لى وهو عسقلان وما وراءها » ثم سار الرسولان ورحل السلطان الى الثقل وكان

المخيم بازور ورتب النقابين لذلك واليزك عندهم وسار حتى اتى الرملة فخيم بها يوم الاحد العشرين من رجب ووصل اليه الرسول مع الحاجب أبى بكر فامر باكرامه والاحسان اليه وكانت رسالته الشكر من الملك على أعطائه يافا وتجديد لسؤال فى عسقلان ويقول انه أن وقع الصلح فى هذه الايام سار الى بلاده ولا يحتاج ان يشتى ها هنا فأجابه السلطان فى الحال بقوله « أما النزول عن عسقلان فلا سبيل اليه وأما تشتيته هاهنا فلابد منها لانه قد استولى على هذه البلاد ويعلم انه متى غاب عنها أخذت بالضرورة كما نؤخذ أيضاً اذا أقام ان شاء الله تعالى . واذا سهل عليه ان يشتى هاهنا ويبعد عن أهله ووطنه ومسيره شهرين وهو شاب فى عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته أفلا يسهل على ان أشتى وأصيف وانا فى وسط بلادى وعندى أولادى وأهلى ويزتى الى ما أريد وانا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشعبت منها ورفضتها عنى والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير العسكر الذى يكون عندى فى الصيف وأنا اعتقد انى فى اعظم العبادات ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء » فلما سمع الرسول ذلك طلب ان يجتمع بالملك العادل فاذن له فى ذلك فسار الى خيمته وكان قد تأخر بسبب مرض اعتراه الى موضع يقال له صمويل فسار الرسول ليه مع جماعة ثم بلغ السلطان ان عسكر العدو قد رحل من عكا قاصدا يافا للانجاد فجمع أرباب الرأى وعقد مشورة فى قصدهم فاتفق الرأى على انهم يقصدونهم ويرحل بالثقل الى الجبل ويقصدونهم جريدة فان لاحت فرصة طالبين فامر السلطان الثقل ان يسير الى الجبل عشية الاثنين الحادى والعشرين من رجب وسار هو جريدة فى صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجاء ووصل اليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل عليها ولم يبق فيه طمع وبلغه ان الانتكار قد نزل خارج يافا فى نفر يسير بخيم قليلة فوقع له ان ينتهز فيه الفرصة ويكبس خيمه وينال منهم غرضا وعزم على ذلك وسار من أول

الليل والادلة من العرب تتقدمه وهو يقطع الطريق الى ان أتى فى الصباح الى خيام العدو فوجدها تقريبا عشر خيم فداخله الطمع وحملوا حملة الرجل الواحد فثبتوا فى امكانهم وكثروا عن انياب الحرب فوجموا من تباتهم وسار العسكر حلقة واحدة .

ولقد حكى لى بعض الحاضرين فانى كنت تأخرت من الثقل ولم أحضر هذه الواقعة لالتياث مزاجى ان عدة الخيل كان يحرزها المكثر سبعة عشر والمقل تسعة والرجال دون الالف فمن قائل ثلاثمائة ومن قائل أكثر من ذلك فوجد السلطان من ذلك مغيظة عظيمة ودار على الاطلاب يحثها فلم يجب دعائه سوى ولده الملك الظاهر وقال له الجناح أخو المشطوب قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا واخذوا منهم الغنيمة وكان فى قلوب العسكر من صلح يافا حيث الغنيمة ما كان وجرى ما جرى ما أثر هذا الاثر . فلما رآى السلطان ذلك رأى ان وقوفه فى مقابلة هذه الشرذمة اليسيرة من غير عمل خسة فى حقه وقد بلغنى ان الانتكار أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة الى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد فغضب السلطان ثم اعرض عن القتال وسار حتى أتى بازور كالمغضب ونزل بها وذلك فى يوم الاربعاء الثالث والعشرين من رجب وبات العسكر باليزك ثم أصبح يوم الخميس وسار الى النطرون ونزل به وانفذ الى العسكر فاحضره عنده فوصلنا اليه آخر نهار الخميس الرابع والعشرين فبات به فاصبح يوم الجمعة فسار الى أخيه العادل يفتقده ودخل القدس وصلى الجمعة ونظر العمائر ورتبها ثم عاد من يومه الى الثقل وبات فيه على النطرون .

ذكر قدوم العساكر

كان أول من وصل علاء الدين بن اتابك صاحب الموصل وكان وصوله ضحاء نهار السبت السادس والعشرين من رجب فلقيه السلطان على بعد

واحترمه واكرمه وانزله عنده في الخيمة وعمل همة حسنة وقدم له تقدمة جميلة ثم سار الى خيمته .

واما رسول الملك فانه عاد فى ذلك اليوم فان الملك العادل قد حمله رساله مشافهة الى الملك وعاد مع الحاجب أبى بكر الى يافا فعاد ابو بكر وحضر عند السلطان فى ذلك اليوم وأخبره ان الملك لم يتركنى أدخل يافا وخرج الى وكلمنى فى ظاهرها وكان كلامه الى كم أطرح نفسى على السلطان وهو لا يقبلنى وانا كنت أحرص أن أعود الى بلادى والآن قد هجم الشتاء وتغير الانواء وقد عزمت على الاقامة وما بقى بيننا حديث هكذا كان جوابه خذله الله ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر مصر فخرج السلطان الى لقائهم وكان فيهم مجد الدين هلدرى وسيف الدين يازكج وجماعة الاسدية وكان فى خدمته الملك المؤيد مسعود وقد أظهروا الزينة ونشروا الاعلام والبيارق فكان يوما مشهودا ثم أنزلهم عنده ومد الخوان ثم ساروا الى منازلهم .

ذكر قدوم المنصور ابن تقي الدين رحمه الله

وكان قد سلم البلاد التى وعد بها وكان وصوله الى خدمة الملك العادل فى يوم السبت حادى عشر شعبان فنزل عنده بماء صومويل وافتقده وكتب الملك العادل فى ذلك اليوم الى السلطان يخبره بوصوله وسأله فى احترامه وإكرامه واطلاق الرحمه له . ولما تحقق الملك الظاهر وصول الملك المنصور أستأذن والده فى لقائه وافتقاد الملك الظاهر وصول الملك المنصور أستأذن والده فى لقائه وافتقاد الملك العادل فأذن له فى ذلك فسار فوجد الملك المنصور مخيما يبيت نوبة فنزل عنده وخرج الى لقائه وأقام عنده الى العصر وذلك فى يوم الاحد ثم أخذه وسار به جريدة حتى اتى خيمة السلطان ونحن فى خدمته فدخل عليه فاحترمه ونهض اليه واعتنقه وضمه الى صدره ثم

غشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الامر وغشيه من البكاء ما لم ير مثله فبكى الناس لبكائه ساعة زمانيه ثم باسطة وسأله عن الطريق ثم انفصل وبات في خيمة الملك الظاهر الى صبيحة الاثنين ثم ركب وعاد الى عسكره ونشروا الاعلام والبيارق وكان معه عسكر جليل فقرت عين السلطان ونزل فى مقدمه العسكر مما يلى الرملة .

ذكر رحيله رحمه الله الي الرملة

وذلك انه لما رأى العساكر قد اجتمعت جمع ارباب الرأى وقال ان الانتكار قد مرض مرضا شديداً والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ونفقاتهم قد قلت وهذا العدو قد أمكن الله منه ورأى ان نسير الى يافا وجدنا فيها مطمعا بلغناه والا عدنا تحت الليل الى عسقلان فما تلحقنا النجدة الا وقد نلنا منها غرضا فرأوا ذلك رأيا . وتقدم الى جماعة من الامراء كعز الدين جرديك وجمال الدين فرج وغيرهما بالمسير فى ليلة الخميس سادس عشر شعبان حتى يكونوا قريبا من يافا فى صورة يزك يستطلعون كم فيها من الخيالة والرجالة بالجواسيس ثم يعرفونه ذلك فساروا هذا ورسل الانتكار لا تنقطع فى طلب الفاكهة والثلج ووقع عليه فى مرضه شهوة الكمثرى والخوخ فكان السلطان يمده بذلك ويقصد كشف الاخباربتواتر الرسل والذى انكشف من الاخبار ان فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ومئتى فارس على قول المقل وان الكندهرى يتردد بينه وبين الفرنسية فى مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولا واحدا وانهم لا عناية بسور البلد وانما عتاتيهم بعمارة سور القلعة وكان الانتكار قد طلب الحاجب أبا بكر العادلى وكان معه انبساط عظيم . فلما تحقق السلطان الاخبار أصبح يوم الخميس راحلا اتلى جهة الرملة فنزل بها ضاحى نهار ووصل الخبر من المغيرن يقولون انا أغرنا على يافا فلم يخرج الا نحو ثلاثمائة فارس معظمهم على بغال فأمرهم السلطان بمقامهم هناك ثم وصل

الحاجب ابو بكر ومعه رسول من عند الملك يشكر السلطان على انعامه بالفواكهه والثلج وذكر ابو بكر انه تفرد به وقال له لأخي الملك العادل يبصر كيف يتوصل الى السلطان في معنى الصلح ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي انا ويبقى هو في هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم فليس لي غرض الا اقامة جاهي بين الافرنج وان لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها .

فلما سمع السلطان سيرهم الى الملك العادل وأسر الى ثقة عنده ان يمضي الى الملك العادل ويقول له ان نزلوا من عسقلان فصالحهم فان العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت فسار ضحى الجمعية سابع عشر شعبان .

ذكر الإجابة الي النزول من عسقلان

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور انفذ بدر الدين دلدرم من اليزك يقول انه قد خرج الينا خمسة أنفس منهم شخص مقدم عند الملك يسمى هوات وذكروا أن لهم معنا حديثا فهل أسمع حديثهم أولا فاذن له السلطان في ذلك ولما كانت العشاء الآخرة حضر بدر الدين بنفسه وأخبر ان حديثهم كان أن الملك قد نزل عن عسقلان وعن طلب العوض عنها وقد صح مقصوده في الصلح فأعاده السلطان ثانية لينفذ اليه ثقة يأخذ يده على ذلك ويقول ان السلطان قد جمع العساكر وما يمكنني ان احدثه هذا الحديث الا بأن اثق انك لا ترجع وبعد ذلك أحدثة وسار بدر الدين على هذه القاعدة وكتب الى الملك العادل يخبره بما جرى .

ولما كان يوم السبت ثامن شعبان أنفذ بدر الدين وذكر انه أخذ يده على هذه القاعدة بمن يثق به وأن حدود البلاد على ما استقر في الدفعة الاولى مع الملك العادل فأحضر السلطان الديوان فذكروا يافا وأعمالها وأخرج الرملة

ومجدل يابا ثم ذكر قيسارية وأعمالها وأرسوف وأعمالها وحيفا وأعمالها وعكا وأعمالهما وأخرج منها الناصرة وصفورية وأثبت الجميع فى ورقة وكتب جواب الكتاب وانفذه على يد طرنطاوى الرسول وكان قد وصل الرسول لتحرير القاعدة مع بر الدين فى عصر السبت وقال للرسول هذه حدود البلاد التى تبقى فى ايديكم فان صالحتم على ذلك فمبارك قد اعطيتم يدى ولينفذ الملك من يحلف ويكون ذلك فى غداة غد والا فيعلم أن هذا تدفيع ومماطلة ويكون الامر قد انفصل من بيننا وساروا فى بكرة الاحد على هذه القاعدة .

ولما كانت العشاء الآخرة يوم الاحد وصل من أخبر بوصول طرنطاوى ومعه الرسول واستأذن فى حضورهما فاذن رحمه الله فى حضور طرنطاى وحده فذكر أن الملك قد وقف على تلك الرقعة وأنكر انه نزل عن العوض فاذكره الجماعة الذين خرجوا الى بين يدى دلدرم أنه نزل عن ذلك فقال اذن أنا قتلته فلا أرجع عنه . قولوا للسلطان مبارك رضيت بهذه القاعدة وقد رجعت الى مروءتك فان زدتنى شيأ فمن فضلك وانعامك . ثم سار وأحضر الرسل ليلا وأقاموا الى بكرة وحضروا عند السلطان بكرة الاثنين فذكروا ما استقر عن صاحبهم ثم انفصلوا الى خيمهم وحضر عند السلطان أرباب امشورة واستقر الامر وانفصلت القاعدة وسار الامير بدر الدين دلدرم إلى الملك العادل وأخذ الرسل معه فى صورة من يسأل فى زيادة الرملة وعاد فى عشاء الاخرة ليلة الاثنين وكتبت المواضعة وذكر فيها شروط الصلح ثلاث سنين من تاريخها وهو الاربعاء الثانى والعشرين من شعبان سنة ثمانية وثمانين وخمسمائة ويراد فيها الرملة لهم ولد أيضاً وسير العدل وقال له ان قدرت ان ترضيهم بأحد الموضعين أو مناصفتها فافعل ولا يكون لهم حديث فى الجبليات ورأى السلطان ذلك مصلحة لماعر الناس من الضعف وقلة النفقات والشوق الى الاوطان ولما شاهده من تقاعدهم عن يافا يوم

أمرهم بالحملة فلم يحملوا فخاف أن يحتاج اليهم فلم يجدهم فرأى أن يحييهم مدة حتى يستريحوا ويتبعوا غير هذه احالة التى صاروا ايها ويعمر البلاد ويشحن القدس بما يقدر عليه من آالة ويتفرغ لعمارتها .

وكان من القاعدة ان عسقلان تكون خرابا وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها خشية ان ناخذها عامرة فلا نخربها فمضى العدل على هذه القاعدة واشترط دخول البلاد الاسلامية واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس فى الصلح على قاعدة آخر صلح صالحنا هم عليه واستقر الحال على ذلك وسارت الرسل وحكم عليهم ان لابد من فصل الحال إما الصلح وإما الخصومة خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه السابقة ومدافعاته المعروفة .

وفى ذلك اليوم وصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبذل الطاعة والموافقة وسر العساكر وحضر رسول الكرج وذكر فصلا فى معنى الزيادات التى لهم فى القدس وعمارتها وشكوا أنها أخذت من أيديهم ويسأل عواطف السلطان ان يردها الى نوابهم ورسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية .

ذكر تمام الصلح

ولما وصل العدل إلى هناك انزل خارج البلد فى خيمة حتى أعلم الملك به فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة وعرض العدل عليه النسخة وهو مريض الجسم فقال لاطاقة لى بالوقوف عليها وانا قد صالحت وهذه يدى فاجتمعوا بالكندهرى والجماعة وأوقفوهم على النسخة ورضوا بلد والرملة مناصفة وبجميع مافى النسخة واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم الأربعاء لأنهم كانوا قد أكلوا شيأ وليس من عادتهم الحلف بعد الأكل وأنفذ العدل إلى السلطان من عرفة ذلك .

ولما كان يوم الأربعاء الثانى والعشرون من شعبان حضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه واعتذر أن الملوك لايحلفون وقنع السلطان بذلك ثم حلف الجماعة والمستحلف الكندهرى ابن اخته المستخلف عنه فى الساحل وباليان بن بارزان صاحب طبرية ورضى الاسبتار والداوية وسائر مقدمى الافرنجية بذلك وساروا بقية يومهم عائدين الى المخيم السلطانى فوصلوا العشاء الآخرة وكان الواصلون من جانبهم ابن الهنغرى وابن بارزان وجماعة من مقدميهم فاحترموا واكرموا وضربت لهم خيمة تليق بهم وحضر العدل وحكى ماجرى .

ولما كانت صبيحة الثالث والعشرين حضر الرسل فى خدمة السلطان وأخذوا بيده الكريمة وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة واقترحوا حلف جماعة وهم الملك العادل والملك الأفضل والملك الظاهر عز نصرهم والمشطوب وبدر الدين دلدرم والملك المنصور ومن كان مجاوراً لبلادهم كابن المقدم وصاحب شيزر وغيرهم فوعدهم السلطان أن يسير معهم رسلا الى الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم وحلف لصاحب انطاكية وطرابلس وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين فان لم يحلفوا فلا يدخلوا فى الصلح ثم أمر المنادى أن ينادى فى الوطاقات والاسواق ألا ان الصلح قد انتظم فى سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا أن يدخل الى بلادهم فليفعل وأشار رحمة الله عليه أن طريق الحج قد فتح من الشام ووقع له عزم على الحج فى ذلك المجلس وكنت حاضراً ذلك جميعه وأمر السلطان أن تسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ولاخراج الافرنج منها ويكون معهم جماعة من الافرنج الى حين وقوع الخراب فى السور خشية استبقائه عامراً .وكان يوما مشهوداً غشى الناس من الطائفتين فيه مس الفرح والسرور مالا يعلمه إلا الله تعالى والله العظيم إن الصلح لم يكن من ايثاره فإنه قال لى فى بعض محاورتة فى الصلح أخاف

أن أصالح وما أدرى أى شيء يكون منى فيقوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى رأس قلعته يعنى حصنه وقال لا انزل فيهلك المسلمون . هذا كلامه وكان كما قال لكنه رأى المصلحة فى الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة وكانت مصلحة فى علم الله تعالى فانه اتفقت وفاته بعيد الصلح ولو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر فما كان الصلح الا توفيقا وسعادة له .

ذكر خراب عسقلان

ولما كان الخامس والعشرون من شعبان ندب السلطان علم الدين قيصر إلى خراب عسقلان وسير معه جماعة من النقابين والحجارين واستقر ان الملك ينفذ من يافا من يسير معه ليقف على التخريب ويخرج الافرنج منها فوصلوا اليها من الغد فلما أرادوا التخريب اعتذر الأجناد الذين بها بان لنا عى الملك جامكية لمدة فأما أن يدفعها إلينا ونخرج أو ادفعوها أنتم الينا فوصل بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا ووقع التخريب فيها فى السابع والعشرين من شعبان واستمر يخربها وكتب على الجماعة رقاعا بالمعاونة على التخريب وأعطى كل واحد قطعة معلومة فى السور وقيل له دستورك فى تجريبها .

ولما كان التاسع والعشرون رحل السلطان إلى النطرون واختلط العسكران وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا فى طلب التجارة ووصل خلق عظيم من العدو إلى القدس للحج وفتح لهم السلطان الباب وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردهم إلى يافا وكثر ذلك من الافرنج وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا غرضهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم فيأمن المسلمون من شرهم .

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار واقترح أن لا يؤذن لهم الا بعد حضور علامة من جانبه أو كتابه وعلمت الإفرنج ذلك فعظم عليهم واهتموا فى الحج فكان يرد منهم فى كل يوم جموع كثيرة مقدمون وأسباط وملوك متنكرون وشرع السلطان فى اكرام من يرد ومد الطعام ومباسطتهم ومحادثتهم وعرفهم انكار الملك ذلك واعتذر الى الملك بان قوما قد وصولا من بعد ذلك لزيارة هذا المكان الشريف فلا أستحل منعهم ثم اشتد المرض بالملك فرحل فى ليلة التاسع والعشرين وسار هو والكندهرى وسائر العدو الى جانب عكا ولم يبق فى يافا الا مريض او عاجز ونفر يسير .

ذكر عود العساكر الاسلامية الي أوطانهم

ولما انقضى هذا الامر واستقرت القواعد أعطى السلطان الناس دستورا وكان أول من سار عسكر اربل فانه سار فى مستهل شهر رمضان المبارك ثم سار بعده فى ثانية عسكر الموصل وسنجار والحصن وأشاع أمر الحج وقوى عزمه على براءة الذمة وكان هذا مما وقع لى وبدأت بالاشارة به فوقع منه وقعا عظيما وأمر الديوان وكل من عزم على الحج من العسكر أن يثبت اسمه حتى يحصر عدة من يدخل معنا فى الطريق وكتب جراند بما يحتاج اليه فى الطريق من الخلع والازواد وغيرها وسيرها الى البلاد ليعدوها .

ولما أعطى الناس دستورا وعلم عود العدو قد رجع الى ورائه رأى الدخول إلى القدس الشريفة لتهيئة أسباب عمارته والنظر فى مصالحا والتأهب للمسير الى الحج فرحل من النطرون يوم الأحد رابع يوم شهر رمضان وسار حتى أتى ماء صموبل يفتقد الملك العادل فوجده قد سار الى القدس وكنت عنده رسولا من جانب السلطان أنا والامير بدر الدين دلدرم والعدل وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب مرضه وكان قد تماثل فعرفاه مجىء السلطان الى ماء صمويل لعيادته فحمل على نفسه وسار معنا حتى لقيه فى ذلك

المكان وهو أول وصوله لى ماء صمويل ولم ينزل بعد فلقيه ونزل وقبل الارض وعاد فركب فاستدناه وسأله عن مزاجه وسار جميعا حتى أتيا القدس الشريف فى بقية ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول من بغداد

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرون من شهر رمضان صلى الملك العادل الجمعة وانصرف إلى الكرك عن دستور من السلطان لينظر فى احواله ويعود الى البلاد الشرقية يدبرها فانه كان قد أخذها من السلطان وكان قد ودع السلطان فلما وصل العازرية نزل بها مخيما فوصله من أخبر أن رسولا من بغداد واصل اليك فانفذ الى السلطان و عرفه فذكر له أن يجتمع ويطالع ماوصل فيه فلما كان السبب الرابع والعشرون دخل الى الخدمة السلطانية وذكر أن الرسول قد وصل اليه من جانب ابن النافذ بعد ان ولى نيابة الوزارة ببغداد ومقصود الكتاب أنه يحثه على استعطاف قلب السلطان الى الخدمة الشريفة والدخول بينه وبين الديوان العزيز والانكار عليه بتأخر رسله عن العتبة الشريفة واقتراح تسيير القاضى الفاضل ليحضر الديوان العزيز فى تقرير قاعدة تتحرر بينه وبين السلطان لابد منها وقد وعد الملك العادل من الديوان بوعود عظيمة اذا قرر ذلك وتكون له يد عند الديوان يستثمرها فيما بعد وما يشبه هذا الفن فحدثت عند السلطان فكرة فى انفاذ رسول يسمع كلام الديوان ويستعلم سبب دخول الملك العادل فى البين وزاد الحديث ونقص وطال وقصر وقوى العزم السلطانى على انفاذ الضياء الشهر زورى وعاد الملك العادل إلى مخيمه بالعازرية بعد تقرير هذه القاعدة وعرفه اجابة السلطان الى انفاذ رسول الى خدمة الديوان العزيز وسار يوم الاثنين طالبا جهة الكرك وسار الضياء متوجها الى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان .

ذكر توجه ولده الملك الظاهر الي بلاده ووحشة السلطان له

ولما كانت بكرة التاسع والعشرين توجه الملك الظاهر عز نصره بعد أن ودعه ونزل الى الصخرة فصلى عندها وسأل الله تعالى ماشاء ثم ركب وركبت فى خدمته فقال لى قد تذكرت أمراً أحتاج فيه الى مراجعة السلطان مشافية فأنفذ من استأذن له العود الى خدمته فأذن له فى ذلك فحضر واستحضرنى وأخلى المكان ثم قال له أوصيك بتقوى الله تعالى فانها رأس كل خير وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاتك وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فان الدم لاينام وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر فى أحوالهم فأنت أمينى وأمين الله عليهم وأوصيك بحفظ قلوب الامراء وأرباب الدولة والاكابر فما بلغت مابلغت إلا بمداراة الناس ولا تحقد على أحد فان الموت لايبقى على أحد وأحذر مابينك وبين الناس فانه لايغفر الا برضاهم وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك اليه فانه كريم . وكان ذلك بعد أن انصرفنا من خدمته ومضى من الليل ماشاء الله أن يمضى وهذا ما أمكننى حكايته وضبطه ولم يزل بين يديه الى قريب السحر ثم أذن له فى الانصراف ونهض ليودعه فقبل وجهه ومسح رأسه وانصرف فى دعة الله ونام فى برج الخشب الذى للسلطان وكنا نجلس عنده فى الاحياء الى بكرة وانصرفت فى خدمته الى بعض الطريق وودعته وسار فى حفظ الله .

ثم سير الملك الافضل ثقله وأقام يراجع السلطان على لسانى فى أشغال كانت له حتى دخل فى شوال أربعة أيام وسار فى ليلة الخامس منه نصف الليل عن تعتب عليه جريدة على طريق الغور .

ذكر مسيره رحمه الله من القدس الشريف

وأقام السلطان يقطع الناس ويعطيهم دستورا ويتأهب للمسير الى الديار

المصرية وانقطع شوقه عن الحج و كان من أكبر المصالح التى فاتته ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب الانكتار متوجها الى بلاده مستهل شوال فعند ذلك حرر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل جريدة ويفتقد القلاع البحرية الى بانياس ويدخل دمشق المحروسة يقيم بها اياما قلائل ويعود الى القدس الشريف سائرا الى الديار يتفقد احوالها ويقرر قواعدها وينظر فى مصالحها وأمرنى بالمقام فى القدس الشريف لعمارة بيمارستان أنشأه فيه وادارة المدرسة التى انشأها فيه الى حين عوده وسار من القدس الشريف ضحوة نهار الخميس سادس شوال وودعته الى البيرة ونزل بها واكل فيها طعام ثم أتى بعض طريق نابلس فبات فيه ثم أتى نابلس ضحوة نهار الجمعة سابع شوال فلقيه خلق عظيم يستغيثون من المشطوب ويتضررون من سوء رعايته لهم فاقام يكشف عن أحوالهم إلى عصر يوم السبت ثم رحل ونزل بسبصطية يتفقد احوالها ثم أتى فى طريقه الى كوكب ونظر فى أحوالها وسد خللها وذلك فى يوم الاثنين عاشره وكان فكاك بهاء الدين قراقوش من ربقة الأسر يوم الثلاثاء حادى عشر شوال ومثل فى الخدمة السلطانية ففرح به فرحا شديداً وكانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام واستأذن السلطان فى المسير الى تحصيل القطيعة فاذن له فى ذلك وكانت القطيعة على مابلغنى ثمانين الفا والله أعلم .

ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفدا فبالغ فى احترامه واكرامه ومباسطه وانعم عليه بالعمق وزرعان ومزارع تبلغ خمسة عشر الف دينار . وكان قد خلف المشطوب فى القدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن واليه وانما كان واليه عز الدين جرديك وكان ولاه بعد الصلح حالة عوده الى القدس بعد ان شاور فيه الملك العادل والملك الافضل الظاهر على لسانى وأشار به أهل الدين والصلاح لانه كان كثير الجد والخدمة والحفظ لاهل الخير فامرنى السلطان أن أوليه ذلك

فى يوم الجمعة عند الصخرة ووليته اياه بعد صلاة الجمعة واشترطت عليه الأمانة وعرفته موضع حسن اعتقاد السلطان فيه وانعقد الأمر وقام به القيام المرضى . وأما المشطوب فانه كان مقيما بالقدس من جملة من كان مقيما بها وتوفى يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال ودفن فى داره بعد أن صلى عليه فى المسجد الأقصى رحمه الله .

ذكر عود السلطان الي دمشق المحروسة

وكان عوده اليها بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع االساحلية بأسرها والتقدم بسد خللها واصلاح أمور أجنادها وشحنها بالجناد والرجال ودخل دمشق بكرة الاربعاء السادس والعشرين من شوال وفيها أولاده الملك الافضل والملك الظاهر والملك الظافر وأولاده الصغار وكان يحب البلد ويؤثر الاقامة فيه على سائر البلاد وجلس للناس فى بكرة الخميس السابع والعشرين منه وحضر الناس عنده وبلوا شوقهم من رؤيته وانشده الشعراء وعم ذلك المجلس الخاص والعام وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله ويكشف مظالم الرعايا فى الاوقات المعتادة حتى كان يوم الاثنين مستهل ذى القعدة اتخذ الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر فانه لما وصل الى دمشق بلغه حركة السلطان اليها فاقام حتى يتملى بالنظر اليه ثانياً وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنو أجل السلطان فودعه فى تلك الليلة مراراً متعددة وهو يعود اليه . ولما اتخذ الملك الأفضل له دعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه مايليق بهمته وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصوله إلى حلب وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة وسأل السلطان الحضور فحضر جبراً لقلبه .

ذكر قدوم الملك العادل أخيه

ولما تصفح الملك العادل أخبار الكرك وأمر باصلاح ماقصد اصلاحه منه

عاد طالبا البلاد الفراتية فوصل أرض دمشق يوم الاربعاء سابع عشر ذى القعدة وكان السلطان قد خرج الى لقائه وأقام يتصيد حوالى عباب الى الكسوة حتى لقيه وسارا جميعاً وكان دخولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد الحادى والعشرين وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون فى أرض دمشق وموطن الظباء وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك إلا كالوداع لا أولاده ومرابع تنزهه وهو لا يشعر ونسى عزمه المصرى وعرضت له أمور أخرى وعزمات غير ذلك ووصلنى كتابه إلى القدس يستدعيتى إلى خدمته وكان شتاء شديد ووحل عظيم فخرجت من القدس الشريف فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين وكان الوصول إلى دمشق يوم الثلاثاء ثانى عشر صفر سنة تسع وكان وصل أوائل الحج على طريق دمشق واتفق حضورى والملك الأفضل حاضر فى الايوان الشمالى وفى خدمته خلق من الامراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان لخدمته فلما شعر بحضورى استحضرنى وهو وحده قبل أن يدخل اليه أحد فدخلت عليه فقام ولقينى لقاء ما رأيت أشد من بشره بى فيه ولقد ضمنى اليه ودمعت عينه .

ذكر لقائه للحجاج

ولما كان يوم الاربعاء ثالث عشر صفر طلبنى فحضرت عنده فسألنى عمن فى الايوان فأخبرته ان الملك الافضل جالس فى الخدمة والامراء والناس فى خدمته فاعتذر اليهم على لسان جمال الدولة اقبال . ولما كانت بكرة الخميس استحضرنى فحضرت عنده فى صفة البستان وعنده أولاده الصغار فسأل عن الحاضرين فقيل له رسل الافرنج وجماعة الامراء والاكابر فاستحضر رسل الافرنج الى ذلك المكان فحضروا وكان له ولد صغير وكان كثيرا مايميل اليه يسمى الأمير وكان حاضرا وهو يداعبه فلما وقع بصره على الافرنج ورأى أشكالهم وحلق لحاهم وقص شعورهم وما عليهم من

الثياب غير المألوفة خاف منهم وبكى فاعتذر اليهم وصرفهم بعد ان حضروا ولم يسمع كلامهم وقال ان لى اليوم شغلا وكان عادته المباسطة ثم قال احضروا لنا ماتيسر فاحضروا أرزا بلبن وما شابه ذلك من الأطعمة الخفيفة فأكل وكنت أظن أنه ماعنده شهوة وكان فى هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقل الحركة عليه وكان بدنه ملتاثا [1] ممتلئا وعنده كسل فلما فرغنا من الطعام قال ما الذى عندك من خبر الحاج فقلت اجتمعت بجماعة منهم فى الطريق ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ولكنهم غدا يدخلون فقال نخرج إن شاء الله إلى لقائهم وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه فانها سنة كثيرة الانداء وقد سالت المياه فى الطرق والأنهار وانفصلت من خدمته ولم أجد عنده من النشاط ما كنت أعرفه ثم ركب فى بكرة الجمعة وتأخرت عنه قليلا ثم لقيته وقد لقى الحاج وكان فيهم سابق الدين وقر الا الياروقى وكان كثير الاحترام للمشايخ فلقيهم ثم لحقه الملك الأفضل وأخذ يحدثنى فنظرت الى السلطان فلم أجد عليه كزاغنده وما كان له عادة يركب بدونه وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء السلطان والتفرج عليه معظم من فى البلد فلم أجد الصبر دون أن سرت الى جابنه وحدثته فى اهمال هذا فكأنه استيقظ فطلب الكزاغند فلم يوجد الزرد كماش فوجدت لذلك أمرا عظيما وقلت فى نفسى السلطان يطلب مالا بد منه فى عادته ولايجده ووقع فى قلبى تطير بذلك فقلت له أليس ثم طريق نسلكه ليس فيه خلق كثير فقال بلى ثم سار بين البساتين فطلب جهة المنيع وسرنا فى خدمته وقلبى يرعد لما قد وقع فيه من الخوف عليه فسار حتى أتى القلعة فعبرا على الجسر إلى القلعة وهو طريقه المعتاد وكانت آخر ركوبه .

مرضه رحمة الله عليه

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما فما انتصف الليل حتى غشيته

---

(١) أى مكدرا ومريضاً .

حمى صفراوية كانت فى باطنه اكثر من ظاهره وأصبح فى يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسلا عليه أثر الحمى ولم يظهر ذلك للناس لكن حضرت أنا والقاضى الفاضل ودخل ولده الملك الأفضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه فى الليل وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ثم انصرفنا والقلوب عنده فتقدم الينا بالحضور على الطام فى خدمة الملك الأفضل ولم يكن القاضى عادته ذلك فانصرف ودخلت أنا إلى الايوان وقد مد الطعام والملك الأفضل قد جلس فى موضعه فانصرفت وما كان لى قوة على الجلوس استيحاشا وبكى جماعة تفاؤلا بجلوس ولده فى موضعه ، ثم أخذ المرض فى تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردد طرفى النهار وندخل اليه أنا والقاضى الفاضل فى النهار مرارا ويعطى الطريق فى بعض الأيام التى يجد فيها خفة وكان مرضه فى رأسه وكان من أمارات انتهاء العمر اذ كان قد ألف مزاجه سفرا وحضرا ورأى الاطباء فقصدوه فى الرابع فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف . ولقد جلسنا فى سادس مرضه وأسندنا ظهره الى مخدة وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حرارته وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله ألا يمكن أحدا تعديل الماء فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضى الفاضل يقول لى أبصر هذه الاخلاق التى قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره واشتد مرضه فى السادس والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه .

ولما كان التاسع حدثت عليه غشية وأمتنع من تناول المشروب فاشتد الخوف فى البلد وخاف الناس ونقلوا الاقمشة من الاسواق وغشى الناس من

الكآبة والحزن مالايمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضى الفاضل نقعد فى كل ليلة الى ان يمضيمن الليل ثلثه أو قريب منه ثم نحضر فى باب الدار فان و جدنا طريقا دخلنا وشاهدناه وانصرفنا والاعرفونا أحواله من وكنا نجد الناس يترقبون خروجنا الى ان يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة وتناول من ماء الشعير مقدار صالحا وفرح الناس فرحا شديداً فاقمنا على العادة الى أن مضى من الليل هزيع ثم أتينا الى الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد فدخل وأنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه جبره الله تعالى ان العرق قد أخذ فى ساقيه فشكرنا الله تعالى على ذلك والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله فى العرق فتفقده ثم خرج الينا وذكر أن العرق سابغ وانصرفنا طيبة قلوبنا ثم اصبحنا فى الحادى عشر من مرضه وهو السادس والعشرين من صفر فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال فاخبرنا بأن العرق أفرط حتى نفذ فى الفراش ثم فى الحصر وتأثرت به الأرض وأن اليبس قد تزايد تزيداً عظيما وحارت فى القوة الأطباء .

ذكر تحليف الأفضل

ولما رأى الملك الافضل ماحل بوالده وتحقق الناس موته تسرع فى تحليف الناس فى دار رضوان المعرفة بسكناه واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصدة تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله بعد وفاته واعتذر الى الناس بأن المرض قد اشتد ومايعلم مايكون ومايفعل هذا الا احتياطاً على جارى عادة الملوك فأول من استحضر للحلف سعد الدين أخو بدر الدين مودود الشحنة فبادر الى اليمن من غير شرط ثم حضر ناصر الدين صاحب صهيون وذاد ان الحصن الذى فى يده له وحضر سابق الدين

صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق واعتذر بأنه ماحلف به . . ثم حضر خشتر بن حسين الهكاوى وحلف . وحضر أنوشروان الزرزارى وحلف واشترط أن يكون له خبر يرضيه . وحضر علكال وملكان حلفان ثم مد الخوان وحضر الجماعة وأكلوا .

ولما كان العصر أعيد المجلس للتحلف وحضر ميمون القصرى رحمه الله وشمس الدين الكبير وقالا نحن نحلف بشرط أن لانسبل فى وجه أحد من أخوتك سيفاً لكن رأسى دون بلادك . هذا قول ميمون القصرى وأما سنقر فانه امتنع ساعة ثم قال كنت خلفتنى على النطرون وأنا عليها وحضر سامة وقال ليس لى خبز نقل لى على شىء أحلف فروجع فحلف وعلق يمينه بشرط أن يعطى خبزا يرضيه . وحضر سنقر المشطوب وحلف واشترط ان يرضى . وحضرايبك الافطس رحمه الله واشترط رضاه . وحضر حسام الدين بشاره وحلف وكان مقدما على هؤلاء ولم يحضر أحد من الامراء المصريين ولم يتعرض لهم بل حلف هؤلاء للتقرير . ونسخه اليمين المحلوف بها مضمونها انى من وقتى هذا صفيت نيتى . وأخلصت طويتى . للملك الناصر مدة حياته وانى لا أزال باذلا جهدى فى الذب [1] عن دولته بنفسى ومالى وسيفى ورجالى ممتثلا أمره واقفا عند مراضيه . ثم من بعده لولده الأفضل على ووريثه ووالله اننى فى طاعته وأذب عن دولته وبلاده بنفسى ومالى وسيفى ورجالى وامتثل أمره . ونهيه وباطنى وظاهرى فى ذلك سواء والله على ما أقول وكيل .

ذكر وفاته رحمه الله وقدس روحه

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر وهى الثانية عشرة من مرضه اشتد مرضه وضعفت قوته ووقع من الأمر فى أوله وحال بيننا وبينه النساء واستحضرت انا والقاضى الفاضل تلك الليلة وابن الزكى ولم يكن

(١) أى أدافع عن دولته بنفسى ومالى وسيفى ورجالى .

عادته الحضور في تلك الوقت وحضر بيننا الملك الأفضل وأمر ان نبيت عنده فلم ير القاضى الفاضل ذلك رأيا فان الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف إن لم ننزل أن يقع الصوت فى البلد وربما نهب الناس بعضهم بعضا فرأى المصلحة فى نزولنا واستحضار الشيخ أبى جعفر امام ا لكلاسة وهو راجل صالح ليبيت بالقلعة حتى اذا احضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء وذكره الشهادة وذكره الله تعالى ففعل ذلك ونزلنا وكل منا يود فداءه بنفسه وبات فى تلك الليلة على حال المنتقلين الى الله تعالى والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرأن ويذكره الله تعالى وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلا فى أحيان . وذكر الشيخ أبو جعفر انه لما انتهى الى قوله تعالى**﴿هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة﴾**[1] سمعه وهو يقول رحمة الله عليه صحيح وهذه يقظة فى وقت الحاجة وعناية من الله تعالى به فلله الحمد على ذلك .

وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعة وثمانين وخمسمائة وبادر القاضى الفاضل بعد طلوع الصبح فى وقت وفاته ووصلت وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرمه وجزيل ثوابه ، ولقد حكى لى أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر قوله تعالى لا اله الا هو عليه توكلت تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه ، وكان يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشى القلعة والبلد والدنيا من الو حشة مالا يعلمه الا الله تعالى . وبالله لقد كنت اسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداءه بنفوسهم وماسمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوز والترخص الا فى ذلك اليوم فانى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لوقليل الفداء لفدى بالنفس .

---

(١) سورة الحشر الآية ٢٢ .

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء فى الإيوان الشمالى وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الامراء والمعممين وكان يوما عظيما وقد شغل كل انسان عنده من الحزن والاسف والبكاء والاستغاثة من أن ينظر الى غيره وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه فاضل وواعظ . وكان أولاده يخرجون مستغيثين الى الناس فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على هذا الى مابعد صلاة الظهر . ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه فما أمكننا أن ندخل فى تجهيزه ماقيمته حبة واحدة الا بالقرض حتى فى ثمن التبن الذى يلت الطين وغسله الدولعى الفقيه ونهضت إلى الوقوف على غسله فلم تكن لى قوة تحمل ذلك المنظر وأخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فوط . وكان ذلك وجميع مااحتاج اليه من الثياب فى تكفينه قد أحضره القاضى الفاضل من وجه حل عرفه وارتفعت الأصوات عند مشاهدته وعظم من الضجيج والعويل ماشغلهم عن الصلاة فصلى عليه الناس ارسالا وكان أول من أم بالناس القاضى محى الدين بن الزكى ثم أعيد الى الدار التى فى البستان وكان متمرضا بها ودفن فى الصفة الغربية منها . وكان نزوله فى حفرته قدس الله روحه ونور ضريحه قريباً من صلاة العصر ثم نزل فى أثناء النهار ولده الملك الظافر وعزى الناس فيه وسكن قلوب الناس وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشغال بالنهب والفساد فما وجد قلب الا حزين ولا عين الا باكية الا من شاء الله . ثم رجع الناس الى بيوتهم اقبح رجوع ولم يعد أحد منهم فى تلك الليلة الا نحن حضرنا وقرأنا وجددنا حالا من الحزن .

واشتغل فى ذلك اليوم الملك الأفضل بكتابة الكتب الى عمه واخواته يخبرهم بهذا الحادث . وفى اليوم جلس للعزاء جلوسا عاما وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعرهم انفض المجلس فى ظهر ذلك اليوم واستمر الحال فى حضور الناس بكرة وعشية وقراءة

القرآن والدعاء له رحمة الله عليه واشتغل الملك الافضل بتدبير أمر ومراسلة اخوته وعمه .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ، فكأنها وكأنهم أحلام

تم بعون الله والحمد لله رب العالمين والصلاة

والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

أجمعين وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين .

منتخبات

من كتاب التاريخ لصاحب حماه تأليف تاج الدين شاهنشاه بن أيوب رحمه الله تتعلق بسيرة السلطان صلاح الدين الأيوبى رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر قتل الصالح بن رزيك

وفى سنة ست وخمسين وخمسمائة فى رمضان قتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمنى وزير العاضد العلو جهزت عليه عمة العاضد من قتله وهو داخل فى القطر بالسكاكين ولم يمت فى تلك الساعة بل حمل الى بيته وأرسل يعتب على العاضد فأرسل العاضد اليه يحلف له أنه لم يرض ولاعلم بذلك وأمسك العاضد عمته وأرسلها الى طلائع فقتلها وسأل العضد أن يولى ابنه رزيك الوزارة ولقلب العادل ومات طلائع واستقر ابنه العادل رزيك فى الوزارة .

ذكر ولاية شاور ثم الضرغام

وفى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة فى صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوى وكان شاور يخدم الصالح طلائع بن رزيك فولاه الصعيد وكانت ولاية الصعيد اكبر المناصب بعد الوزارة . ولما جرح أوصى ابنه العادل أن لايغير على شاور شيأ بقوة شاور ولما تولى العادل بن الصالح الوزارة كتب الى شاور بالعزل فجمع شاور جموعه وسار نحو العادل الى القاهرة فهرب العادل وطرد وراءه شاور وأمسكه وقتله وهو العادل رزيك ابن الصالح طلائع بن رزيك وانقرضت بقتله دولة بنى رزيك واستقر شاور فى الوزارة وتقلب بأمير

الجيوش وأخذ أموال بنى رزيك وودائعهم ثم ان الضرغام جمع جمعاً ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان فقوى على شاور فانهزم شاور الى الشام مستنجدا بنور الدين . ولما تمكن الضرغام من الوزارة قتل كثير من الامراء المصريين لتخلو له البلاد فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد من أيديهم .

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

وفى هذه السنة سير نور الدين محمود بن زنكى عسكرا مقدمهم اسد الدين شيركوه بن شاذى الى الديار المصرية ومعهم شاور وكان قد صار من مصر هاربا من الضرغام الوزير فلحق شاور بنور الدين واستنجده وبذل له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده الى الوزارة فأرسل نور الدين شيركوه إلى مصر فوصل إليها وهزم عسكر ضرغام عند قبر السيدة نفيسة وأعاد شاور إلى وزارة العاضد العلوى ثم غدر شاور بنور الدين ولم يف له بشىء مما شرط شيركوه واستولى على بلبيس والشرقية فأرسل شاور يستنجد الافرنج على اخراج أسد الدين شيركوه من البلاد فسار الافرنج واجتمع معهم ساور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلاثة أشهر وبلغ الافرنج حركة نور الدين وأخذه حارم فراسلوا شيركوه فى الصلح وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلو الشام سالمين .

وفى هذه السنة فى رمضان فتح نور الدين محمود حارم وأخذها من الافرنج بعد مصاف جرى بين نور الدين والافرنج انتصر فيه نور الدين وقتل وأسر عالما كثيرا وكان من جملة الأسرى البرنس صاحب أنطاكية والقومص صاحب طرابلس وغنم منهم المسلمون شيئاً كثيرا .

وفى هذه السنة أيضاً فى ذى الحجة سار نور الدين الى بانياس وفتحها وكانت بيد الافرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة لى هذه السنة . ثم

دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة وفيها فتح نور الدين محمود حصن المنيظرة من الشام وكان بيد الافرنج .

ثم دخلت سنة اثنين وستين وخمسمائة وفيها عاد أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية وجهزه نور الدين بعسكر جيد عدتهم ألف فارس فوصل إلى ديار مصر واستولى على الجيزة وأرسل شاور إلى الافرنج استنجدهم وجمعهم وساروا فى أثر شيركوه إلى جهة الصعيد والتقوا على البلد يقال له الأبوان فانهزم الافرنج والمصريون واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ثم سار الى الاسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب وعاد شيركوه الى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والافرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر فسار شيركوه اليهم واتفقوا على الصلح على مال يحملونه الى شيركوه يسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام فتسلم المصريون الاسكندرية فى منتصف شوال من هذه السنة وسار شيركوه الى الشام فوصل الى دمشق فى ثامن عشر ذى القعدة واستقر الصلح بين الافرنج والمصريين على أن يكون للافرنج بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار وفى هذه السنة فتح نور الدين صاميثا والعربية وفيها عصى غازى بن حسان صاحب منبج على نور الدين بمنبج فسير اليه عسكر أخذوا منه منبج ثم أقطع نور الدين منبج قطب الدين ينال بن حسان أخاغازى المذكور فبقى فيها الى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة .

ثم دخلت سنة أربع وستين وفيها ملك نور الدين قلعة جعبر وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن على بن مالك بن سالم بن ملك بن بدران المقلد بن المسيب العقيلى وكانت بأيديهم من أيام السلطان ملكشاه ولم يقدر نور الدين على أخذها الا بعد أن اسر صاحبها واحضروه الى نور الدين

واجتهد به على تسليمها فلم يفعل فارسل عسكرا مقدمهم فخر الدين مسعود بن أبى على الزعفرانى وأردفه بعسكر اخر مع مجد الدين أبى بكر المعروف بابن الداية وكان رضيع نور الدين وحصروا قلعة جعبر فلم يظفروا منها بشيء ومازالوا على صاحبها مالك حتى سلمها وأخذ عنها عوضا مدينة سروج بأعمالها والملوح من بلد حلب وعشرين ألف دينار معجلة وباب بزاغة .

ذكر ملك أسد الدين شيركوه مصر وقتل ساور ثم ملك صلاح الدين وهو ابتداء الدولة الأيوبية

وفى هذه السنة اعنى سنة اربع وستين وخمسمائة فى ربيع الأول سار أسد الدين شيركوه بن شاذى الى ديار مصر و معه العساكر النورية وسبب تمكن الافرنج من البلاد المصرية وتحكمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بلبيس قهراً فى مستهل صفر من هذه السنة ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها فاحرق شاور مدينة مصر خوفا من أن يملكها الافرنج وأمر اهلها بالانتقال الى القاهرة فبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوما فارسل العاضد الى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الافرنج على الف الف دينار يحملها اليهم فحمل اليهم مائة الف دينار وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال وتحصيله فرحلوا وجهز نور الدين العسكر مع شيركوه وانفق فيهم المال وأعطى شيركوه مائتى الف دينار سوى الثياب والدواب والاسلحة وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب على كره منه . أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بينه . وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه . ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم** ﴾ [1]. ولما قارب شيركوه مصر رحل الافرنج من ديار مصر

---

(1) سورة البقرة الآية ٢١٦ .

على اعقـابهم الى بلادهم فكان هذا لمصر فتحاً جديداً ووصل أسد الدين شيركوه إلى القاهرة فى رابع ربيع الآخر واجتمع بالعاضد وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية وأجرى عليه وعلى عسكره النفقة الوافرة وشرع شاور يماطل شيركوه فيما كان بذله لنور الدين من تقرير المال وإيراد ثلث البلاد ومع ذلك فكان شاور يركب كل يوم الى أسد الدين شيركوه ويعده ويمنه ﴿ ومايعدهم الشيطان الا غروراً ﴾[1] . ثم ان شـاور عـزم على أن يعمل دعوة لشيركوه ومرائه ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل بن شاور من ذلك . ولما رأى عسكر نور الدين من شاور ذلك عزموا على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين يوسف وعز الدين جردبك وغيرها وعرفوا شيركوه بذلك فنهاهم عنه واتفق أن شاور قصد شيركوه على عادته فلم يجده فى المخيم وكان قد مضى لزيارة قبر الشافعى رضى الله عنه فلقى صلاح الدين وجردبك شاور وأعلماه بروح شيركوه الى زيارة الشافعى وساروا جميعا الى شيركوه فوثب صلاح وجرديك على شاور وألقياه الى الارض عن فرسه وأمسكاه فى سابع ربيع الآخر من هذه السنة فهرب أصحابه عنه وأرسلا أعلما شيركوه بما فعلا فحضر ولم يمكنه الا اتمام ذلك وسمع العاضد الخبر فارسل الى شيركوه يطلب منه انفاذ رأس شاور فقتله وأرسل رأسه الى العاضد ودخل بعد ذلك القصر عند العاضد فخلع عليه العاضد خلعه الوزارة ولقبه الملك المنصور أمير الجيوش وسار بالخلع الى دار الوزارة وهى التى كان فيها شاور واستقر فى الأمر وكتب له منشوراً أوله بعد البسملة « من عبد الله ووليه أبى محمد الامام العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الائمة مجير الامة أسد الدين ابى الحارث شيركوه العاضد عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته . وأعلى كلمته .سلام عليك انا نحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ونسأله أن يصلى على محمد وآله الطاهرين والائمة المهديين

---

(١) سورة النساء الآية ١٢٠ .

ويسلم » ثم ذكر تفويض أمور الخلافة اليه ووصايا أضربنا عنه للإختصار .
وكتب العاضد بخطه على ظهر المنشور « هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك امير المؤمنين أهلا لحملها فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الافتخار بان اعتزت خدمتك الى النبوة » ومدحت الشعراء أسد الدين ووصل اليه من الشام مديح العماد الكاتب قصيدة أولها .

باالجد أدركت ماأدرجت لا اللعب   كم راحة جنيت من دوحة التعب
ياشيركوه بن شاذى الملك دعوة من   نادى فعرف خير ابن بخير أب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم   من المدى فى العلا ما حزت باالخبب
ملكت من ملك مصر رتبة قصرت   عنها الملوك فطالت سائر الرتب
قد أمكنت أسد الدين العزيمة من   فتح البلاد فبادر نحوها وثب

وفى شيركوه وقتله شاور يقول عرقلة الدمشقى

لقد فاز بالملك العظيم خليفة   له شيركوه العاضدى وزير
هو الاسد الضارى الذى جل خطبه   وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد طال صحبه   على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره   ولا زال فيه منكر ونكير

فاما الكامل ابن شاور لما قتل أبوه فقد دخل القصر فكان آخر العهد به .
ولما لم يبق لأسد الدين شيركوه منازع أتاه أجله حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة . وتوفى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة فكانت ولايته شهرين وخمسة ايام وكان شيركوه وأيوب ابنا شاذى من بلد دوين قال ابن الاثير وأصلهما من الاكراد الروادية فقصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد وكان ايوب اكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظا قلعة تكريت ولما انكسر عماد الدين زنكى

من عسكر الخليفة ومر على تركيت خدمه أيوب وشيركوه ثم ان شيركوه قتل انسانا بتكريت فاخر جهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد الدين زنكى فاحسن اليهما وأعطاها اقطاعات جميلة .ولما ملك قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظا لها ولما حاصر عسكر دمشق بعلبك بعد موت زنكى سلمها أيوب لهم على اقطاع كثيرة شرطوها له وبقى ايوب من اكبر امراء عسكر دمشق وبقى شيركوه مع نور الدين محمود بعد موت ابيه زنكى واقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من شجاعته وزاده عليها وجعله مقدم عسكره فلما اراد نور الدين ملك دمشق أمر شيركوه فكانت اخاه أيوب فساعد ايوب نور الدين على ملك دمشق وبقى مع نور الدين الى أن أرسل شيركوه الى مصر مرة بعد اخرى حتى ملكها وتوفى فى هذه السنه على ماذكرناه .

ولماتوفى شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب بن شاذى وكان قد سار معه على كره قال صلاح الدين امرنى نور الدين بالمسير مع عمى شيركوه وكان قد قال شيركوه بحضرته يايوسف تجهز للمسير فقلت والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت اليها فلقد قاسيت بالاسكندرية مالا أنساه أبداً فقال نور الدين لابد من مسيره معى فأمرنى نور الدين وانا أستقيل فقال نور الدين لابد من مسيرك مع عمك فشكوت الضائقة فاعطانى ماتجهزت به فكانما أساق إلى الموت ولما مات شيركوه طلب جماعة من الأمراء النورية التقدم على العسكر وولاية الوزارة العاضدية منهم عين الدولة الياروقى وقطب الدين ينال المنبجى وسيف الدين على بن أحمد المشطوب الهكارى وشهاب الدين محمود الحاوى وهو خال صلاح الدين فارسل العاضد أحضر صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر فلم تطعه الامراء المذكورون وكان مع صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاوى فسعى الى المشطوب حتى أماله الى صلاح الدين ثم قصد الحارمى وقال هذا ابن اختك وعزه وملكه لك فمال اليه أيضاً ثم فعل بالباقين كذلك فكلهم أطاع غير الدولة الياروقى فانه قال

أنا لا أخدم يوسف وعاد الى نور الدين بالشام وثبت قدم صلاح الدين على أنه نائب نور الدين وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلا ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيماً عن أن يكتب أسمه وكان لايفرده بكتاب بل الى الامير صلاح الدين وكافة الامر بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فارسلهم اليه نور الدين فاعطاهم صلاح الدين الاقطاعات بمصر وتمكن من البلاد وضعف أمر العاضد ولما فوض الامر الى صلاح الدين تاب عن شرب الخمر واعرض عن أسباب اللهو وتقمص لباس الجد ودام على ذلك إلى أن توفاه الله تعالى . قال ابن الاثير مؤلف كتاب الكامل رأيت كثيراً ممن ابتدأ الملك ينتقل الى غير عقبه فان معاوية تغلب وملك فانتقل الملك الى بنى مروان بعده ثم ملك السفاح من بنى العباس فانتقل الملك الى عقب أخيه المنصور ثم السامانية أول من ابتدى بالملك نصر بن احمد فانتقل الملك الى أخيه اسماعيل وعقبه ثم عماد الدولة بن بويه ملك فانتقل الملك الى عقب أخيه ركن الدولة ثم ملك طغربل الجوقى فانتقل ملكه إلى عقب أخيه ثم شيركوه ملك فانتقل الملك الى أخيه .

ولما قام صلاح الدين بالملك لم يبق الملك فى عقبه بل انتقل الى أخيه العادل ولم يبق لأولاد صلاح الدين غير حلب وكان سبب ذلك كثرة قتل من يتولى ذلك اولا وأخذ الملوك وعيون اهله وقلوبهم متعلقة به فيحرم عقبة ذلك ، ولما استقر قدم صلاح الدين فى الوزارة قتل مؤتمن الخلافة وكان مقدم السودان فاجتمعت السودان فهم حفاظ القصر فى عدد كثير وكان بينهم وبين صلاح الدين وعسكره وقعة عظيمة بين القصرين انهزم فيها السودان وقتل منهم خلق كثير و تبعهم صلاح الدين فاخلاهم قتلا وتهجيجا وتهيجا وحكم صلاح الدين على القصر واقام فيه بهاء الدين قراقوش الأسدى وكان خصيا أبيض وبقى لايجرى فى القصر صغيرة

ولاكبيرة الا بأمر صلاح الدين ، ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة فيها سارت الافرنج الى دمياط وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وأخرج على ذلك أموالا عظيمة فحصروها خمسين يوما وخرج نور الدين فأغار على بلادهم بالشام فرحلوا عائدين على اعقابهم ولم يظفروا بشيء منها ، قال صلاح الدين مارأيت اكرم من العاضد ارسل الى مدة اقامة الافرنج على دمياط الف الف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها .

وفيها سار نور الدين وحاصر الكرك مرة ثم رحل عنه ، وفيها كانت زلزلة عظيمة خربت الشام فقام نور الدين فى عمارة الاسوار وحفظ البلاد اتم قيام وكذلك خرجت بلاد الافرنج فخافوا من نور الدين وأشتغل كل منهم عن قصد الآخر بعمارة ما خرب من بلاده .

وفيها فى ذى الحجة مات قطب الدين مودود بن زنكى بن اقسنقر صاحب الموصل وكان حمى حادة ، ولما مات صرف ارباب الدولة الملك عن ابنه الاكبر عماد الدين زنكى بن مودود الى أخيه الذى هو أصغر منه هو سيف الدين غازى بن مودود فسار عماد الدين زنكى الى عمه نور الدين مستنصراً به . وتوفى قطب الدين وعمره اربعون سنة تقريبا وكانت مدة ملكه احدى وعشرين سنة وخمسة اشهر ونصفاً وكان من احسن الملوك سيرة وفى سنة ست وستين سار نور الدين محمود بن زنكى الى الموصل وهى بيد أخيه غازى بن مودود بن عماد الدين زنكى بن اقسنقر فاستولى عليها نور الدين وملكها ، ولما ملك نور الدين الموصل قرر أمرها وأطلق المكؤس منها ثم وهبها لابن أخيه سيف الدين غازى وأعطى سنجار لعماد الدين وهو اكبر من أخيه فقال كمال الدين الشهرورزى هذا طريق الى أذى يحصل للبيت الاتابكى لأن عماد الدين كبير لايرى أخيه سيف الدين وسيف الدين هو الملك لايرى الاغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف وتطمع الاعداء .

وفى هذه السنة سار صلاح الدين عن مصر فغزا بلاد الافرنج قرب عسقلان والرملة وعاد الى مصر ثم خرج الى أيلة وحصرها وهى للإفرنج على ساحل البحر الشرقى ونقل اليها المراكب حصرها برا وبحرا وفتحها فى العشر الأول من ربيع الآخر واستباح أهلها ومافيها وعاد إلى مصر ولما استقر صلاح الدين بمصر كانت دار الشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية ، وكذلك بنى دار العزل مدرسة للشافعية وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعا ورتب قضاة شافعية وذلك فى العشرين من جمادى الآخرة ، وكذلك اشترى تقى الدين عمر ابن اخى صلاح الدين منازل العز وبناها مدرسة للشافعية (1) .

ذكر اقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة وفيها ثانى جمعة من المحرم وقطعت خطبة العاضد لدين الله . وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أنه لما تمكن صلاح الدين بمصر وحكم على القصر واقام فيه قراقوش الأسدى وكان خصيا ابيض وبلغ نور الدين ذلك ارسل الى صلاح الدين حتما جزما بقطع الخطبة العلوية واقامة الخطبة العباسية فراجعه صلاح الدين فى ذلك خوف الفتنة فلم يلتفت نور الدين إلى ذلك وأصر عليه وكان العاضد قد مرض فأمر صلاح الدين الخطباء أن يخطبوا للمستضىء ويقطعوا خطبة العاضد فامتثلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله بقطع خطبته وتوفى العاضد يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع خطبته .

---

(١) الشافعية نسبة إلى المذهب الشافعى وصاحب المذهب الإمام محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمى القرشى المطلبى أو سعد عبدالله المولود ١٥٠ هـ المتوفى سنة ٢٠٤هـ أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ولد فى غزة بفلسطين ونشأ فى مكة المكرمة قال عنه المبرد : (كان الشافعى أشعر الناس وأءاثهم وأرفهم بالفقه والقراء والقراءات) له تصانيف كثيرة أشهرها كتاب الأم فى الفقه والمسند فى الحديث وأحكام القرآن والرسالة فى أصول الدين وغيرها انظر التهذيب ٢٥/٩ .

ولما توفى العاضد جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع مافيه وكانت كثرته تخرج عن الاحصاء وكان فيه أشياء نفيسة من الأعلاق الثمينة والكتب والتحف فمن ذلك الجبل الياقوت وكان وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا قال ابن الأثير مؤلف الكامل أنا رأيته ووزنته .ومما حكى أنه كان بالقصر طبل للقولنج اذا ضرب الانسان به ضرط فكسر ولم يعلموا به الا بعد ذلك ونقل صلاح الدين أهل العاضد إلى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه وكأن لم تغن بالامس . ولما اشتد مرض العاضد أرسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة ولم يمض اليه فلما توفى علم صدقه فندم لتخلفه عنه وجميع من خطب له منهم أربعة عشر خليفة المهدى ، والنائم والمنصور ، والمعز، والعزيز ، والحكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلى ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدى بسلجماسة فى ذى الحجة سنة ست وتسعين ومائتين الى أن توفى العاضد فى هذه السنة أعنى سنة سبع وستين وخمسمائة مائتان واثنتان وسبعون سنة تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تعط الا واستردت ولم تحل الا وتمررت . ولم تصف الاوتكدرت . بل صفوها لم يخل من الكدر .

ولما وصل خبر الخطبة العباسية بمصر إلى بغداد ضربت لها البشائر عدة أيام وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم الى نور الدين وصلاح الدين والخطباء وسيرت الاعلام السود وكان العاضد المذكور قد رأى فى منامه أن عقربا خرجت من مسجد بمصر معروف ذلك المسجد للعاضد ولدغته فاستيقظ العاضد مرعوبا واستدعى من يعبر الرؤيا وقص مارآه عليه فعبر له بوصول أذى اليه من شخص بذلك المسجد فتقدم للعاضد الى والى مصر باحضار من بذلك المسجد فأحضر اليه شخصا صوفيا يقال له نجم الدين الخو بشانى فاستخبره العاضد عن مقامه وسبب مقامه بالمسجد

المذكور فاخبره بالصحيح فى ذلك ورآه العاضد أضعف من أن يناله بمكروه فوصله بمال وقال له ادع لنا ياشيخ وأمره بالانصراف فلما أراد السلطان صلاح الدين ازالة الدولة العلوية والقبض عليهم فى ذلك فأفتاه بذلك جماعة من الفقهاء وكان نجم الدين الخو بشانى المذكور من جملتهم فبالغ فى الفتيا وصرح فى خطه بتعديد مساويهم وسلب عنهم الايمان وأطال الكلام فى ذلك فصح بذلك رؤيا العاضد .

وفى هذه السنة جرى بين نور الدين وصلاح الدين الوحشية فى الباطن . كان صلاح الدين ساد ونازل الشوبك وهى للافرنج ثم رحل عنها خوفا أن يأخذه فلا يبق مايعوق نور الدين عن قصد مصر فنزله ولم يفتحه لذلك وبلغ نور الدين ذلك فكتمه وتوحش باطنه لصلاح الدين ، ولما استقر صلاح الدين بمصر جمع أقاربه وكبراء دولته وقال بلغنى أن نور الدين يقصدنا فما الرأى فقال تقى الدين عمر ابن أخيه نقاتله ونصده وكان ذلك بحضرة أبيهم نجم الدين أيوب فانكر على تقى الدين ذلك وقال أنا والدكم لو رأيت نور الدين نزلت وقبلت الأرض بين يديه بل اكتب وقل لنور الدين أنه لو جاءنى من عندك إنسان واحد وربط المنديل فى عنقى وجرنى إليك سارعت إلى ذلك وانفضوا على ذلك ثم اجتمع أيوب بابنه صلاح الدين خلوة وقال له لوقصدنا نور الدين أنا كنت أول من يمنعه ويقاتله ولكن ان أظهرنا ذلك يترك نور الدين جمع ماهو فيه ويقصدنا ولاتدرى مايكون من ذلك واذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل به الكفاية من عند الله فكان كما قال .

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة وفى هذه السنة سارت طائفة من الترك من ديار مصر مع مملوك لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اسمه قراقوش الى افريقية ونزل على طرابلس الغرب فحاصرها مدة ثم فتحها واستولى عليها وملك كثيرا من بلاد افريقية .

وفيها سار نور الدين الى بلاد قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان واستولى على مرعش وبهسنى ومرزيان وسيواس فارسل اليه قليج أرسلان يستعطفه ويطلب الصلح فقال نور الدين لاأرضى إلابأن ترد ملطية على ذى النون بن الراشمنذ وكان قليج أرسلان قد أخذها منه فبذل له سيواس فاصطلح معه نور الدين فلما مات نور الدين عاد قليج أرسلان واستولى على سيواس وطرد ابن الراشمنذ .

وفيها سار صلاح الدين من مصر الى الكرك وحصرها وكان فتواعد نور الدين أن يجتمعا على الكرك وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم وهو بالقرب من الكرك فخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين فرحل عن الكرك عائدا الى مصر وأرسل تحفاً الى نور الدين واعتذر بان أباه أيوب مريض وخشي أن يموت فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره فى الظاهر وعلم المقصود .

ولما وصل صلاح الدين إلى مصر وجد أباه أيوب قد مات ، وكان سبب موت نجم الدين أيوب بن شاذى المذكور أنه ركب بمصر فنفرت به فرسه فوقع وحمل الى قصره وبقى أياما ومات فى السابع والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة وكان عاقلا حسن السيرة ،

ذكر ملك شمس الدين توران شاه بن أيوب لليمن

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة وكان صلاح الدين واهله خائفين من نور الدين فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر بحيث أن قصدهم نور الدين قاتلوه فان هزمهم التجأوا الى تلك المملكة فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الى النوبة فلم تعجبهم بلادها ثم سيره فى هذه السنة بعسكر إلى اليمن وكان صاحب اليمن حينئذ إنساناً يسمى عبد النبى المقدم الذكر فى سنة أربع وخمسين وخمسمائة فتجهز توران شاه ووصل إلى

اليمن وجرى بينه وبين عبد النبى قتال فانتصر فيه توران شاه وهزم عبد النبى وهجم زبيد وملكها وأسر عبد النبى ثم قصد عدن وكان صاحبها اسمه ياسر فخرج لقتال توران شاه فهزمه توران شاه فهجم عدن وملكها وأسر ياسر أيضا واستولى توران شاه على بلاد اليمن واستقرت فى ملك صلاح الدين واستولى على أموال عظيمة لعبد النبى وكذلك من عدن .

ذكر قتل جماعة من المصريين وعمارة اليمني

فى هذه السنة فى رمضان صلب صلاح الدين جماعة من أعيان المصريين فانهم قصدوا الوثوب عليه واعادة الدولة العلوية فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم . فمنعهم عبد الصمد الكاتب . والقاضى العويرس . وداعى الدعاة وعمارة بن على اليمنى الشاعر الفقيه . وله أشعار حسنة فمنها مما يتعلق باحوال العلويين وانقراض دولتهم قوله قصيدة منها .

رميت يادهر كف المجد بالشلل   وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

جدعت مارنك الاقفى فأنفك لا   ينفك مأبون أهل الشين والخجل

مررت بالقصر والاركان خالية   من الوفود وكانت قبلة القبل

وفى هذه السنة توفى الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ابن اقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة وغير ذلك يوم الأربعاء حادى عشر شوال بعلة الخوانيق بقلعة دمشق المحروسة وكان نور الدين شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين وكان يريد أن يخلى ابن أخيه سيف الدين غازى بن مودود فى الشام قبالة الافرنج ويسير هو بنفسه الى مصر فأتاه أمر الله الذى لامرد له وكان نور الدين اسمر طويل القامه ليس له لحية إلا فى حنكة حسن الصورة وكان قد اتسع ملكه جداً وخطب له بالحرمين واليمن لما ملكها توران شاه بن أيوب وكذلك كان يخطب له بمصر وكان مولد نور الدين سنة احدى عشر وخمسمائة وطبق ذكره

الارض حسن سيرته وعدله ، وكان من الزهد والعبادة على قدم عظيم وكان يصلى كثيراً من الليل فكان كما قيل .

جمع الشجاعة والخشوع لربه ماأحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة [1] رضى الله عنه وليس عنده فيه تعصب وهو الذى بنى أسوار مدن الشام منها دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها لما تهدمت بالزلازل وبنى المدارس الكثيرة الحنفية والشافعية ولايحتمل هذا المختصر ذكر فضائله .

ولما توفى نور الدين قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بالملك بعده وعمره احدى عشرة سنة وحلف له العسكر بدمشق وأقام بها وأطاعه صلاح الدين بمصر وخطب له بها وضربت السكة باسمه وكان المتولى لتدبير الملك الصالح وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد المعروف بابن المقدم .

ولما مات نور الدين وتولى ابنه الملك الصالح سار من الموصل سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى وملك جميع البلاد الحزرية .

ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة وفى أول هذه السنة اجتمع على رجل من أهل الصعيد يقال له الكنز جمع كثيرا وأظهر الخلاف على صلاح الدين فارسل صلاح الدين اليه عسكرا فاقتتلوا وقتل الكنز جماعة معه وانهزم الباقون .

---

(١) هو النعمان بن ثابت التيمى بالولاء الكوفى أبو حنيفة ولد سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٥٠ هـ إمام الحنفية الفقيه المجتهد المحقق أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ولد ونشأ فى الكوفة كان قوى الحجة ومن أحسن الناس منطقاً وقال عنه الإمام مالك : (رأيت رجلاً لو كلمته فى هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته) وكان كريماً فى أخلاقه جواداً حسن المنطق والصوررة جهورى الصوت له المسند فى الحديث جمعه تلاميذه انظر النجوم الزاهرة ٢ / ١٢ .

ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها

فى هذه السنة سلخ ربيع الأول ملك صـلاح الدين بن أيوب دمـشق وحمص وحماه ، وسببه أن شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل سعد الدين كمشتكين يستدعى الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ليكون مقامه بها فسار الملك الصالح إلى حلب مع سعد الدين كمشتكين ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته وقبض على الرئيس ابن الخشاب واخوته وهو رئيس حلب واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح فخافه بن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق فكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملكوه عليهم فسار جريدة فى سبعمائة فارس ولم يلبث ان وصل دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه ونزل بدار أبيه أيوب المعروفة بدار العقيقى وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة اليه فصعد اليهم صلاح الدين وأخذ مافيها من الأموال .

ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق استخلف فيها أخاه سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب وسار الى حمص مستهل جمادى الأولى وكانت حمص وحماة قلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلاد الجزيرة فى اقطاع فخر الدين ابن الزعفرانى فلما مات نور الدين لم يمكث فخر الدين مسعود لمقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فان قلاعها فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم فى القلاع حكم الابارين فان قلعتها كانت له أيضا ونزل صلاح الدين على حمص فى حادى عشر جمادى الأولى وملك المدينة وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ورحل الى حماة فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية

فامتنع فى القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس له غرض الا حفظ بلاد الملك الصالح عليه وانما هو نائبه وقصده من جرديك المسير الى حلب فى رسالة فاستخلفه جرديك على ذلك وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحصرها وبها الملك الصالح فجمع أهل حلب وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلة أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فارسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا دونه واستمر صلاح الدين محاصر الحلب مستهل رجب ورحل عنها بسبب نزول الافرنج على حمص ونزول صلاح الدين على حماة ثامن رجب وسار إلى حمص فرحل الافرنج عنها ووصل صلاح الدين إلى حمص وحصر قلعتها وملكها في الحادى والعشرين من شعبان من هذه السنة ثم سار الى بعلبك فملكها ، ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد أرسل الملك الصالح إلى ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه صحبه أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى وجعل مقدم الجيش اكبر أمرائه وهو عز الدين محمود ولقبه سلفندار وطلب أخاه الأكبر عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار ليسير فى النجدة أيضاً فامتنع مصانعة لصلاح الدين فسار سيف الدين غازى وحصره بسنجار ووصل عسكر الموصل صحبة مسعود بن مودود وسلفندار إلى حلب وانضم اليهم عسكر حلب وسار إلى صلاح الدين فأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماه وأن يقر بيده دمشق ويكون فيها نائبا للملك الصالح فلم يجيبوا الى ذلك وساروا إلى قتاله واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم وتبعهم صلاح الدين حتى حصرهم فى حلب وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور

الدين وأزال اسمه عن السكة [1] واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين فى الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح مابقى بيده منهم فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب فى العشر الأول من شوال من هذه السنة .

وفى العشر الأخير من شوال ملك السلطان صلاح الدين قلعة بارين وأخذها من صاحبها فخر الدين مسعود ابن الزعفرانى وكان فخر الدين المذكور من اكابر الامراء النورية .

ذكر انهزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة وفيها عاشر شوال كان المصاف بين السلطان صلاح الدين وبين سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى بتل السلطان فهرب سيف الدين والعساكر التى كانت معه فانه كان قد استنجد بصاحب حصن حيفا وصاحب ماردين وغيرهما وتمت على سيف الدين غازى الهزيمة حتى وصل إلى الموصل مرعوبا وقصد الهروب منها إلى بعض القلاع فثبته وزيره وأقام بالموصل واستولى السلطان صلاح الدين على أثقال عسكر الموصل وغيرهم مافيها ثم سار إلى نرابه وحصرها وتسلمها ثم سار إلى منج فحصرها فى آخر شوال وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي شديد البغض لصلاح الدين وفتحها عنوة وأسرينال وأخذ جميع موجوده ثم أطلقه فسار ينال إلى الموصل فاقطعه سيف الدين غازى مدينة الرقة ثم سار السلطان صلاح الدين الى عزاز ونازلها ثالث ذى القعدة وتسلمها حادى عشر ذى الحجة فوثب الإسماعيلى على صلاح الدين فى حصاره عزاز فضربه بسكين فى رأسه فجرحه فامسك صلاح الدين الاسماعيلى وبقى يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الاسماعيلى

---

(١) السكة : قطع النقود وكان وقتئذ يسك اسم الملك عليها .

على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتل وثالث فقتل أيضا ونجا السلطان الى خيمته مذعورا وعرض جنده وأبعد من انكره منهم ، ولما املك السلطان عزاز رحل عنها ونازل حلب في منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح وانقضت هذه السنة وهو محاصر لحلب فسألوه في الصلح فأجابهم اليه وأخر اليه بنتا صغيرة لنور الدين فاكرمها وأعطاها شيأ كثيرا وقال لها ماترومين فقالت أريد قطعة عزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها السلطان اليهم واستقر الصلح ورحل السلطان من حلب في العشرين من محرم سنة اثنين وسبعين .

وفي سنة احدى وسبعين في رمضان قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب من اليمن إلى الشام وأرسل الى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله .

ثم دخلت سنة احدى وسبعين وخمسمائة وفيها قصد السلطان بلد الاسماعيلية في قلعة مصيات فارسل سنان مقدم الاسماعيلية إلى خال صلاح الدين وهو شهاب الدين الحارمي صاحب حماه يسأله أن يسعى في الصلح فسأل الحارمي الصفح عنهم فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم وأتم السلطان صلاح الدين مسيره ووصل إلى مصر فإنه كان بعد عهده بها بعد أن استقر له ملك الشام ، ولما وصل إلى مصر في هذه السنة أمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة على جبل المقطم ودور ذلك تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع بالذراع القاسمي ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين .

وفي هذه السنة أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التي على قبر الامام الشافعي رضى الله عنه بالقرافة وعمل بالقاهرة مارستان [1] .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وفي جمادى الأولى منها سار السلطان من مصر إلى الساحل لغزو الافرنج فوصل إلى عسقلان في الرابع

---

(١) مارستان : أي المستشفى .

والعشرين من الشهر فنهب وتفرق عسكره فى الاغارات وبقى السلطان فى بعض العسكر فلم يشعر إلا بالافرنج قد طلعت عليه فقاتلتهم أشد قتال وكان لتقى الدين بن شاهنشاه ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب أول ماتكاملت لحيته فأمره أبوه تقى الدين بالحملة فحمل عليهم وقاتلهم فأثر فيهم أثراً كبيراً وعاد سالما فأمره أبوه بالعود اليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا وتمت الهزيمة على المسلمين وقاربت حملات الافرنج السلطان فمضى منهزما الى مصر على البرية ومعه من سلم فلقوا فى طريقهم مشقة وعطشا شديداً وهلك كثير من الدواب وأخذت الافرنج العسكر الذين كانوا يتفرقون فى الاغارات أسرى وأسر الفقيه عيسى وكان من اكبر أصحاب السلطان فافتداه السلطان من الاسر بعد سنتين بستين الف دينار ووصل السلطان إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة . قال الشيخ عز الدين على بن الاثير مؤلف رأيت كتابا بخط يد صلاح الدين الى أخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له الواقعة وفى أوله .

« ذكرتك والخطى يخطر بيننا * وقد نهلت منا المثقفة السمر[1] »

ويقول فيه « **لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله سبحانه الا لأمر يريده الله سبحانه وتعالى** »

وفى هذه السنة سار الفرنج وحصروا مدينة حماة فى جمادى الأولى وطمع الافرنج بسبب السلطان بمصر وهزيمته من الافرنج ولم يكن غير توران شاه بدمشق ينوب عن أخيه وليس عنده كثير من العسكر وكان توران شاه أيضا كثير الانهماك فى اللذات . مائلا الى الراحات ولما حصروا حماة كان بها صاحبها شهاب الدين الحارمى خال السلطان وهو مريض واشتد حصار الافرنج لحماة وطال زحفهم عليها حتى أنهم هجموا بعض أطراف المدينة وكادوا يملكون البلد قهرا ثم جد المسلمون فى القتال واخرجوا الافرنج إلى ظاهر السور وأقام الافرنج كذلك على حماة أربعة أيام ثم رحلوا

(١) المثقفة السمر : أى الرماح القوية المدببة .

عنها إلى حارم وعقب رحيلهم عنها مات صاحبها شهاب الدين الحارمى وكان له ابن من أحسن الناس شباب مات قبله بثلاثة أيام

وفى هذه السنة قبض الملك الصالح ابن نور الدين صاحب حلب على سعد الدين كمشتكين وكان قد تغلب على الأمر وكانت حارم لكمشتكين فأسل الملك الصالح اليهم فلم يسلموها اليه فامر كمشتكين أن يسلمها فأمرهم بذلك فلم يقبلوا منه فأمر بتعذيب كمشتكين ليسلموا القلعة فعذب وأصحابه يرونه ولايرحمونه فمات من العذاب وأصر أصحابه على الامتناع ووصل الافرنج الى حارم بعد رحيلهم عن حماة وحصروا حارم مدة أربعة أشهر فأرسل الملك الصالح مالا للإفرنج وصالحهم فرحلوا عن حارم وقد بلغ أهله الجهد وبعد أن رحل الإفرنج عنها أرسل الملك الصالح اليها واستناب بقلعة حارم مملوكا لأبيه اسمه سرخك .

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة وفى هذه السنة طلب توران شاه من أخيه السلطان بعلبك وكان السلطان قد أعطاها شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بالمقدم لما سلم دمشق إلى صلاح الدين ولم يمكن صلاح الدين منع أخيه عن ذلك فأرسل الى ابن المقدم ليسلم بعلبك فمضى بها ولم يسلمها فارسل السلطان وحصره ببعلبك وطال حصارها فأجاب ان بالمقدم الى تسليمها على عوض فعوض عنها وتسلمها السلطان واقطعها أخاه توران شاه » .

وفيها كان بالبلاد غلاء وتبعه ووباء شديد ، وفيها سير السلطان ابن أخيه تقى الدين الى حماة وابن عمه محمد بن شيركوه الى حمص وأمرهما بحفظ بلادهما فاستقر كل منهما ببلده .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة وفيها سار السلطان وفتح حصنا كان بناه الافرنج عد مخاضة الاجران بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب ، وفيها كان حرب بين عسكر السلطان ومقدمهم تقى الدين عمر

ابن شاهنشاه ابن أيوب وبين عسكر قليج أرسلان صاحب الرو م . وسببها ان حصن رعبان كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج وأرسل اليه عسكرا كثيرا ليحصروه وكانوا قريب عشرين ألفا وسار اليهم تقى الدين فى ألف فارس فهزمهم وكان تقى الدين يفتخر ويقول هزمت بألف عشرين الفا.

ذكر وفاة المستضيء وخلافة الامام الناصر وهو رابع ثلاثينهم

فى هذه السنة ثانى ذى القعدة توفى المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن وأمه ام ولد أرمينة وكانت خلافته تسع سنين وسبعة عشر يوما وكان حسن السيرة وكان حكم فى دولته ظهير الدين أبو بكر منصور المعروف بابن العطار بعد عضد الدين الوزير فلمامات المستضيء قام ظهير الدين بن العطار وأخذ البيعة لولده الامام الناصر لدين الله ولما استقرت البيعة للإمام الناصر حكم استاذ الدار مجد الدين أبو الفضل وقبض فى سابع ذى القعدة على ابن العطار ونقل إلى التاج وأخرج ميتا على رأس حمال ليلة الأربعاء ثانى عشر ذى القعدة فثارت به العلقة وألقوه من على رأس الحمال وشدوا فى ذكره حبلا وسحبوه فى البلد وكانوا يضمونفى يده مغرفة يعنى انها قلم وقد غمست تلك المغرفة فى العذرة ويقولون وقع لنا يامولانا هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم ثم خلص منهم ودفن وفى هذه السنة فى ذى القعدة نزل توران شاه أخو السلطان عن بعلبك فطلب عوضها الاسكندرية فأجابه السلطان إلى ذلك وأقطع بعلبك لعز الدين فخرشاه بن شاهنشاه بن أيوب فسار اليها فخرشاه وسار شمس الدولة توران شاه إلى الإسكندرية وأقام بها إلى أن مات .

ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة وفى هذه السنة ثالث صفر توفى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى بن اقسنقر صاحب الموصل والديار الجزرية وكان مرضه السل وطال وكان عمره نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين ونحو ثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون عاقلا عادلا عفيفا شديد الغيرة لا يدخل بيته غير الخدم اذا كانوا صغار فاذا كبر أحدهم منعه وكان عفيفا عن أموال الرعية مع شح كان فيه وأوصى بالمملكة بعده الى أخيه عز الدين مسعود بن مودود واعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجار شاه فاستقر ذلك بعد موته حسبما قرره وكان مدبر الدولة والحاكم فيها مجاهد الدين قيماز .

وفى هذه السنة سار السلطان الى جهة قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ووصل الى رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح بلاد الروم ووصل الى رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الأرمنى وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله واسرى أطلقها .

وفيها توفى شمس الدولة توران شاه ابن ايوب أخو صلاح الدين الأكبر بالأسكندرية وكان له معها أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وغيرهما وكان أجود الناس وأسخاهم كفا يخرج كل مايحمل اليه من أموال اليمن ودخل الأسكندرية ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مئتى الف دينار مصرية فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما وصل إلى مصر فى هذه السنة فى شعبان واستخلف بالشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك .

ثم دخل سنة سبع وثمانين وخمسمائة وفيها عزم البرنس صاحب الكرك على المسير إلى مدينة الرسول ﷺ للاستيلاء على تلك النواحي الشرقية

وسمع ذلك عز الدين فخر شاه نائب عمه السلطان بدمشق فجمع جموعا وقصد بلاد الكرك وأغار عليها وأقام فى مقابلة البرنس ففرق البرنس جموعه وانقطع عزمه عن الحركه .

وفيها وقع بين نواب توران شاه باليمن بعد موته اختلاف فخشى السلطان صلاح الدين على اليمن فجهز اليه عسكرا مع جماعة من امرائه فوصولا إلى اليمن واستولوا عليه وكان نواب توران شاه على عدن عز الدين عثمان وعلى زبيد حطان بن كامل بن منقذ الكنانى من بيت صاحب شيزر .

ذكر وفاة الملك الصالح صاحب حلب

فى هذه السنة فى رجب توفى الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكى اقسنقر صاحب حلب وعمره نحو تسعة عشر سنة ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الاطباء الخمر فمات ولم يستعمله وكان حليما عفيف اليد والفرج واللسان ملازما لأمور الدين لايعرف له شيء مما يتعاطاه الشاب واوصى بملك حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فلما مات سار مسعود ومجاهد الدين قيماز من الموصل إلى حلب واستقر فى ملكها . ولما استقر مسعود فى ملك حلب كاتبه أخوه عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار فى أن يعطيه حلب ويأخذ منه سنجار فأشار قيماز بذلك فلم يمكن مسعود الا موافقته فأجاب إلى ذلك فسار عماد الدين الى حلب وتسلمها سنجار الى أخيه مسعود وعاد مسعود إلى الموصل .

ذكر مسير السلطان صلاح الدين الي الشام

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وفيها خامس محرم سار صلاح الدين من مصر الى الشام ، من عجيب الاتفاق انه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه أخذ كل منهم يقول شيئاً فى الوداع وفراقه وفى الحاضرين معلم لبعض أولاد السلطان فأخرج رأسه من بين الحاضرين

وأنشد :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه وتكدر المجلس على الحاضرين فلم يعد صلاح الدين بعدها الى مصر مع طول المدة وسار السلطان وأغار فى طريقه على بلاد الافرنج وغنم ووصل إلى دمشق فى حادى عشر صفر من هذه السنة . ولما سار صلاح الدين الى الشام اجتمعت الإفرنج قريب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه نائب السلطان الفرصة وسار الى الشقيف بعساكر الشام وفتحه وأغار على مايجاوره من بلاد الافرنج وأرسل الى السلطان وبشره بذلك.

ذكر ارسال سيف الاسلام الى اليمن

فى هذه السنة سير السلطان اخاه سيف الاسلام طغتكين إلى بلاد اليمن ليملكها ويقطع الفتن منها وكان بها حطان بن منقذ الكنانى وعز الدين عثمان الزنجيلى قد عاد إلى ولايتها فان الامير الذى كان سيره السلطان نائبا إلى اليمن تولى وعزلهما فعادت بين حطان وعثمان الفتن قائمة فوصل سيف الإسلام إلى زبيد فتحصن حطان فى بعض القلاع فلم يزل سيف الإسلام يتلطف به حتى نزل اليه فأحسن صحبته ثم ان حطان طلب دستورا إلى الشام فلم يجبه إلا بعد جهد فجهز حطان اثقاله قدامه ودخل حطان ليودع سيف الاسلام فقبض عليه وأرسل فاسترجع اثقاله وأخذ جميع أمواله. وكان من جملة ما أخذه سيف الاسلام سبعون غلاف زردية مملوءة ذهبا عينا ثم سجن حطان فى بعض قلاع اليمن فكان آخر العهد به . فأما عثمان الزنجيلى فانه لما جرى لحطان ذلك خاف وسار نحو الشام وسير أمواله فى البحر فصادفهم مركب فيها أصحاب سيف الاسلام فاخذوا كل مالعثمان وصفت بلاد اليمن لسيف الاسلام .

ذكر غارات السلطان صلاح الدين وما استولي عليه من البلاد

وفي هذه السنة سار السلطان من دمشق في ربيع الأول ونزل قريب طبرية شن الغارات على بلاد الافرنج مثل بانياس و جبنين والغور فغنم وقتل وعاد إلى دمشق ثم سار عنها إلى بيروت وحصرها واغار على بلادها ثم عاد الى دمشق ثم سار من دمشق الى البلاد الجزرية وعبر الفرات من البيرة فسار معه مظفر الدين بن زين وكان حينئذ صاحب حران وكاتب السلطان ملوك فلك الأطراف واستمالهم فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وسار معه ونازل السلطان الرها وحصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبوري بن قطب الدين بن ينال حسان المنبجي فسار ينال إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم سار صلاح الدين إلى الخابور وملك قرسيسية وما كسين وعربان والخابور واستولى على خابور جصيعة ثم سار الى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ثم ملك القلعة ثم أقطع نصيبين أميرا كان معه يقال له أبو الهجاء السمين ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل وقد استعد صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار وشحنوها بالرجال والسلاح فحصر الموصل وأقام عليها منجنيقا فأقاموا عليه من داخل المدينة تسعة مجانيق ومضايق الموصل فنزل السلطان محاذاة باب كندة ونزل صاحب حصن كيفا على باب الجسر ونزل تاج الملوك توري أخو صلاح الدين على باب العمادي وجرى القتال بينهم وكان ذلك في شهر رجب فلما رأى أن حصارها يطول رحل عن الموصل الى سنجار وحاصرها وملكها واستناب بها سعد الدين بن معين الدين من اكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى ثم سار السلطان إلى حران وعزل في طريقه عن نصيبين أبا الهيجاء السمين .

---

(١) المنجنيق : آلة قديمة من آلات الحرب وحصار المدن كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار فتهدمها .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا فى بحر أيلة وسار فى البحر فرقتان فرقة أقامت على حصن أيلة يحصرونه وفرقة سارت نحو عيذاب يفسدون فى السواحل وبغتو المسلمين فى تلك النواحى فانهم لم يعهدوا بهذا البحر افرنجا قط وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبا عن اخيه السلطان فعمر أسطولا فى بحر عيذاب وأرسله مع حسام الدين الحاجب لؤلؤ وهو متولى الاسطول بديار مصر وكان مظفرا شجاعا فسار لؤلؤ مجداً فى طلبهم وأوقع بالذين يحارون أيلة فقتلهم وأسرهم ثم سار فى طلب الفرقة الثانية وكانو قد عزموا على الدخول الى الحجاز ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى فسار لؤلؤ يقفو أثرهم فبلغ رابغ فأدركهم بساحل الخوار وتقاتلوا أشد قتال فظفره الله تعالى بهم قتل لؤلؤ اكثرهم وأخذ الباقين أسرى وارسل بعضهم إلى منى لينحروا بها وعاد بالباقين الى مصرفقتلوا عن آخرهم .

وفى هذه السنة توفى عز الدين فخر شاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك وكان ينوب عن صلاح الدين بدمشق وهو ثقته من بين أهله وكان فرخشاه شجاعا كريماً فاضلا وله شعر جيد ووصل خبر موته الى صلاح الدين وهو فى البلاد الجزرية فارسل الى دمشق شمس الدين بن محمد بن عبد الملك المقدم ليكون بها وأقر بعلبك على بهرام شاه بن فرخشاه المذكور وفيها توفى بدمشق مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى الفقيه الشافعى ولد سنة خمس وخمسمائة وهو الملقب قطب الدين وكان اماما فاضلا فى العلوم الدينية قدم الى دمشق وصنف عقيدة للسلطان صلاح الدين وكان السلطان يقرئها اولاده الصغار .

ذكر ماملكه السلطان صلاح الدين من البلاد

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة وفيها ملك السلطان حصن آمد

بعد حصار وقتال فى العشرون الأول من محرم وسلمها إلى نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود بن سكمان ارتق صاحب حصن كيفا ثم سار الى الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكها ثم سار الى عينتاب وحصرها وبها ناصر الدين محمد أخو الشيخ اسماعيل الذى كان خازن نور الدين محمود ابن زنكى وكان قد سلم نور الدين عينتاب إلى اسماعيل المذكور فبقيت معه إلى الآن فحصرها السلطان وملكها بتسليم صاحبها اليه فأقره السلطان عليها وبقى فى خدمة السلطان ومن جملة أمرائه ثم سار السلطان إلى حلب وحصرها وبها صاحبها عماد الدين زنكى وطال الحصار عليه وكان قد كثرت اقتراحات امراء حلب عليه ضجر من ذلك وكره حلب لذلك فاجاب السلطان إلى تسليم حلب على أن يعوض عنها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج واتفقوا على ذلك وسلم حلب الى السلطان فى صفر من هذه السنة فكان ينادى أهل حلب على عماد الدين المذكور «ياحمار بعت حلب بسنجار .» واشترط السلطان على عماد الدين المذكور الحضور إلى خدمته بنفسه وعسكره اذا استدعاء ولايحتج بحجة عن ذلك ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين بن الزكى قاضى دمشق مدح السلطان بقصيدة منها .

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

وكان من جملة من قتل على حلب تاج الملوك تورى بن أيوب أخو السلطان الأصغر وكان كريما شجاعا طعن فى ركبته فانفلقت فمات منها .

ولما استقر عمل عماد الدين زنكى دعوة للسلطان واحتفل فبينما هم فى سرورهم اذ جاءهم انسان فاسر الى السلطان بموت أخيه توران فوجد عليه فى قلبه وجدا عظيما وأمر بتجهيزه ولم يعلم السلطان فى ذلك الوقت أحدا

ممن كان فى الدعوة بذلك لئلا يتنكد عليهم ماهم فيه وكان يقول السلطان ماوقعت علينا حلب رخيصة بموت تورى وكان هذا من السلطان من البر العظيم ولما ملك السلطان حلب أرسل الى جارم وبها سرخك الذى ولاه الملك الصالح فى تسليم حارم وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال وكاتب سرخك الافرنج فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم الى السلطان فتسلمها وقرر أمر حلب وبلادها وأقطع اعزاز أميرا يقال له سليمان ابن جند .

* * *

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قيماز .

ولما فرغ السلطان من تقرير أمر حلب جعل فيها ولد الملك الظاهر غازى وسار الى دمشق وتجهز منها للغزو فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخر فاغار على بيسان وحرقها وشن الغارات على تلك النواحى ثم تجهز السلطان للكرك وأرسل الى نائبه بمصر وهو أخوه الملك العادل أن يلاقيه على الكرك فسار واجتمعا عليها وحصر الكرك وضيق عليها ثم رحل عنها فى منتصف شعبان وسار معه أخوه وأرسل السلطان ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر إلى مصر نائبا عنه موضع الملك العادل ووصل السلطان إلى دمشق وأعطى أخاه أبا بكر العادل مدينة حلب وقلعتها وأعمالها وسيره إليها فى شهر رمضان من هذه السنة وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق .

وفى هذه السنة فى أواخرها توفى شاهر بن سكمان بن ظهير الدين ابراهيم بن سكمان القبطى صاحب خلاط وقد قدم ذكر ملك شاهر من المذكور فى سنة احدى وعشرين وخمسمائة وكان عمر سكمان لما توفى

أربعا وستين سنة ولما مات سمان كان بكتمر مملوك أبيه بميافا رقين فلما سمع بكتمر بموته سار من ميافارقين ووصل إلى خلاط وكان اكثر اهلها ومماليك شاهر من متفقين معه وأول وصوله استولى على خلاط وتملكها وجلس على كرسي شاهر من واستقر في مملكة خلاط حتى قتل في سنة تسع وثمانين وخمسمائة حسبما نذكره إن شاء الله تعالى .

* * *

ذكر غزو السلطان الكرك

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة وفيها في ربيع الآخر سار السلطان من دمشق للغزاة وكتب إلى مصر فسارت عساكرها اليه ونازل الكرك وحاصره وضيق على من به ربض الكرك وبقيت القلعة وليس بينها وبين الربض غير خندق حبيب وقصد السلطان طمه فلم تقدر لكثرة المقاتلة فجمعت الافرنج فارسها وراجلها وقصدوه ولم يمكن السلطان إلا الرحيل فرحل عن الكرك وسار اليهم فأقاموا في أماكن وعرة وأقام السلطان قبالتهم وسار من الافرنج جماعة ودخلوا الكرك فعلم بامتناعه عليه وسار إلى نابلس ونهب مابتلك النواحي وقتل وأسر وسبى فاكثر ثم نزل الى سبصطية وبها مشهد زكريا عليه السلام فاستنفذ مابها من أسرى المسلمين ثم سار الى جبنين ثم عاد الى دمشق .

وفي هذه السنة توفي شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل ابن أبي سعيد أحمد وكان قد سار من عند الخليفة إلى السلطان في رسالة ومعه شهاب الدين بشير ليصلح بين صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل فلم ينتظم حال واتفق انهما مرضا بدمشق وطلبا المسير الى العراق وسار الحر ومات بشير في السخنة ومات صدر الدين شيخ الشيوخ بالرحبة ودفن بمشهد البوق و كان أوحد زمانه قد جمع بين رئاسة الدين والدنيا .

وفيها فى محرم أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل مجاهد الدين قيماز من الحبس وأحسن اليه .

ذكر حصار السلطان صلاح الدين الموصل

ثم دخلت سنة احدى وثمانين وخمسمائة وفيها حصر السلطان الموصل وهو حصاره الثانى فأرسل اليه عز الدين والدته وابنة عمه نور الدين بن زنكى وغيرهما من النساء وجماعة يطلبون منه ترك الموصل وما بايديهم فردهم واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لاسيما وفيهن بنت نور الدين وحاصر الموصل وضايقها وبلغه وفاة شاه أرمن صاحب خلاط فى ربيع الآخر من هذه السنة فسار من الموصل إلى جهة خلاط باستدعاء أهلها ليملكها .

وفى هذه السنة توفى نور الدين محمود بلا قره أرسلان بلا داود صاحب حصن حيفا وآمد وملك بعده ولده سكمان ولقب قطب الدين وكان صغيرا فقام بتدبيره القوام بلا سماق الاسعردى وحضر سكمان إلى السلطان وهو نازل على ميا فارقين فأقره على ما كان بيد ولده وأقام معه أميراً من أصحاب سكمان المذكور .

ذكر ملك السلطان صلاح الدين ميافارقين

لما رحل السلطان عن الموصل جعل طريقه على ميافارقين وكانت لصاحبها ماردين الذى توفى وفيها من يحفظها من جهة شاه أرمن صاحب خلاط المتوفى فحاصرها السلطان وملكها فى سلخ جمادى الأولى ثم ان السلطان رجع عن قصد خلاط الى الموصل فجاءه رسل عز الدين مسعود يسأل الصلح وانفق حينئذ أن السلطان مرض وسار من كفر زمار عائدا الى حران فلحقته رسل صاحب الموصل بالإجابة إلى ماطلب وهو أن يسلم صاحب الموصل السلطان شهر زور واعمالها وولاية القرابلى وجميع ماوراء الزاب وأن يخطب للسلطان صلاح الدين على جميع منابر الموصل ومابيده

وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير وتسلم السلطان ذلك واستقر الصلح وأمنت البلاد ووصل السلطان إلى حران وأقام بها مريضا واشتد به المرض حتى أيسوا منه ثم أنه عوفى وعاد إلى دمشق سنة اثنتين وثمانين من محرم . ولما اشتد مرض السلطان سار ابن عمه محمد بن شيركوه بن شاذى صاحب حمص إلى حمص وكاتب بعض اكابر دمشق فى أن يسلموا اليه دمشق اذا مات السلطان وفى هذه السنة ليلة عيد الاضحى شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى فأصبح ميتا قيل ان السلطان هو الذى دس عليه من سقاه سما لما بلغه مكاتبته أهل دمشق فى مرضه ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيده على ولده شيركوه بن محمد وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف صاحب حمص شيئاً كثيرا من الدواب والآلات وغيرها فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص فى عوده من حران وأخذ كثرها ولم يترك الا مالا خير فيه .

ذكر نقل الملك العادل من حلب واخراج الملك الافضل ابن السلطان من مصر الي دمشق

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة وفيها أحضر السلطان ولده الملك الأفضل من مصر وأقطعه دمشق وسببه أن الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخى السلطان كان نائب عمه وكان معه الملك الأفضل فأرسل تقى الدين يشتكى من الافضل أننى لااتمكن من استخراج الخراج فاننى اذا أحضرت من عليه الخراج ورادت عقوبته يطلقه الملك الأفضل فأرسل السلطان خرج ابنه الأفضل من مصر واقطعه دمشق وتغير السلطان على تقى الدين فى الباطن فإنه ظن أنه انما أخرج ولده من مصر ليمتلك مصر اذا مات السلطان ثم أحضر أخاه الملك العادل من حلب وجعل معه ولده العزيز

عثمان أبن السلطان نائباً عنه بمصر واستدعى تقى الدين من مصر . فقيل انه توقف عن الحضور وقصد اللحاق بمملوكه قراقوش المستولى على بعض بلاد افريقية وبرقة من المغرب وبلغ السلطان ذلك فساءه وأرسل يستدعى تقى الدين ويلاطفه فحضر . ولما حضر تقى الدين ألى السلطان زاده على حماة منبج والمعرة وكفر طلب وميا فارقين وجبل جور بجميع اعمالها واستقر العادل والعزيز عثمان فى مصر . ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل اقطعه عوضها حران والرها .

ذكر وفاة البهلوان وملك اخيه قزل

وفى هذه السنة فى أولها توفى البهلوان محمد ابن الدكز صاحب بلد الجبل وهمذان والرى واصفهان واذربيجان وارانية وغيرها من البلاد وكان عادلا حسن السيرة وملك البلاد بعده اخوه قزل ارسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغريل بن ارسلان بن طغريل بن محمدبن ملكشاه السلجوقى مع البهلون وله خطبة فى بلاده وليس له من الأمر شيء فلما مات للبهلوان خرج طغريل عن حكم قزل وكثر جمعه واستولى على بعض البلاد وجرد بينه وبين قزل حروب .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة غدر البرنس صاحب الكرك وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين واسرهم فارسل السلطان يطلب منه اطلاقهم بحكم الهدنة التى كانت بينهم على ذلك فلم يفعل فنذر السلطان أنه ان أظفره الله به قتله بيده .

ذكر غزوات السلطان وفتوحاته

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وفيها جمع السلطان العساكر وسار بفرقة من العسكر وصابق الكرك خوفا على الحجاج من صاحب

الكرك وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فاغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية وغنموا شيئا كثيرا ثم سار السلطان ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص صاحب طرابلس وكان قد هادن السلطان ودخل فى طاعته .فارسلت الافرنج الى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبخونه فسار معهم واجتمع الافرنج للقاء السلطان .

ذكر وقعة حطين وهي الوقعة العظيمة التي فتح الله بها الساحل وبيت المقدس (١)

ولما أخذ السلطان مدينة طبرية اجتمعت الافرنج وملوكهم بفارسهم وراجلهم وساروا إلى السلطان فركب السلطان من عنده طبرية وسار اليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر والتقى الجمعان واشتد بينهم القتال ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على مقدمة المسلمين وهناك تقى الدين صاحب حماة فافرج له وعطف عليه ونجا القومص ووصل الى طرابلس وبقى مدة يسيرة ومات غبنا ونصر الله تعالى المسلمين وأحدقوا بالافرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلا وأسروا وكان من جملة من أسر ملك الافرنج الكبير والبرنس صاحب الكرك وصاحب حبيل وابن الهنفرى ومقدم الدواية وجماعة من الابستارية وما أصيب الافرنج منذ خرجوا الى الشام فى سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن بمصيبة مثل هذه الوقعة .

ولما انقضى المصاف جلس السلطان فى خيمته وأحضر ملك الافرنج وأجلسه الى جانبه وكان الحر والعطش به شديدا فسقاه السلطان ماء مثلوجا فسقى ملك الافرنج منه البرنس أرناط صاحب الكرك فقال له السلطان هذا الملعون لم يشرب الماء باذنى فيكون ماناله ثم كلم السلطان البرنس ووبخه

---

(١) لقد كانت موقعة حطين الشهيرة من أعظم انتصارات صلاح الدين ففيها قضى صلاح الدين على آمال الصليبيين فى البقاء ببلاد الشام وقد قام بحركة تعبئة شاملة فى هذه المعركة لجمع قوى المسلمين ومواردهم البشرية استعداداً لهذه المعركة فإنها معركة الجهاد الكبرى التى تهدف إلى قذف آخر البقايا الصليبية بالشام فى البحر الأبيض ودارت معركة رهيبة فى شهر مايو ٥٨٣هـ/١١٨٧هـ سقط فيها معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى وفى يوليو ١١٨٧ / ٥٨٣هـ دارت معركة حطين ==

وقرعه على غدره وقصده الحرمين الشريفين فقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الافرنج فسكن جاشه . ثم عاد السلطان الى طبرية وفتح قلعتها بالأمان ثم سار إلى عكا وحاصرها وفتحها بالأمان ثم أرسل الى أخيه العادل فنازل مجد اليابا وفتحه عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعلشا والغولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا بالطيف وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الأماكن وأرسل فرقة إلى نابلس فملكوا قلعتها بالأمان ثم سار الملك العادل بعد فتح مجد ايابا الى يافا وفتحها عنوة بالطيف ثم سار السلطان الى تبنين ففتحها بالامان ثم سار الى صيدا فأخلاها صاحبها وتسلمها السلطان ساعة وصوله لتسع بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ثم سار الى بيروت فحاصرها وتسلمها فى السابع والعشرين من جمادى الأولى بالأمان وكان حصرها مدة ثمانية أيام كان صاحب حبيل من جملة الأسرى فبذل حبيل بان يسلمها ويطلق سراحه فاجيب إلى ذلك وكان صاحب حبيل من أعظم الافرنج وأشدهم عداوة للمسلمين ولم تكن عاقبة اطلاقه حميدة وأرسل السلطان وتسلم حبيل وأطلقه وفيها حضرالمركيس فى سفينة إلى عكا وهى للمسلمين ولم يعلم المركيس بذلك واتفق هجوم الهواء فراسل المركيس الملك الافضل وهو بعكا يقترح أمراً بعد أمر والملك الأفضل يجيب الى ذلك المركيس الى أن هب الهواء فأقلع المركيس إلى صور واجتمع عليه الافرنج الذين بها وملك صور وكان وصول المركيس الى صور واطلاق الافرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان وحملهم الى صور من أعظم أسباب الضرر الذى حصل حتى راحت عكا وقوى الافرنج بذلك .

ثم سار السلطان الى عسقلان واحصرها أربعة عشر يوما وتسلمها بالأمان سلخ جمادى الآخر ثم بث السلطان عسكره ففتحوا الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وغير ذلك . ثم سار السلطان ونازل القدس وبه من النصارى عدد يفوت الحصر وضاق السلطان السور بالنقابين

== الحاسمة هذه الحرب القريبة الشبه بمعركة اليرموك التاريخية التى قادها خالد بن الوليد عير أن هذه معركة حطين كانت أعظم خطراً وأهمية لأنها قررت مصير بلاد الشام كلها لصالح المسلمين حتى النهاية وفيها وقع معظم قادة الجيوش الصليبية فى أسر صلاح الدين واندفعت جيوشه لتحرر المدن الساحلية وبعدها عرف صلاح الدين كبطل إسلامى لا نظير له فى عصرر لاحقة .

واشتد القتال ونقبوا السور وطلب الافرنج الأمان فلم يجبهم السلطان الى ذلك وقال لآخذها الا بالسيف مثل ماأخذها الافرنج من المسلمين فعادوا . فى الأمان وعرفوه ماهم عليه من الكثرة وأنهم إن أيسوا من الأمان قاتلوا خلاف ذلك للقتال فأجابهم السلطان إلى ذلك وشرط أن يؤدى كل من بها من الرجال عشرة دنانير وتؤدى النساء خمسة ويؤدوا عن كل طفل دينارين وأن من عجز عن ذلك يكون أسيرا فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة فى السابع والعشرين من رجب وكان يوما مشهودا ورفعت الاعلام الاسلامية على أسوار المدينة ورتب السلطان على أبواب البلد من يقبض منهم المال المذكور فخان المرتبون فى ذلك ولم يحملوا الا القليل .

وكان على رأس قبة الصخرة صليب مذهب فتسلق المسلمون واقتلعوه فسمع لذلك ضجة ولم يعهد مثلها من الافرنج بالتفجع والتوجع وكان الافرنج قد عملوا غربى المسجد الأقصى نهرا ومستراحا فأمر السلطان بازالة ذلك واعادة الجامع إلى ما كان عليه . وكان نور الدين محمود بن زنكى قد عمل منبراً بحلب تعب عليه مدة وقال هذا لأجل القدس فأرسل السلطان احضر المنبر من حلب وجعله فى المسجد الاقصى وأقام السلطان بعد فتح القدس بظاهرة إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس الشفعوية .

ثم رحل السلطان الى عكا ورحل منها الى صور وصاحبها المركيس قد حصنها بالرجال وحفر خندقها ونزل السلطان على صور تاسع عشر رمضان وحاصرها وضايقها وطلب الاسطول فوصل اليه فى عشر شوال فاتفق أن الافرنج كبسوهم فى الشوانى وأخذوا خمس شوان ولم يسلم من المسلمين الا من سبح ونجا وأخذ الباقون وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها آخر شوال أول كانون الأول وأقام بعكا وأعطى العساكر الدسنور فسار كل واحد إلى بلده وبقى السلطان بعكا فى حلقته وأرسل الى هونين وفتحها بالأمان .

ذكر غير ذلك من الحوادث

في هذه السنة سار شمس الدين محمد ابن المقدم بعد فتح القدس حاجا وكان هو أمير الحاج الشامى ليجمع بين الغزاة وزيارة القدس والخليل عليه السلام والحج فى عام واحد فسار ووقف بعرفات ولما افاض أرسل اليه طاستكين أمير الحاج العراقى يمنعه من الافاضة قبله فلم يلتفت اليه فسار العراقيون واقتتلوا مع الشاميين فقتل بينهم جماعة وابن المقدم يمنع أصحابه من القتال فجرح ومات شهيدا ودفن بمقبرة المعلى ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة فشتى السلطان فى هذه السنة بعكا ثم سار بمن معه وقصد كوكب وجعل على حصارها أميرا يقال له قايماز النجمى وسار منها فى ربيع الأول ودخل دمشق ففرح الناس بقدومه وكتب إلى الاطراف باجتماع العساكر وأقام فى دمشق خمسة أيام وسار من دمشق منتصف ربيع الأول ونزل على بحيرة قدس غربى حمص فأتته العساكر بها فأولهم عماد الدين زنكى صاحب سنجار ونصيبين . ولما تكاملت عساكره رحل ونزل تحت حصن الأكراد وشن الغارات على بلاد الافرنج وسار من حصن الاكراد فنزل على أنطرسوس فوجد الافرنج قد أخلوا أنطرسوس فسار الى مرقية فوجدهم قد أخلوها أيضاً فسار تحت المرقب وهو الاسبتار فوجده لايرام ولا لأحد فيه مطمع فسار الى جبله ووصل اليها ثامن جمادى الأولى وتسلمها حالة وصوله فجعل فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزرثم سار السلطان الى اللازقية فوصل اليها فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى ولها قلعتان فحصر القلعتين . ولما ملك السلطان اللازقية سلمها إلى الملك المظفر تقى الدين فعمرها وحصن قلعتيها . وكان تقى الدين عظيم الهمة فى تحصين القلاع والغرامة عليها كمافعل بقلعة حماة ثم رحل السلطان عن اللازقية فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى إلى صيون فحاصرها وضايقها وطلب أهلها الأمان فلم يجبهم إلا على أمان أهل

القدس فيما يؤدونه فأجابوا الى ذلك وتسليم السلطان قلعة صهيون وسلمها الى أمير من أصحاب يقال له ناصر الدين ثم فرق عسكره فى تلك الجبال فملكوا حصن بلاطنوس وكان الافرنج الذين به قد هربوا منه وأخلوه وملكوا حصن العيد وحصن الجماهونين ثم سار السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ووصل الى قلعة بكراس فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعة الشغر فحصرها ووجدها منيعة وضايقها فألقى الله تعالى فى قلوب أهلها الفزع وطلبوا الأمان وتسلمها يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة بالأمان فأرسل السلطان الملك الظاهر صاحب حلب فحاصرها سرمينية وضايقها وملكها واستنزل أهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم الحصن وفى أثره وكان فى الحصن وفى الحصون المذكورة من أسرى المسلمين الجم الغفير فأطلقو وأعطوا الكسوة والنفقة ثم سار السلطان من الشغر الى برزية ورتب عسكره ثلاثة أقسام ودوامها بالزحف وملكها بالسيف فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة وسبى وأسر وقتل أهلها . قال مؤلف الكامل ابن الاثير كنت مع السلطان فى مسيره وفتحه هذه البلاد طالبا للغزاة فأحكى ذلك عن مشاهدة ثم سار السلطان فنزل على جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب من انطاكية فأقام عليه أياما حتى تلاحق به تأخر من العسكر ثم سار الى دربساك ونزل عليها ثامن رجب وحاصرها وضايقها وتسلمها بالامان على شرط أن لايخرج منها أحد الا بثيابه فقط وتسلمها تاسع عشر رجب . ثم سار عن دربساك الى بغراس فحصرها وتسلمها بالأمان على حكم أمان دربساك وأرسل بيمند صاحب انطاكية الى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل اطلاق كل أسير عنده فأجاب السلطان إلى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر وكان صاحب انطاكية حينئذ أعظم ملوك الافرنج فى هذه البلاد فان أهل طرابلس سلموا اليه طرابلس .

ولما فرغ السلطان من أمر هذه الهدنة سار إلى حلب ثالث شعبان وسار

منها الى دمشق واعطى عماد الدين زنكى دستورا وكذلك اعطى غيره من العسكر الشرقية وجعل طريقة لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربى وكان مقيما هناك وكان من عباد الله تعالى الصالحين وله كرامات ظاهرة . وكان مع السلطان أبو فليته الامير قاسم بن مهنا الحسينى صاحب مدينة الرسول ﷺ وشهد معه مشاهدة وفتوحاته وكان السلطان يتبرك برؤيته ويتيمن بصحبته ويرجع الى قوله ودخل السلطان دمشق فى شهر رمضان المعظم فاشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا ويستريحوا فقال السلطان ان العمر قصير والاجل غير مأمون وكان السلطان لما سار الى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحاصرها وخلى أخاه العادل فى تلك الجهات يباشر ذلك فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان فامر الملك العادل المباشرين لحصارها بتسلمها فتسلموا الكرك والشوبك وما بتلك الجهات من البلاد .

ثم سار السلطان من دمشق فى منتصف رمضان الى صفد فحصرها فى ذى القعدة وسير أهلها الى صور وكان اجتماع أهل هذه القلاع فى صور من أعظم أسباب الضرر على المسلمين ظهر ذلك فيما بعد ثم سار السلطان الى القدس فعيد فيه عيد الاضحى ثم سار إلى عكا فاقام فيها حتى انسلخت السنة وفى هذه السنة أرسل قزل ابن الدكز يستنجد بالخليفة الإمام الناصر على طغريل بن ارسلان بن طغريل الساجوقى ويحذره عاقبة أمره فأرسل الخليفة عسكره إلى طغريل والتقوا ثامن ربيع الأول قرب همذان فانهزم عسكر الخليفة وغنم طغريل أموالهم وأسر مقدم العسكر جلال عبدالله وزير الخليفة .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة وفيها سار صلاح الدين ونزل بمرج عيون وحضر إليه صاحب شقيف أرتون وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها خديعة منه فلما بقى للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان وكان

اسم صاحب الشقيف أرناط فقال له السلطان فى التسليم فقال لا يوافقنى عليه أهلى فامسكه السلطان وبعثه الى دمشق فحبس .

ذكر حصار الافرنج عكا

كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التى أخذها السلطان بالأمان فكثر جمعهم حتى ساروا فى عالم لاتحصى كثرته وارسلوا الى البحرين يستنجدون وصوروا صورة المسيح وصورة عربى يضرب المسيح وقد أدماه وقالوا هذا نبى العرب يضرب المسيح فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من الافرنج فى البحر عالم لايحصون كثرة وساروا الى عكا من صور ونازلوها فى منتصف رجب من هذه السنة وضايقوا عكا وأحاطوا بسورها البحر الى البحر ولم يبق للمسلمين إليها طريق فسار إليهم السلطان ونزل قريب الإفرنج وقاتلهم فى مستهل شعبان وباتوا على ذلك وأصبحوا فحمل تقى الدين صاحب حماة فى ميمنة السلطان على الإفرنج فازالهم عن موقفهم والتصق بالسور وانفتح الطريق إلى المدينة يدخل المسلمون ويخرجون وأرسل السلطان إلى عكا عسكر نجدة ولحق من جملتهم أبوا الهيجاء السمين وبقى المسلمون يغادون القتال ويراحونه إلى العشرين من شعبان ثم كان بين المسلمين و بينهم وقعة عظيمة فان الإفرنج اجتمعوا أو ضربوا مع السلطان مصاف وحلوا على القلب فأزالوه وأخذوا يقتلون فى المسلمين إلى ان بلغوا خيمة السلطان وانحاز السلطان الى جانب وانضافت اليه جماعة وانقطع مدد الفرنج واشتغلوا بقتال الميمنة فحمل السلطان على الافرنج الذين خرقوا القلب وعطف عليهم العسكر فافنوهم قتلا وكان قتلى الافرنج نحو عشرة آلاف نفس ووصل المنهزمون بعضهم إلى طبرية وبعضهم وصل إلى دمشق .

وجافت الارض بعد الوقعة ولحق السلطان مرض وحدث له قولنج فاشار عليه الامراء بالإنتقال من ذلك الموضع فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر

شهر رمضان الى الخروبة فلما رحل تمكن الافرنج من حصار عكا وانبسطوا في تلك الارض . وفي تلك الحال وصل اسطول للمسلمين في البحر مع حسام الدين لؤلؤ وكان شهما فظفر ببطسة للافرنج فاخذها ودخل بها الى عكا فقويت قلوب المسلمين وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر الى اخيه السلطان فقويت نفس المسلمين بوصوله .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فيها توفي بالخروبة الفقيه عيسى وكان مع السلطان وهو من أعين عسكره وكان جنديا فقيها شجاعا وكان من أصحاب الشيخ أبي القاسم البرزى .

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة وفيها رحل السلطان عن الخروبة وعاد إلى قتال الإفرنج على عكا وكان الإفرنج [1] قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبراج طول البرج ستون ذراعا جاءوا بخشبها من جزائر البحر وعملوها طبقات وشحنوها بالسلاح والمقابلة وألبسوها جلود البقر والطين بالخل لئلا تعمل فيها النار فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الاول فاحترق بمن فيه من الرجال والسلاح ثم أحرقوا الثاني والثالث وانبسطت نفوس المسلمين بذلك بعد الكآبة ووصلت الى السلطان العسكر من البلاد وبلغ المسلمين وصول ملك الألمان وكان قد سار من بلاده وراء القسطنطينية بمائة ألف مقاتل فاهتم المسلمون لذلك وأيسوا من الشام بالكلية فسلط الله تعالى على الالمان الغلاء والوباء فهلك اكثرهم في الطريق . ولما وصل ملكهم الى بلادهم الارمن نزل في نهر هلك يغتسل فغرق وأقاموا ابنه مقامه فرجع من عسكره طائلة الى بلادهم ولم يصل مع ابن ملك الالمان الى الإفرنج الذين على عكا غير قدر ألف مقاتل وكفى الله المسلمين شرهم وبقي السلطان والإفرنج على عكا يتناوشون القتال إلى العشرين من جمادى

---

(١) وفي هذه المرة تولى قيادة جيوش الإفرنج ملوك أوروبا الكبار كفردريك امبراطور المانيا وريتشارد ملك انجلترا وفيليب ملك فرنسا .

الآخرة فخرجت الإفرنج من خنادقهم بالفارس والراجل وازالوا الملك العادل عن موضعه وكان معه عسكره مصر فعطفت عليهم المسلمون وقتلوا من الإفرنج خلقا كثيرا فعادوا إلى خنادقهم وحصل للسلطان مغص فانقطع فى خيمته ولولا ذلك لكانت الفيصلة ولكن اذا أراد الله أمرا فلا مرد له .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفى هذه السنة لما قوى الشتاء واشتدت الرياح أرسل الافرنج المحاضرون عكا مراكبهم إلى صور خوفا عليها أن تنكسر وانفتح الطريق إلى عكا فى البحر وارسل البدل اليها وكان العسكر الذين خرجوا منها أضعاف الواصلين اليها فحصل التفريط بذلك لضعف البدل .

وفيها فى ثامن شوال توفى زين يوسف بن زين الدين على كوجك صاحب اربل وكان مع السلطان بعسكره ولما توفى أقطع السلطان ارب أخاه مظفر الدين على كوكبورى بن زين الدين على كوجك واضاف اليه شهرزوز واعمالها وارتجع ما كان بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسار مظفر الدين الى اربل وملكها .

وفيها أقطع السلطان ماكان بيد مظفر الدين وهو حران والرها وسميساط والموزر الملك المفظر تقى الدين عمر زيادة على مافى يده وهو ميافارقين ومن الشام حماة والمعرة وسلمية ومنج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطنس وبكراس .

ذكر استيلاء الإفرنج علي عكا

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستمر حصار الإفرنج لعكا إلى هذه السنة وكانوا قد احاطوا بها من البحر الى البحر وحفروا عليهم خندقا فلم يتمكن السلطان من الوصول اليهم وكانوا محاصرين لعكا وهم كالمحصورين من خارجهم من السلطان واشتد حصارهم لعكا وضعف من

بها عن حفظ البلد وعجز السلطان عن دفع العدو عنهم فخرج الامير سيف الدين على بن أحمد المشطوب وطلب الامان من الافرنج على مال وأسرى يقومون بها للافرنج فاجابوهم إلى ذلك وتصعدت أعلام الإفرنج على عكا ظهر يوم الجمعة السابع عشر جمادى الأخرى من هذه السنة واستولوا على البلد بمافيه وحبسوا المسلمين فى أماكن من البلد وقالوا انما نحبسهم ليقوموا بالمال والاسرى وصليب الصلبوت وكتبوا الى السلطان بذلك فحصل ماأمكن تحصيله من ذلك وطلب منهم اطلاق ا لمسلمين فلم يجيبوا الى ذلك فعلم منهم الغدر واستمر أسر المسلمين ثم قتل الافرنج منهم جماعة كثيرة واستمر الباقون فى الاسر وبعد استيلاء الإفرنج وتقرير أمرها رحلو عنها مستهل شعبان نحو قيسارية والمسلمون يساورونهم ويتخطفون منهم ثم ساروا من قيسارية الى أرسوف ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف أزالو المسلمين عن موقفهم ووصلوا الى سوق المسلمين فقتلوا من السوقة خلقا كثيرا ثم سار الافرنج الى يافا وقد اخلاها المسلمون فملكوها .

ثم رأى السلطان تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لها ما حصل لعكا فسار اليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين فى تقليع أسوارها وتخريبها فدكها الى الأرض ولما فرغ السلطان من تخريب عسقلان رحل ثانى شهر رمضان الى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد ثم سار الى القدس وقرر أموره وعاد الى مخيمه بالنطرون ثامن شهر رمضان ثم تراسل الافرنج والسلطان فى الصلح على أن يتزوج الملك العادل باخت ملك الانكتار ويكون للملك العادل القدس ولامرأته عكا فحضر القسيسون وأنكروا عليها ذلك الا أن يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال ثم رحل الافرنج من يافا الى الرملة وبقوا كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات فلقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الأوحال بينهم فلما رأى السلطان ذلك وقد ضجرت العساكر أعطاهم الدستور وسار الى القدس بسبع بقين من

ذى القعدة ونزل داخل البلد واستراحوا مما كانوا فيه وأخذ السلطان فى تعمير القدس وتحصينه وأمر العسكر بنقل الحجارة وكان السلطان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدى به العسكر فكان يجتمع عند العمال فى اليوم الواحد مايكفيهم عدة أيام .

ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين عمر

كان الملك المظفر قد سار الى البلاد المرتجعة من كوكبورى التى زاده اياها عمه السلطان من وراء الفرات وهى حران وغيرها فامتدت عين الملك المظفر الى بلاد مجاوريه واستولى على السويداء والتقى مع بكتمر صاحب خلاط فكسره وحاصره بخلاط وتملك معظم البلاد ثم رحل عنها ونازل ملاذكرد وهى لبكتمر وضايقها وكان فى صحبته ولده الملك المنصور محمد فعرض للملك المظفر مرض شديد وتزايد عليه حتى توفى به يوم الجمعة لاحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان من هذه السنة وأخفى الملك المنصور وفاته ورحل عن ملاذكردو وصل الى حماة ودفنه بظاهرها وبنى الى جانب التربة مدرسة وذلك مشهور هناك .

وكان الملك المظفر شجاعا شديد البأس ركنا عظيما من أركان البيت الأيوبى وكان عنده فضل وأدب وله شعر واتفق فى ليلة الجمعة التى توفى فيها الملك المظفر أن توفى حسام الدين بن محمد بن لاحين وأمه ست الشام بنت ايوب أخت السلطان فأصيب السلطان فى تاريخ واحد بابن أخيه وابن أخته .

ولما مات الملك المظفر راسل ابنه الملك المنصور السلطان واشترط شروطاً نسبة السلطان فيها الى العصيان وكاد أمره يضمحل بالكلية فأرسل الملك المنصور عمه الملك العادل فى استعاطاف خاطرالسلطان فما برح العادل بأخيه السلطان يراجع ويشفع فى الملك المنصور حتى أجابه السلطان وقرر

للملك المنصور حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه العادل بعد أن شرط السلطان ان العادل ينزل عن كل ماله من الاقطاع بالشام خلا الكرك والشوبك والصلت والبقاء ونصف خاصه بمصر وأن يكون عليه في كل سنة ستة آلاف غرارة تحمل من الصلت والبقاء الى القدس ولما استقر ذلك الملك العادل الى البلاد الشرقية لتقرير أمورها وعاد الى خدمة السلطان فى آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة أعنى سنة ثمان وثمانين ولما قدم الملك العادل على السلطان كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته فلما رأى السلطان الملك المنصور نهض واعتنقه وغشيه البكاء واكرمه وأنزله فى مقدمة العسكر .

ذكر غير ذلك من الحوادث

فى هذه السنة فى شعبان قتل قزل أرسلان واسمه عثمان بن الدكز وهو الذى ملك أذربيجان وهمذان واصفهان والرى بعد أخيه محمد بن البهلوان وكان قوى عليه السلطان السلجوقى وهزم عسكر بغداد كما تقدم ذكره ان قزل ارسلان تغلب واعتقل السلطان طغريل فى بعض البلاد وسار قزل أرسلان بعد ذلك الى اصفهان وتعصب على الشفعوية وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم وعاد الى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة ودخل لينام على فراشه وتفرق عنه اصحابه فدخل اليه من قتله على فراشه ولم يعلم قاتله .

وفيها قدم معز الدين قيصر شاه قليج أرسلان صاحب بلاد الروم إلى صلاح الدين . وسببه أن والده فرق مملكته على أولاده وأعطى ولده هذا ملطية ثم تغلب بعض اخوته على أبيه وألزمه باخذملطية من أخيه المذكور فخاف من ذلك وسار الى السلطان ملتجئا اليه فاكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل وعاد معز الدين الى ملطية فى ذى القعدة . قال ابن الاثير لما ركب صلاح الدين ليودع معز الدين قيصر شاه ترجل معز الدين وترجل

السلطان ولما ركب السلطان عضده قيصر شاه وأركبه وكان علاء الدين بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان آن ذاك فسوى ثياب السلطان أيضا فقال بعض الحاضرين فى نفسه مابقيت تبالى ياابن أيوب بأى موتة تموت يركبك ملك سلجوقى ويصلح قماشك ابن أنابك زنك وفيها قتل أبو الفتح يحيى الملقب شهاب الدين السهروردى الحكم الفيلسوف بقلعة حلب محبوساً أمر بخنقه الملك الظاهر عازى بأمر والده السلطان قرأ المذكور الأصولين والحكمة بمراغة على مجد الدين ثم سافر إلى حلب وكان علمه اكبر من عقله فنسب الى انحلال العقيدة وانه يعتقد مذهب الفلاسفة فأفتى الفقهاء بإباحة دمه لما ظهر من سوء مذهبه واشتهر عنه وكان اشدهم فى ذلك زين ومجد الدين جهبل ، حكى الشيخ سيف الدين الآمدى قال اجتمعت بالسهروردى وردى فى حلب فقال لى لابد أن أملك الأرض فقلت من أين لك هذا قال رأيت فى المنام كأنى شربت ماء البحر فقلت لعل ذلك يكون اشتهار علمك ومايناسب هذا فرأيته لايرجع عما وقع فى نفسه ووجدته كثير العلم قليل العقل وكان عمره لما قتل ثمانية وثلاثين سنة وله عدة مصنفات فى الحكمة منها التلويحات والتنقيحات والمشارع والمطارحات وكتاب الهياكل وحكمة الاشراق وكان يزعم أنه يعرف السيمياء [١] وله نظم حسن [٢] .

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة وفيها سارت الافرنج الى عسقلان وشرعوا فى عمارتها محرم والسلطان بالقدس وفيها قتل المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى قتله الباطنية وكانوا قد دخلوا فى زى الرهبان الى صور .

ذكر عقد الهدنة مع الافرنج وعود السلطان الي دمشق

وسبب ذلك ان ملك الانكتار مرض وطال عليه البيكار فكتب الى الملك العادل يسأل الدخول على السلطان فى الصلح فلم يجب السلطان الى ذلك

---

(١) السيما : ضرب من السحر يقوم على إحداث مثالات وخيالات لا وجود لها فى الحس .

(٢) نظم حسن أى شعر جيد .

ثم اتفق رأى الأمراء على ذلك لطول البيكار وضجر العسكر وكثرة نفقاتهم فاجاب السلطان الى ذلك واستقر أمر الهدنة فى يوم السبت ثامن عشر شعبان وتخلفوا على ذلك فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان ولم يحلف ملك الانكتار بل أخذوا يده واعتذر بأن الملوك لايحلفون وقنع السلطان بذلك وحلف النكدهرى ابن اخته وخليفة فى الساحل وكذلك خلف عيره من عماء الافرنج ووصل ابن الهنفرى وباليان إلى خدمة السلطان ومعهما جماعة من المقدمين وأخذوا يد السلطان واستحلفوا الملك العادل والملكين الأفضل والظاهر والملك المنصور والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص والأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك والامى بدر الدين دلدرم الياروقى صاحب تل باشر والامير سابق الدين عثمان ابن الداية صاحب شيزر والامير سيف الدين على بن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار وعقدت الهدنة عامة فى البحر والبر وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة اشهر أولها أيلول الموافق للحادى والعشرين من شعبان » .

وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الافرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها وأن تكون عسقلان خراباً واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلة فى عقد هدنته واشترط الافرنج دخول صاحب انطاكية وطرابلس فى عقد هدنتهم وأن تكون لد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين فاستق القاعدة على ذلك .

ثم رحل السلطان إلى القدس فى رابع شهر رمضان وتفقد أحواله وأمر بتسديد أسواره وزاد فى وقف المدرسة التى عملها بالقدس وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصند حنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم ثم صارت فى الاسلام دار علم قبل أن يتملك الافرنج القدس ثم لما ملك الافرنج القدس أعادها كنيسة كما كانت قبل الإسلام فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضى بهاء الدين ابن

شداد .

ولما استقر أمر الهدنة أرسل السلطان مائة من الحجارين لتخريب عسقلان وأمر أن يخرج من بها من الافرنج وعزم على الحج والاحرام من القدس وكتب الى أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن بذلك ثبطه الامراء وقالوا لانعتمد على هدنة الإفرنج خوفا من غدرهم فانتفض عزمه عن ذلك ثم رحل السلطان عن القدس لخمس مضين من شوال الى نابلس ثم الى بيسان ثم الى كوكب فبات بقلعتها ثم رحل الى طبرية ولقيه بها الامير بهاء الدين قراقوش الأسدى وقد خلص من الاسر وكان قد أسر بعكا لما أخذها الافرنج مع من أسر فسار قراقوش مع السلطان الى دمشق ثم سار منها الى مصر ثم سار السلطان الى بيروت ووصل الى خدمته بيمند صاحب انطاكية يوم السبت الحادى والعشرين من شوال فاكرمه السلطان وفارقه فى غد ذلك اليوم وسار السلطان الى دمشق ودخلها يوم الاربعاء لخمس بقين من شوال وفرح الناس به لان غيبته عنهم كانت مدة اربع سنين وأقام العدل والاحسان بدمشق وأعطى العساكر الدستور فودعه ولده الملك الظاهر وداعا لالقاء بعده وسار إلى حلب وبقى عند السلطان بدمشق ولده الأفضل والقاضى الفاضل وكان الملك العادل قد استأذن السلطان وسار من القدس إلى الكرك لينظر إلى مصالحه ثم عاد الى دمشق طالبا البلاد الشرقية التى سارت له بعد تقى الدين فوصل إلى دمشق فى الحادى والعشرين من ذى القعدة وخرج السلطان للقائه . وفى يوم الخميس السادس والعشرين من شوال من هذه السنة توفى الأمير سيف الدين المشطوب بنابلس وكانت اقطاعه فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس وأقطع الباقى للأمير عماد الدين احمد بن المشطوب واميرين معه .

ذكر وفاة السلطان عز الدين قليج أرسلان صاحب بلاد الروم

(واخبار الذين تولوا بعده)

فى هذه السنة أعنى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة فى منتصف شعبان توفى السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان ابن قطلومس بن أرسلان ببغو بن سلجوق وكان ملكه فى سنة احدى وخمسين وخمسمائة وكان ذا ساسة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة وكان له عشرة بنين قد ولى كل واحد منهم قطرا من بلاد الروم واكبرهم قطب الدين ماكشاه بن قليج أرسلان المذكور وكان قد أعطاه أبوه سيواس فسولت له نفسه القبض على ابيه واخوته والانفراد بالسلطنة وساعده على ذلك صاحب ارزنكان فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقال لوالده وهو فى قبضته أنا بين يديك أنفذ أوامرك ثم أنه أشهد على والده بأنه جعله ولى عهده ثم سار إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية ووالده فى القبضة معه وهو يظهر أن ما يفعله انما هو بامر والده فخرج عسكر قيسارية لحربه فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية فأكرمه وعظمه كمايجب عليه فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسطنة وبقى أبوه يتردد فى بلاده بين أولاده كما ضجر منهم واحد ينتقل إلى الآخر حتى حصل عند والده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلوا فقوى أباه قليج وأعطاه وجمع له وحشد وسار معه الى قونية فملكها وأخذها من ابنه ملكشاه ثم سار الى اقصرا واتفق أن عز الدين اقليج أرسلان مرض ومات فى التاريخ المذكور فاخذه ولده كيخسرو وعاد به الى قونية فدفنه بها واتفق موت

ملكشاه بعد موت أبيه بقليل فاستقر كيخسرو فى ملك قونية اذا ثبت أنه ولى عهد أبيه ثم أن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسر وقوى على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية فهرب كيخسرو الى الشام مستجير بالملك الظاهر صاحب حلب ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج ارسلان بن سليمان فرجع كيخسرو الى بلاد الروم وازال ملك ابن سليمان وملك بلاد الروم جميعا واستقرت له السلطنة ببلاد الرو م وبقى كذلك الى أن قتل وملك بعده ابنه عز الدين كيكاووس كيخسرو ثم توفى كيكاووس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كقباد بن كيخسرو وتوفى كيقباد سنة أربع وثلاثين وستمائة وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو وكسره التترسنة احدى وأربعين وستمائة وتعضعض حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم ثم مات غياث الدين كيخسرو وانقضى بموته سلاطين بلاد الروم فى الحقيقة لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين وعز الدين فملكا معامدة مديدة ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة وهرب أخوه عز الدين الى القسطنطينية وتغلب على ركن الدين معين الدين البرواناه والبلاد فى الحقيقة للتتر ثم ان البرواناه قتل ركن الدين وأقام ابنا لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه وهو نائب للتتر على مانذكره ان شاء الله تعالى .

ذكر غير ذلك من الحوادث

وفى هذه السنة غزا شهاب الدين الغورى الهند فغنم وقتل مالا يحصى وفيها خرج السلطان طغريل من الحبس بعد قتل قزل أرسلان بن الدكز وكان قزل قد اعتقله حسبما تقدم ذكره فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وفيها توفى راشد الدين سليمان بن محمد وكنيته ابو الحشر صاحب دعوة الاسماعيلية بقلاع الشام واصله من البصرة .

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف ابن أيوب

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة والسلطان بدمشق على اكمل مايكون من المسرة وخرج إلى شرقى دمشق متصيداً وغاب خمسة عشر يوما وصحبه أخوه الملك العادل ثم عاد إلى دمشق وودعه أخوه العادل وداعا للقاء بعده فمضى الى الكرك وأقام به حتى بلغه وفاة السلطان وأقام السلطان بدمشق وركب فى يوم الجمعة خامس عشر صفر وتلقى الحجاج وكان عادته أن لايركب الاوهو لابس كزاغند فركب ذلك اليوم وقد اجتمع بسبب ملتقى الحجاج وركوبه عالم عظيم ولم يلبس الكزاغند ثم ذكره وهو راكب فطلب الكزاغند فلم يجده حملوه معه ولما التقى الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته الحج ووصل اليه مع الحجاج ولد أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن ثم عاد السلطان بين البساتين إلى جهة المنبع ودخل الى القلعة على الجسر وكانت هذه آخر ركباته فلحقه ليلة السبت سادس عشر صفركل عظيم وغشيته نصف الليل حمى صفراوية وأخذ المرض فى التزايد وقصده الأطباء فى الرابع فاشتد مرضه وحدث به فى التاسع رعشة وغاب ذهنه وامتنع من تناول المشروب واشتد الأرجاف فى البلد وغشى الناس من الحزن والبكاء عليه مالايمكن حكايته وحقن فى العاشر حقنتين فحصل له راحة وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً ثم لحقه عرق عظيم حتى نفذ من الفراش واشتد المرض ليلة الثانى عشر من مرضه وهى ليلة السابع والعشرين من صفر وحضر عنده الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة ليبيت عنده فى القلعة بحيث ان احتضر فى الليل ذكره بالشهادة وتوفى السلطان فى الليلة المذكورة أعنى فى الليلة المسفرة عن نهار الأربعاء السابع والعشرين من صفر بعد صلاة الصبح وبادر القاضى الفاضل بعد صلاة الصبح فحضر وفاته ووصل القاضى بهاء الدين بن شداد بعد وفاته وانتقاله الى رحمة الله تعالى وكرامته

وغسله الفقيه الدولعي خطيب دمشق وأخرج بعد صلاة الظهر من نهار الاربعاء المذكور في تابوت مسجى بثوب وجميع ما احتاجه من الثياب في تكفينه أحضره القاضي الفاضل من جهة حل عرفها وصلى الناس عليه ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها وكان نزوله الى جدته وقت صلاة العصر من النهار المذكور .

وكان الملك الأفضل ابنه قد حلف الناس له قبل وفاة والده عندما اشتد مرضه وجلس للعزاء في القلعة وأرسل الملك الأفضل الكتب بوفاة والده الى أخيه العزيز عثمان بمصر والى أخيه الظاهر غازي بحلب والى عمه والملك العادل ابى بكر بالكرك ثم ان الملك الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع وكانت دارا لرجل صالح ونقل اليها السلطان يوم عاشوراء سنة اثنين وتسعين وخمسمائة ومشى الملك الأفضل بين يدى تابوته وأخرج من باب القلعة على دار الحديث الى باب البريد وأدخل ووضع قدام المنبر وصلى عليه القاضي محيى الدين ابن القاضي زكي الدين ثم دفن وجلس ابنه الملك الأفضل في الجامع للعزاء ثلاثة أيام وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة مالا عظيما .

وكان مولد السلطان صلاح الدين بتكريت في شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة وكان عمره قريباً من سبعة وخمسين سنة وكانت مدة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وملكه للشام قريباً تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة وكان أكبر أولاده الملك الأفضل نور الدين على ابن يوسف ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة وكان العزيز عثمان أصغر منه بنحو سنتين وكان الظاهر صاحب حلب أصغر منها وبقيت البنت حتى تزوجها ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر .

ولم يخلف السلطان صلاح الدين في خزانته غير سبعة وأربعين درهما

وجرم واحد صورى وهذا من دخل الديار المصرية والشام وبلاد الشرق واليمن دليل قاطع على فرط كرمه ولم يخلف داراً ولا عقاراً . قال العماد الكاتب حسبت ما أطلقه السلطان فى مدة مقامه بمرج عكا من حيل عراب واكاديش فكان اثنى عشر ألف رأس وذلك غير ما أطلقه من أثمان الخيل المصابة فى القتال فلم يكن له فرس يركبه الا وهو موهوب أو موعود به .

ولم يؤخر صلاة عن وقتها ولاصلى الا فى جماعة وكان اذا عزم على أمر توكل على الله ولايفضل يوم على يوم وكان سماع الحديث النبوى وقر مختصرا فى الفقه تصنيف سليم الرازى وكان حسن الخلق صبوراً على مايكرهه كثر التغافل عن أصحابه يسمع من أحدهم مايكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه . كان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بقشرموزة فأخطأته ووصلت الى السلطان ووقفت بالقرب منه فالتفت الى الجهة الاخرى ليتغافل عنها وكان طاهر المجلس فلايذكر أحد بمجلسه الا بخير وطاهر اللسان فما ولع يشتم قط . قال العماد الكاتب مات بموت السلطان الرجال . وفات بفواته الأفضال .وعضت الايادى . وفاضت الأعادى . وانقطعت الأرزاق . وادلهمت الآفاق . وفجع الزمان بواحده وسلطانه ورزىء الأسلام بمشيد أركانه [1] .

ذكر ما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان

ولما توفى السلطان الملك الناصر صلاح الدين استقر فى الملك بدمشق وبلادها المنسوبة اليها ولده الملك فيصل نور الدين على وبالديار المصرية الملك العزيز عثمان وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازى وبالكرك والشوبك

(١) كتب كثير من المؤرخين عن صلاح وبطولاته الحربية الفردية أو القيادية ولذا يجب دراستها بتفهم وتمعن وتدقيق للوقوف على خباياها ويجب علينا أن نشير إلى نقطة مهمة هى أن صلاح الدين ليس وحده صانع الأحداث والانتصارات فى عصره وإنما كان يقود حركات متيقظة فاهمة متدينة عاونه فيها الكثيرون من ذوى الهمم العالية ومن العجب أن نسمع مقولة : إن الرجال ماتوا بموت صلاح الدين فلا يجب أن يموت الرجال أبداً بموت عظيم منهم ، ولن تموت الأم الحية المؤمنة المجاهدة فى سبيل ربها تبارك وتعالى ما دامت فيها من يؤمن بالله تبارك وتعالى ويؤمن بحق الجهاد وفريضته وما أكثر أبطال المسلمين فى التاريخ الإسلامى فإن المسلمين إذا ذهب منهم بطل تبعه بطل آخر إلى أن تقوم الساعة .

والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر وببعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن شيركوه ابن شاذى وبيد الملك خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى وهو فى خدمة أخيه الملك الأفضل وبيد جماعة من أمراء الدولةبلاد وحصون منهم سابق الدين عثمان ابن الداية بيد شيزر وابو قبيس وناصر الدين بن كورس ابن خماردكين بيده صهيون وحصن برزية وبدر الدين دلدرم بهاد الدين ثياروق بيده تل باشر وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون وعز الدين ابراهيم بن شعس الدين المقدم بيده بغراس وكفر طاب وفامية .

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان والمعهود اليه السلطنة أو اراسنوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الاثير مصنف المثل السائر وهو أخو عز الدين بن الاثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ففارقوه الى أخويه العزيز والظاهر قال اجتمعت اكابر الامراء بمصر وحسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ووقعوا فى أخيه الأفضل فمال إلى ذلك وحصلت الوحشة بين الاخوين الافضل والعزيز .

تم بحمد الله وعونه والحمد لله رب العالمين والصلاة

والسلام على سيدنا محمد وآله

وصحبه اجمعين

يقول مصححه راجي

غفران المساوي محمد محمد الرخاوي

الحمد لله الذى جعل سير الأولين تذكرة لأولى الألباب والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى فتح للهداية أبواب وعلى آله وأصحابه الكرام الأنجاب وبعد فقد تم بعون الله الملك الوهاب طبع كتاب

(النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)

فى سيرة رافع علم العدل والأحسان صلاح الدين الأيوبى غفر الله له ولجميع المسلمين آمين

وذلك فى يوم السبت ١٥ ذو القعدة سنة ١٣٤٦ من هجرة خير البريه وذلك بمطبعة حضرة الفاضل المحترم السيد محمد افندى على صبيح الكائنة بجوار الازهر الشريف بمصر المحميه

(فهرست كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبى المسمى)
(النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)

(فهرست الذيل من منتخبات التاريخ لصاحب حماة)

تم بحمد الله


دار ابن خلدون
اسكندرية ٤٤٥٩٧٢٣









